العقلانيُّون

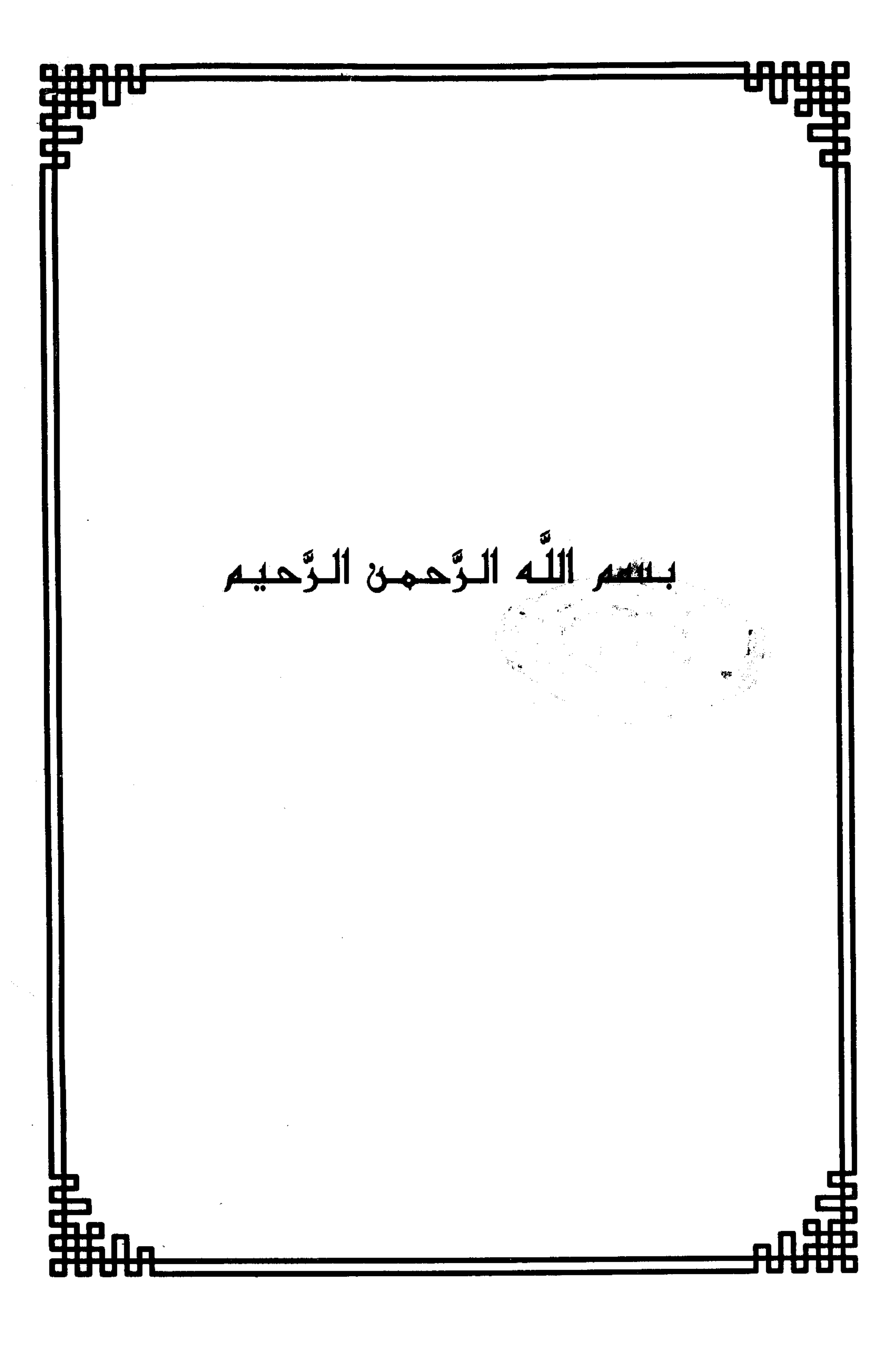
أفراخُ المُعتَزِلَةِ العَصرِيُّون

كَتَبَهُ

عليُّ بن حَسن بن علي بن عبدالحميد

الحلبيّ الأثريّ

مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة النّبويَّة



بسم الله الرّحمن الرّحيم

مُقدِّمةُ المُؤلِّفِ

إنَّ الحمدَ للَّه نحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونعوذُ باللَّهِ مِن شُرورِ أنفُسِنا، ومِن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَن يَهدِه اللَّهُ فَلا مُضلَّ له، ومَن يُضلِلِ فَلا هاديَ لهُ .

وأشهَدُ أنْ لا إلهَ إلّا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ لهُ .

وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسولُه .

أمَّا بعد :

فإنَّ الكلامَ في (**العقلِ**) و (**العُقلاءِ**) و (**العَقلَنَةِ**) وما يُشتَقُّ منها: كلامٌ يستهوي الكثيرَ الكثيرَ مِن النَّاسِ ويروجُ عليهم؛ لِما يَحويهِ مِن مَعانٍ برَّاقةٍ لها جانبٌ (ظاهرٌ) مِن الحقِّ الصَّريحِ، لكنَّها تُخفي بين طيّاتها جوانبَ مِن الباطلِ القبيح !

ولقد امتَدحَ ربُّنا سبحانه عبادَه الصَّالحين في مواضعَ مِن كتابِه بِحَثِّهم على **العَقْلِ**[1] والفَهمِ، فقال سبحانَه مُرغِّباً :

﴿ ... **أَفلا تَعقِلُون** ﴾ .

---

(١) مصدرُ (**عَقَلَ، يَعقِلُ**) وليست هنا اسماً .

﴿ ... لعلَّكم **تعقِلون** ﴾ .

﴿ ... إنْ كُنتُم **تعقِلون** ﴾ .

﴿ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقومٍ **يَعقِلُون** ﴾ .

﴿ كذلكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لقومٍ **يَعقِلونَ** ﴾ .

﴿ وَتلكَ الأمثالُ نَضرِبُها للنَّاسِ لعلَّهم **يَعقِلونَ** ﴾ .

... وبالمُقابِلِ فَإنَّ هناكَ آياتٍ أُخرى نعى اللَّهُ سبحانه - فيها - على أُولئكَ المُهمِلينَ **عُقولَهم**، الذينَ لا يتدبَّرونَ، ولا يتفكَّرون، ولا **يعقِلون**؛ فقال جلَّ وَعلا :

﴿ وَلَقَد أضلَّ منكم جِبِلّاً كَثيراً أَفَلَم تَكونوا **تَعقِلون** ﴾ .

﴿ وَقالُوا لَو كُنَّا نَسمعُ أو **نَعقِلُ** ما كُنَّا في أصحابِ السَّعير ... ﴾ .

﴿ صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فَهُم لا **يَعقِلون** ﴾ .

﴿ إنَّ شرَّ الدَّوابِّ عندَ اللَّهِ الصُّمُّ البُكْمُ الَّذينَ لا **يَعقِلون** ﴾ .

﴿ أَفأنتَ تُسمِعُ الصُّمَّ وَلَو كانوا لا **يَعقِلون** ﴾ .

وهكذا؛ فإنَّ اللَّهَ تعالى قد ذكرَ « **العقلَ** في القرآنِ في معرضِ المدحِ لأهلِهِ في مواضعَ يطولُ عدُّها، وهو جديرٌ بالمَدحِ الكاملِ »[1]؛ لأنَّهُ القاعدةُ التي ينطلقُ منها كلُّ إنسانٍ في الوعي عن اللَّهِ أحكامَه وعقائدَه؛ فهو « بمثابةِ

(١) « مَرهم العِلَل المُعضلة في الردّ على أئمّة المعتزلة » (ص:٦٤) لليافعيّ .

الدليلِ، فلولاه لَما أجدى سَمعٌ، وَلَما أغنى بَصَرٌ؛ فَسَمْعٌ بلا **عَقل**، هو لحمةٌ صمَّاءُ، وَبَصَرٌ بلا **عَقل** هو جُنونٌ مُطبِق »[1].

« بل العقلُ شَرطٌ في معرفةِ العلومِ، وكمالِ صلاحِ الأعمالِ، وبه يَكمُلُ العلمُ والعَمَلُ »[2].

ومنذُ فجرِ الإسلامِ، نَبتَت - بتَلبيسِ إبليسَ - نَوابتُ قدَّسَت **العقلَ**، وجعَلَتهُ هو الأصلَ والأساسَ، بل نصَّبَتْهُ مُشَرِّعاً ومُحَكَّماً؛ فإذا جاءَ شرعٌ لم (يفهمهُ) **عقلٌ** ... رُدَّ الشَّرعُ ...

وإذا تعارضَ **عقلٌ** قاصِرٌ ... مَعَ نَصٍّ ظاهرٍ ... أُوِّلَ النَّصُّ ... بل حُرِّفَ ... وَأُبْطِلَ !!

قال الإمامُ ابنُ القيِّم [3] رحمه اللّه :

« إنَّ هذه المُعارضَةَ بين **العَقلِ** والنَّقلِ هي أصلُ كلِّ فسادٍ في العالَم، وهي ضدّ دعوةِ الرُّسُل من كلِّ وجهٍ؛ فإنَّهم دَعَوا إلى تقديمِ الوَحيِ على الآراءِ **والعُقولِ**، وصارَ خصومُهم إلى ضدِّ ذلك؛ فأتباعُ الرُّسلِ قدَّموا الوَحيَ على الرَّأي **والمعقولِ**، **وأتباعُ إبليسَ** أو نائبٍ من نوَّابهِ قدَّموا **العقلَ** على النَّقل !

---

(١) « المنهج العلمي للاعتقاد » (ص:٦٣) لشاكر عبدالجبار .

(٢) « مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيميّة » (٣/٣٣٨-٣٣٩) .

(٣) « مختصر الصواعق المرسلة » (١/٢٩٣) للموصلي .

(تنبيهٌ) : هذا الكلامُ سقطَ من الطبعة المحقَّقة لِـ « الصواعق المرسلة » (٤/١٤٣٨-الأصل)، ولم يستدركه المحقِّق !

وقال محمد بن عبدالكريم الشَّهرَستاني، في كتابه « المِلَل والنحل »[1]:

اِعلم أنَّ أوَّل شُبهةٍ وَقَعت في الخَلقِ شُبهةُ إبليس، **ومَصدَرُها استبدادُه بالرَّأيِ في مُقابلةِ النَّصِّ**، واختيارُه الهوى في مُعارضةِ الأمرِ[2]، واستكبارُه بالمادَّة التي خُلقَ منها - وهي النَّارُ - على مادَّةِ آدمَ - وهي الطِّين - !

وتشعَّبتْ عن هذه الشُّبُهةِ شُبُهاتٌ !! » .

ولم يَكتفِ أُولئكَ المنحرفونَ بهذا الغِيِّ الذي أثقَلوا **عقولَهم** به؛ لِيَصُدُّوا عن أنفسهم ردودَ أهلِ الحقِّ عليهم، **لا**؛ ولكنَّهم اتَّهموا أهلَ الحقِّ بإهمالِ **العقل** .. وبالجهلِ .. والجمودِ .. وسذاجةِ الفهم .. و الحَشْوِ .. و .. إلى غير ذلك مِن ألقابٍ هم أحقُّ بها وأهلُها !!

وهؤلاء (**العقلانيُّون**) سلسلةٌ ظالمٌ أهلُها، ابتدأَت مِن المُعتزلةِ الضُّلَّالِ الأُوَلِ ... ثمَّ لم يَخْبُ أُوارُها إلى هذه السَّاعةِ ... فتلقَّفها المُبتدعةُ والمُنحرفون، و (قَفزَ) إليها المتحلِّلون و المُتهوِّكون ... كلٌّ ينادي بها ... ويدعو إليها ... لكنْ بألوانٍ مُتغيِّرةٍ ... وأثوابٍ مُزركشَةٍ ... وألفاظٍ مُنمَّقةٍ !

وهذا كلُّه ممَّا يُغرِّرُ ذوي **العقول** القاصرةِ، ويبهرُ ذوي الأنظارِ الضَّعيفةِ، الذين يَحسبونَ كُلَّ لامعٍ ذَهباً !!

لذلك؛ فإنَّنا رَأينا عَدداً مِن عامَّةِ النَّاس، قليلي الفَهم، كليلي النَّظر،

---

(١) (١/٩-١٠) .

(٢) وقع في طبعة « المختصر » : « الرأي » ! وهو خطأٌ بلا لأْيٍ !!

لا يفهمون شرعاً، ولا **يعقلون** لُغةً، ومَعَ ذلك (تسرَّبت) إليهم مِن أُولئكَ الزَّاعمين (**العقلَ**) تلك الخِدعةُ (**العقلانـيَّـةُ**) الجاهلةُ !

فكم سَمعنا مِن جاهلٍ يعترضُ على السُّنَّة النبويَّة !

وكم سَمعنا مِن بليدٍ ينتقصُ نصّاً شرعيّاً (متواتراً) !

وكم سَمعنا مِن أُمّـيٍّ لا يفقهُ علماً يَرُدُّ قاعدةً دينيّة !

وكم سَمعنا مِن عامّـيٍّ لا يعرفُ قَطاتَهُ مِن لَهاتِه يستدركُ على الكبارِ الكبار !

وكم سَمِعنا مِن (نصفِ متعلّم) يَعلُو (بصوتِه) رَدّاً لعقائدَ مُسلَّمةٍ !

وكم سَمعنا مِن (شِبْهِ مثقَّفٍ)[1] خلا له الجوُّ فأرغى وأزبدَ واشتدَّ ... حتى (تكادَ) أمعاؤه تتقطَّعُ !

وهم ... يَحسَبونَ أنّهم يُحسِنونَ صُنعاً !!

وأُولئكَ (العقلانيُّون) ... القُدماءُ بِقِدَم ضَلالتِهم؛ لا زلنا نَسمعُ مَن يُلمِّعهُم، ويُفخِّمُ شأنَهم، ويُعظِّمُ أمرَهم، فيقولُ فيهم واصفاً مُبجِّلاً : القاضي ... الإمام ... الأستاذ ... الدَّاعية ... المجدِّد ... الفيلسوف ... المُفكِّر ...

... إلى آخرِ تِلْكُمُ الألقاب الفارغة التي لا تحملُ شيئاً مِمّا تَدُلُّ عليه أكثرَ مِن وَزنِ المِدادِ !

---

(١) هكذا يُحبُّونَ أن يُقال لهم !

ألقابُ مملكةٍ في غيرِ مَوضِعِها
كالهِرّ يَحكي انتفاخاً صَوْلَةَ الأسَدِ

... فلمّا رأيتُ ذلك التّغريرَ كُلّه ... وهذا الاغترارَ جميعَه : ترشَّحَ عندي لزومُ الرَّدِّ على هؤلاء المنحرفين الجهَلَة؛ الذينَ لم يعرفوا حقيقةَ الدِّين، فجَهِلوا قَدْرَ سُنَّةِ سيِّد المرسلين، فاختلطَت عليهم الأُصولُ، وتناقَضَت عندهم الأُسس ... ومع هذا وذلك ... فهم يظنّون - إلى الآن ! - أنّهم **العاقِلون** ... وأنَّ غيرَهم لا **يعقلون** !!

ولقد سمَّيتُ كتابي : « **العقلانيـون أفراخُ المعتزلةِ العصريُّون** »؛ وحُقَّ لهؤلاءِ المُنتَسِبينَ زُوراً إلى **العقلِ** أن يُسَمَّوْا (أهلَ الأهواءِ)؛ لأنّه الوصفُ المطابقُ لحالِهم وواقعِهم ! وأمّا **العقلُ** الحقُّ فهُم عنهُ بِمَعزِلٍ !!

وفي هذا الكتابِ - أخي المسلم **العاقلُ** المُوحّد - سترى ما ينقضُ - بالحُجَّةِ - فِكرَهُم العاطل، ويُقوِّضُ - بالدَّليل - شَفا بُنيانِهِمُ الباطل، ويُسفِّهُ - بالحقِّ - آراءَهم المَوْهومة، ويُبطلُ - بالبراهين - **عقولَهم** المزعومة !!

فاللّهَ العظيمَ أسألُ أنْ يَهدي المُخلصين منهم، الذين يَسعَونَ إلى الحقِّ، لكن ضَلُّوا طريقَهُ، فها هو طريقُه بيِّنٌ ظاهرٌ مُستقيمٌ؛ إنَّهُ طريقُ الكتابِ والسُّنَّةِ، الحكَمِ العَدلِ، **بفَهمِ سَلَف الأُمَّة الأثباتِ**؛ الذين عايشوا الوَحيَ، وشَهدُوا التَّنزيلَ، فكانوا أقربَ إلى الحقِّ، وأدنى إلى عَينِ الصَّواب .

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤمنونَ حتى يُحكِّموكَ فيما شجرَ بينهم **ثمّ لا يَجِدُوا**

في أنفسهِم حَرَجاً مِّمَّا قَضَيتَ وَيُسلِّموا تَسليماً ﴾ .

هذا هو المِعيارُ ... هذا هو القِسطاسُ ... هذا هو الميزانُ ...

وبَعدَ ذلك كُلِّه أقولُ لأولئك - بادِيءَ بَدْءٍ - بكلِّ وضوحٍ وجلاءٍ :

نَعَم؛ « إنَّ **للعقلِ** البشريِّ وزنَه وقيمتَه بوصفِهِ أداةً مِن أدواتِ المعرفةِ والهدايةِ في الإنسان ... هذا حقٌّ ... ولكنَّ هذا **العقلَ** البشريَّ هو **عقلُ** الأفرادِ والجماعاتِ، في بيئةٍ من البيئات، متأثِّراً بشتَّى المؤثِّرات ... ليسَ هناك ما يُسمَّى (**العقل** البشريّ) كمدلولٍ مُطلق !! [يكونُ أساساً يُبنى علَيهِ غيرُه، ويكونُ حَكَماً - بين أُمورٍ مختلفةٍ - لا يُرَدُّ حُكمُه]، إنَّما هناك **عَقلي** ... **وعقلُكَ** ... **وعقلُ** فُلان ... وعلّان ... **وعقولُ** هذه المجموعةِ من البَشرِ، في مكانٍ ما، في زمانٍ ما ...

وهذه كلُّها واقعَةٌ تحتَ مُؤثِّراتٍ شتَّى، تميلُ بها من هنا، وتميلُ بها مِن هناك .

ولا بدَّ مِن ميزانٍ ثابتٍ، تَرجعُ إليه هذه **العقولُ** الكثيرةُ؛ فتعرفُ عنده مدى الخطأِ والصَّوابِ في أحكامها وتصوُّراتها، ومدى الشَّططِ والغُلوِّ، أو التَّقصيرِ والقُصورِ في هذه الأحكامِ والتصوُّرات .

وقيمَةُ **العقلِ** البشريِّ هُنا أنَّهُ الأداةُ المهيَّأةُ للإنسانِ؛ ليعرفَ بها وزنَ أحكامِهِ في هذا الميزانِ الثَّابتِ، الذي لا يميلُ مع الهوى، ولا يتأثَّر بشتَّى

المؤثّرات ... »[1].

ومَعَ هذا التَّخبُّطِ الظَّاهرِ في ميزانهم المُدَّعى ...

ومعَ هذا القَلبِ البيّن لحقيقةِ الفِطرَةِ ...

ومعَ هذه الانتكاسةِ الجليَّةِ لمكانةِ **العقل** ومعرفتهِ ...

... فإنَّك ترى هؤلاء **العقلانيّين** يتبجَّحونَ بكُلِّ استعلاءٍ، ويُنادي الواحدُ منهم بأعلى صوته - ردّاً لنصٍّ شرعيٍّ أو سنَّةٍ نبويَّةٍ - : إنَّ (**العقلَ**) يُحيلُ[2] هذا الكلامَ، ويرفضُهُ، ولا يقبلُهُ !!!

قال مَن هو شَجىً في حُلوقِ أهلِ الباطلِ قديماً وحديثاً [3] :

« وَيكفيكَ دليلاً على فسادِ قولِ هؤلاءِ : أنَّهُ ليس لواحدٍ منهم قاعدةٌ مستمرَّةٌ فيما يُحيلُه العقلُ، بل منهم مَن يَزعُم أنَّ العقلَ جوَّزَ وأوجبَ !! ما يدَّعي الآخرُ أنَّ العقلَ أحالَهُ !

فيا ليتَ شِعري : بأيِّ عقلٍ يُوزَنُ الكتابُ والسُّنَّةُ !؟

فَرَضِيَ اللَّهُ عن الإمام مالكِ بن أنسٍ حيثُ قال : « أَوَكُلَّما جاءَنا رجلٌ أجدلُ مِن رجلٍ؛ تَرَكنا ما جاءَنا به جبريلُ إلى محمَّد صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم لجَدَلِ هؤلاء[4] ».

---

(١) « الظلال » (٢/٦٩٠) .

(٢) أي : يجعلهُ مُستحيلاً !!

(٣) هو شيخ الإسلام ابن تيمية في « مجموع الفتاوى » (٥/٢٩) .

(٤) كلمة الإمام مالك رواها ابنُ بطَّة في « الإبانة » (٥٨٢) .

فَليَرجِع هؤلاءِ القومُ إلى الجادَّةِ الصَّحيحةِ ... والعقلِ الرَّجيح ...

وَلْيَرْكَنُوا إلى التَّسليمِ المُطلقِ لأمرِ اللَّهِ وأمرِ رسولهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم ... فَهُما قاربُ النَّجاةِ ...

وَلْيَضَعُوا الأُمورَ في مواضِعها الحقَّةِ ... فهذا أَزْكى لهم ... وأَطهَرُ ...

وَلْيَعرِفُوا أنَّهم - بما هم صانِعوهُ - يُقدِّمونَ لأهلِ الكُفرِ والشِّركِ خدماتٍ جُلَّى في نَقضِ أُسُسِ الإسلامِ، وَرَدِّ أصولِ هذا الدِّين ... سواءٌ أَعَلِموا ذلك أم جَهِلوه ! أَرَضُوا بهِ أم رَفَضُوه !!

ولكنْ :

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذهَبُ جُفاءً وأَمَّا ما يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمكُثُ في الأرضِ ﴾ .

واللَّهُ يقولُ الحقَّ وهو يَهدي إلى سواءِ السَّبيلِ .

○ ○ ○ ○ ○

كَتَبَهُ : أبو الحارث الأثري .
صبيحة يوم الثلاثاء
لثمانٍ خلون من جُمادى الأول سنة (١٤١٣هـ) .

الفصل الأوّل

التَّعريفُ بالعقل

حتى يُبنى كتابُنا هذا على أُسُسٍ علميَّةٍ صحيحةٍ، لا بُدَّ مِن التَّعريفِ بالعقلِ لغةً واصطلاحاً :

أوّلاً : معنى (العقل) لغةً :

العقلُ : العينُ والقافُ واللَّامُ أصلٌ واحدٌ مُطَّرِدٌ يَدلُّ عُظْمُهُ على حَبْسَةٍ في الشيءِ أو ما يُقاربُ الحَبْسةَ .

مِن ذلك (العَقل)، وهو الحابسُ عن ذميمِ القولِ و الفِعل[1].

وهو مصدرُ (عَقِلَ)، يَعقِلُ، عقلاً، فهو معقولٌ، وعاقلٌ .

وأصلُ معنى (العقل) : المنعُ، يُقال : عَقِلَ الدَّواءُ بطنَه، أي : أمسكَهُ، وعَقِلَ البَعيرَ : إذا شدَّ وظيفَهُ[2] إلى ذراعِه، وشدَّهما جميعاً بحبلٍ؛ لمنعهِ مِنَ الهَرَبِ[3].

---

(١) انظر « معجم مقاييس اللغة » (٦٩/١) لابن فارس .

(٢) الوظيفُ مِن الحيوان : مقدَّم السَّاق .

(٣) « اللسان » (٤٥٨/١١) بتصرُّف، وانظر « تاج العروس » (٣٥/٤) .

وقال شيخُ الإسلام ابنُ تيميّة في « بُغية المُرتاد » (ص:٢٤٩) :
« العقلُ : مصدر (عَقِلَ، يَعقِلُ، عَقلاً) إذا ضَبَطَ وأمسك ما يعلَمُهُ »[١].

وقال الفيروزآباديُّ في « القاموس المحيط » (ص:١٣٣٦) :

« العقلُ : العلمُ، أو بصفاتِ الأشياء، مِن حُسنها وقُبحها، وكمالها، ونُقصانها، أو العلم بخير الخيرين، وشرِّ الشرّين، أو مُطلَقٌ لأُمورٍ، أو لقوّةٍ بها يكونُ التَّمييزُ بين القُبحِ والحُسنِ، وَلِمَعانٍ مُجتمعةٍ في الذِّهن » .

وقال - أيضاً - في « بصائر ذوي التَّمييز » (٨٥/٤) :

« وسُمِّيَ العقلُ عقلاً لأنَّهُ يعقِلُ صاحبَهُ عمَّا لا يَحسُنُ، وهو القوَّةُ المُتهيِّئةُ لِقَبولِ العلمِ، ويقالُ للعلمِ الذي يستفيدُه الإنسانُ بتلك القوّةِ : العلم، أيضاً » .

ثانياً : معنى (العقل) اصطلاحاً :

قد اختلفت[٢] التَّعريفاتُ الاصطلاحيَّةُ لِـ (العقل) وتنوَّعت، وسائرُها عليه ملاحظاتٌ ونقَداتٌ .

والتَّعريفُ المُختارُ هو أنَّ (العقل) : « يقعُ بالاستعمال على أربعةِ معانٍ:

« **الأوَّل** : الغريزةُ التي في الإنسانِ، فيها يعلمُ ويعقلُ، وهي كقوَّةِ البَصرِ في العينِ، والذَّوقِ في اللسانِ، فهي شرطٌ في المعقولاتِ والمعلوماتِ،

(١) وانظر « الردّ على المنطقيّين » (ص:١٩٦) له - رحمه الله - .

(٢) انظر « التعريفات » (١٥٧) للجرجاني، و « الحدود » (ص:٢٥) للباجي، وغيرها .

وهي مناطُ التَّكليفِ، وبها يمتازُ الإنسان عن سائرِ الحيوان .

الثَّاني : العلومُ الضَّروريَّةَ؛ وهي التي تشملُ جميع العقلاء، كالعلمِ بالمُمكناتِ، والواجباتِ، والممتنعاتِ، والفلاسفةُ والمتكلِّمونَ عرّفوا العقلَ بها، ومنهم مَن قسَّمها إلى قسمين : قسم يقع في النَّاس ابتداءً، والآخرُ يحصلُ بالاكتسابِ، وخصُّوا العقلَ بالقسم الأوَّل .

الثَّالث : العلومُ النظريَّةُ؛ وهي التي تحصلُ بالنَّظرِ والاستدلالِ، وتفاوُتُ النَّاسِ وتفاضُلُهم فيها أمرٌ جليٌّ وواقعٌ .

الرَّابع : الأعمالُ التي تكون بموجب العلم، ولهذا قال الأصمعيُّ : « العقل : الإمساكُ عن القبيح، وقَصْرُ النَّفسِ وحَبْسُها على الحسن »، وقيل لرجلٍ وصف نصرانياً بالعقل : « مه، إنَّما العاقلُ من وحَّد اللَّه وعملَ بطاعتهِ »، وقال أصحابُ النَّار : ﴿ **لَو كنَّا نسمعُ أو نعقلُ[1] ما كنَّا في أصحابِ السَّعير** ﴾ .

فتعريفُ بعضِ النَّاس العقلَ بذكر بعض هذه المعاني ليس بجامعٍ، والصَّوابُ ذكرُ معانيه مجتمعةً..

وفي كل معاني العقلِ المتقدِّمة لا يُوصَف بأنَّهُ جوهرٌ قائمٌ بنفسه، خلافاً للفلاسفةِ وَمَن شايَعَهم من المتكلِّمين، بل العقلُ صفةٌ أو عَرَضٌ - عند مَن يتكلَّم بالجوهرِ والعَرَضِ - يقوم بالعاقل، وكونُهُ صفةً يمنعُ كونَه أوَّلَ

(١) فليس كُلُّ صاحب (دماغٍ) عاقلاً !! ولو ظنَّ نفسَه (مُفكِّراً) أو وُصِفَ بأنّه (الفيلسوف) أو (العقلانيُّ) !!

المخلوقات، لأنَّ الصِّفةَ لا تقومُ بنفسها »[1].

وهذه التَّعريفاتُ الأربعةُ جَمعَها شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّة رحمه اللَّهُ في كلمةٍ جامعةٍ له، حيث قال[2]:

« فالعقلُ، والإمساكُ، والضَّبطُ، والحِفظُ، ونحو ذلك، ضِدّ الإرسال، والإطلاق، والإهمال، والتسيُّب، ونحو ذلك، وكلاهما يكونُ بالجسمِ الظَّاهر، للجسم الظَّاهر، ويكونُ بالقلبِ الباطن للعلمِ الباطن، فهوَ ضَبطُ العلمِ، وإمساكُه، وذلك مستلزمٌ لاتِّباعِهِ .

فلهذا صارَ لفظُ (العقل) يُطلقُ على العَمَل بالعلمِ » .

ثالثاً : أنواعُ العقل :

قال الإمامُ الحافظُ قِوامَ السُّنَّة أبو القاسم التَّيميُّ الأصبهانيُّ[3]:

« العقلُ نَوعان؛ غَريزيٌّ واكتسابيٌّ :

فالغَريزيُّ ما يكون موجوداً مع المولودِ؛ كعقلهِ لِلارتِضاع، وأكلِ الطعامِ، وضَحِكِه ممَّا يَسُرُّه، وبكائه ممَّا لا يهواهُ، وامتناعِهِ ممَّا يضرُّه؛ كلّ هذا يعقلُه بالعقلِ الغريزيّ .

---

(١) « منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد » (١/١٥٨-١٦٠) بتصرُّف - للأخ عثمان ابن علي بن حسن .

(٢) في « بُغية المرتاد » (ص:٢٥٠-٢٥١) .

(٣) في « الحجّة في بيان المحَجّة » (٢/٥٠٢-٥٠٤) .

وقد صدّر - رحمه الله - كلامَه بقوله : « قال بعضُ العُلماء » .

وأصلُ العقلِ في اللُّغة : الحَبسُ؛ والحيوانُ قَد يَحبِسُ نَفسَه عمَّا يضرُّه، وذلك إلهامٌ يدعوه إلى ما ينفعهُ حتى لا يَقرُبَ ممَّا فيه ضَرَرُهُ وهلاكهُ، بل يَنفِرُ منه ولا يأكلُ ممَّا يضرُّ به، أو يكونُ سُمّاً من النَّباتِ وغيره .

ثمَّ يكتسبُ الصَّبيُّ زيادةً في العقلِ على مُرورِ الأيَّام إلى أن يَبلُغَ أربعينَ سنَةً، فحينئذٍ يَكمُلُ عقلُه؛ قال اللَّه تعالى : ﴿ حتَّى إذا بلغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أربَعينَ سَنةً ﴾، أي : بلغَ كمالَ العَقل، وبَلَغَ أربعينَ سنةً، ثمَّ بعد ذلك يأخذ عقلُهُ في النقصان إلى أن يَخْرَفَ .

وتلك الزيادةُ عَقلٌ اكتسابيٌّ، فإنَّ العلمَ يكونُ كُلَّ يومٍ في زيادةٍ، ومنتهى تعلُّم العلمِ منتهى العُمُر، فالإنسانُ لا يصيرُ مُستغنياً عن زيادةِ العلمِ ما دام به رَمَقٌ، وقد يَستغني عن زيادةِ العقلِ إذا بلغَ مُنتهاه .

وهذا يدلُّ على أَنَّ العقلَ أضعَفُ من العلمِ، وأنَّ الدِّين لا يُدرَكُ به لضعفهِ وقلَّته، ويُدرَكُ بالعلمِ لقوَّتهِ وكثرتِه .

ويدلُّ على ذلك أنَّ العاقلَ إذا جُنَّ ذهب عنه العقلُ الاكتسابيُّ، ولم يَهتَدِ إلى أمرِ الآخرةِ وما يتعلَّقُ بالدِّين، وبقي معه العَقلُ الغريزيُّ يفعلُ ما يفعلهُ الصَّبيُّ، ولم يذهب عنه ما يتعلَّق بالأُمور الدُّنيويَّة؛ من الأكلِ والشربِ والإمساكِ عمّا يَضُرُّ به، والإسراعِ إلى ما ينفعهُ، **فدلَّ أنَّ قليلَ العقلِ وكثيرَه لا مجالَ له في الدِّين ما تنضمَّ إليه قرينةٌ** » .

وهذا ما سيأتي - بِحَولِ اللَّه - تفصيلُهُ وبيـانُهُ بتَطويلٍ .

الفصل الثاني

منزلةُ العقل في الإسلام[1]

وينتظمُ ذلك مباحثُ :

المبحثُ الأوَّل : مظاهرُ تكريمِ الإسلام للعقل :

« إنَّ المذاهبَ الفلسفيَّة والكلاميَّة، والتي أرادَت تمجيدَ العقلَ، والرَّفعَ من شأنهِ - حسبَ زعمهم - لم ولن يَصِلُوا - بحالٍ - إلى عُشرِ مِعشار ما بلغَهُ الإسلامُ من تكريمٍ للعقلِ، وتشريفٍ له، هذا إذا لم نقل : إنَّهم أساءوا إلى العقلِ أيَّما إساءةٍ؛ حيث أوغلوا به في مفاوزَ لايُهتَدى فيها إلى سبيل، حتى صارَ أحدُهم يأتي بالحكم ونقيضهِ، وإنْ أصابَ مرَّة، تعثَّر مراتٍ !

وأصحابُ العقلِ - على ما بينَهم من الاختلافِ والتنازعِ - كلٌّ يدعي استنادَهُ إلى العقلِ، وقيامَ الحجَّة معه، وظهورَ البرهان عنده، هذا، وكلُّهم مُجْمِعون على أنَّ حُجَّة العقلِ قطعيةٌ ! لا يقوى دليلٌ على مُعارَضَتِها ! فهم

---

(١) ولأخينا الشيخ محمَّد موسى نصر رسالةٌ مختصرةٌ لطيفةٌ عنوانها « العقل : ومنزلته في الإسلام »، وهي مطبوعة في دار الغرباء الأثرية، في المدينة النبويَّة .

مُختلفون فيه، مُخالفون له !! »[1].

وقد « غَلَت البشَريَّةُ في نظرتها للعقلِ، ولا سيَّما بعد أن فتحَ اللَّهُ للعقلِ مجالاتٍ رحبةً في علوم الفضاءِ والذَّرَّةِ، واكتَشفوا كثيراً من أسرارِ الكَونِ التي كانَ يجهلُها، وظنَّت أنَّ بإمكانها أن تَستَغني عمَّا جاءَ به الأنبياءُ، فَطَرَحُوا الشَّرائعَ السَّماويَّة جانباً، وسَنُّوا لأنفسهم الأنظمةَ، وشَرَعوا لحياتِهم القوانين، وأحلُّوا ما اشتَهَتهُ أنفسُهم، وحرَّموا ما اشمأزَّت منه نفوسُهم، استناداً على ما تُمليهِ عقولُهم القاصرةُ وخيالاتهُم المَمرورةُ [2]، فحارَبوا الدِّينَ السَّماويَّ بحُجَّةِ تحرير العقلِ من قُيودِهِ، وإفساحِ المجالِ له ليَقومَ بواجبِه، مِن وضعِ الأنظمَةِ وسنِّ القوانين .

ولم يسبق هؤلاء في مقالتهم إلّا طائفةٌ وثنيَّةٌ في بلاد الهند تُدعى البراهمة، وهُم من عبّاد البقر .

والعقلُ في التصوُّر الإسلامي له وضعٌ يليقُ به، لا يرتفعُ ليكونَ إلهاً، ولا يُمْتَهَنُ ليكونَ صاحبهُ كسائرِ الحيوانات، إذ من المُسلَّم أنَّ العقلَ له قُدرةٌ في معرفةِ ما يُصلحهُ وما يضرُّه، وقُدرةٌ في معرفةِ الحَسَن من القبيحِ معرفةً فطريَّةً »[3]؛ إنْ لم يُمسَخ أو تغيِّرهُ الطَّوارىءُ !! .

---

(١) « منهج الاستدلال على الاعتقاد » (١٦٨/١) عثمان بن علي بن حسن .

(٢) المريضة الفاسدة .

(٣) « مجلَّة البيان » / العدد:٦ / (ص:٣٨)، مقال : « مجال العقل البشريّ، وحاجة البشر إلى الرسالة » للدكتور سليمان العايد .

والحقيقةُ النَّاصعةُ الظَّاهرةُ أنَّهُ[1] « ليسَ ثمَّةَ عقيدةٌ تقومُ على احترامِ العقلِ الإنسانيِّ وتعتزُّ به وتعتمد عليه في ترسيخها كالعقيدةِ الإسلاميَّة .

وليس ثمَّةَ كتابٌ أَطْلَقَ سراحَ العقلِ، وغالى بقيمته وكرامتِه كالقرآن الكريم؛ كتابِ الإسلام، بل إنَّ القرآن لَيُكثِرُ من استثارةِ العقلِ ليؤدِّي دورَه الذي خلقه اللَّه له .

ولقد أبرزَ الإسلامُ مظاهرَ تكريمِهِ للعقلِ واهتمامِهِ به في مواضعَ عدَّةٍ، نذكر منها :

أوَّلاً : قيامُ الدَّعوةِ إلى الإيمان على الإقناع العقليِّ :

فلم يطلب الإسلامُ من الإنسانِ أن يُطفىءَ مصباحَ عقلِهِ ويعتقدَ، بل دعاه إلى إعمال ذهنه، وتشغيل طاقته العقلية في سبيلِ وصولها إلى أمور مُقنعة في شؤون حياتها .

وقد وجَّه الإسلامُ هذه الطَّاقة بتوجيهاتٍ عدَّة لِتَصِلَ إلى ذلك :

١ - فوجَّهها إلى التفكُّر والتَّدبُّر .

أ - في كتابه :

﴿ كتابٌ أنزَلناهُ إليكَ مُباركاً لِيَدَّبَّروا آياتِه ولِيَتَذكَّرَ أُولوا الألبابِ ﴾ .

﴿ أَفَلا يَتَدبَّرونَ القرآنَ وَلَو كانَ مِن عندِ غَيرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فيهِ اختلافاً

---

(١) مِن هنا إلى آخر المبحث الثاني من هذا الفصل اقتباسٌ - بتصرف واختصار - من كتاب « منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير » (ص:٢٩-٤٠) تأليف : فهد الرُّومي .

كَثيراً ﴾ .

﴿ أَفَلا يَتَدبَّرونَ القُرآنَ أم على قُلوبٍ أقفالُها ﴾ .

ثم يستثيرُ العقلَ الإنسانيَّ ويتحدّاه أن يأتي بمثلِ هذا القرآن، حتى إذا ما أدركَ عَجزَهُ عرفَ أنَّهُ من عند اللَّه، ﴿ قُل فَأْتُوا بِعَشرِ سُورٍ مِثلِه مُفتَرياتٍ ﴾ .

﴿ فَلْيأتوا بَحديثٍ مِثلِهِ إنْ كانوا صَادِقين ﴾ .

ب - وفي مخلوقاته :

﴿ الَّذينَ يَذكُرونَ اللَّهَ قِياماً وقُعوداً وَعَلى جُنوبِهِم ويتفكَّرونَ في خَلقِ السَّمواتِ والأرضِ ربَّنا ما خَلَقتَ هذا باطِلاً سُبحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّار ﴾ .

﴿ أَوَلَم يَتَفكَّروا في أنفسِهِم مَّا خلقَ اللَّهُ السَّمواتِ والأرضَ وما بَينهُما إلّا بالحقِّ وأجَلٍ مسمَّى وإنَّ كثيراً من النَّاس بلقاءِ ربِّهم لَكافِرون ﴾ .

﴿ أَفَلا يَنظُرونَ إلى الإبلِ كيفَ خُلِقَت وإلى السَّماءِ كيفَ رُفِعَت وإلى الجبالِ كَيفَ نُصِبَت وإلى الأرضِ كيفَ سُطِحَت ﴾ .

ثمَّ يتحدَّى العقلَ بحواسِّه أن يجدَ خَلَلاً في شيء منها ليزدادَ بعد عجزِهِ إيماناً وتسليماً، ﴿ الَّذي خلقَ سبعَ سمواتٍ طِباقاً مَّا تَرَى في خَلقِ الرَّحمنِ مِن تفاوُتٍ فارجِع البَصَرَ هَل تَرى مِن فُطورٍ ثمَّ ارجِع البَصَرَ كَرَّتين يَنقلبْ إليكَ البَصرُ خاسِئاً وهوَ حَسيرٌ ﴾ .

جـ - وفي تشريعاته :

﴿ وَلَكُم في القِصاصِ حَياةٌ يا أُولي الألباب لعلَّكم تتَّقون ﴾ .

﴿ وأنْ تَصُوموا خَيرٌ لكُم إنْ كُنتم تَعلَمون ﴾ .

﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا إذا نوديَ للصَّلاةِ مِن يَومِ الجُمعَةِ فاسعَوا إلى ذكرِ اللَّه وَذَرُوا البيعَ ذلكم خيرٌ لكم إنْ كُنتُم تَعلَمون ﴾ .

فأمر بالتفكُّر في تلك التَّشريعات لِتَحَرِّي الحكمَةِ فيها، لأنَّ الحياةَ لا تسيرُ آليةً بحيثُ تنطبقُ عليها القاعدةُ التَّشريعيَّةُ انطباقاً آليّاً، وإنَّما هناك مئاتٌ من الحالات للقاعدة الواحدةِ، وما لم يكن الإنسانُ مُدْرِكاً للحكمةِ الكامنةِ وراءَ التَّشريعِ وفاهماً لترابطِ التَّشريعات في مجموعها فلَن يتمكَّن من تطبيقها في تلك الحالاتِ المختلفةِ التي تَعرِضُ للبشرِ في حياتِهم الواقعيَّة .

وقد عُنيَ الإسلامُ بإيقاظ العقل لتدبُّر هذه التَّشريعات ليستطيعَ تطبيقَها على خير وجهٍ[1].

د - وفي أحوالِ الأُمم الماضيةِ، وما أدَّت بهم المعاصي إليه :

﴿ قُل سيروا في الأرضِ ثمَّ انظُروا كيفَ كانَ عاقِبَةُ المُكذِّبين ﴾ .

﴿ ألَم يَرَوا كَم أهلكنا مِن قبلهم مِن قَرنٍ مكَّنَّاهُم في الأرضِ ما لَم نُمكِّن لَكُم وأرسَلنا السَّماءَ عَليهم مِدراراً وجَعَلنا الأنهارَ تَجري من تَحتهم فأهلكناهُم بذُنوبهم وأنشأنا مِن بعدهم قَرناً آخَرين ﴾ .

---

(١) قارن بـ « منهج التربية الإسلاميَّة » (ص:١٠٤) محمَّد قطب .

هـ - وفي الدُّنيا ونعيمها الزَّائل :

﴿ وَاضرِب لَهُم مَثَلَ الحياةِ الدُّنيا كَماءٍ أنزَلناهُ مِنَ السَّماءِ فاختلطَ بهِ نباتُ الأرضِ فأصبحَ هشيماً تَذرُوهُ الرِّياحُ وكانَ اللّهُ على كلِّ شَيءٍ مُقتَدِراً ﴾ .

وهذا التَّأمُّلُ والتدبُّرُ ليس هو المقصودَ لذاته، وإنَّما ليُؤدِّيَ ثمرةً نافعةً، لا أعني بها فلسفةً يتشدَّقُ بها الفلاسفةُ، ويتبارونَ في إغماضِ الكلامِ فيها وإبهامِه، ثم لا ينتهون إلى شيء !! وإنَّما أعني بها الإصلاحَ ... إصلاحَ القلبِ ... إصلاحَ العقيدةِ ... إصلاحَ الحياةِ في الأرضِ على منهجِ الدِّينِ الصَّحيح .

٢ - ووجَّه الإسلامُ الطَّاقةَ العقليَّةَ لمراقبةِ نظام الحياة الاجتماعيَّة مراقبةَ توجيهٍ وإصلاحٍ، لِتَسيرَ الأمورُ على منهجٍ صحيحٍ : ﴿ وَلْتَكُن منكُم أُمَّةٌ يَدعونَ إلى الخيرِ ويَأمُرونَ بالمَعروفِ ويَنهَونَ عن المنكرِ وأُولئكَ هُمُ المُفلِحونَ ﴾ .

وحمَّل المسؤوليَّة كلَّ فَردٍ من أفرادِ المجتمع، وهدَّده بالعقابِ إذا علم ولم يُصلح، ولو كان صالحاً في نفسه : ﴿ واتَّقوا فتنةً لا تُصيبنَّ الَّذينَ ظَلَموا منكُم خاصَّةً ﴾ .

﴿ لُعِنَ الَّذينَ كَفَروا مِن بَني إسرائيلَ عَلى لسانِ داودَ وَعيسى ابنِ مريمَ ذلكَ بما عَصَوا وكانوا يَعتَدونَ كانوا لا يَتناهونَ عَن منكرٍ فَعَلُوه لَبِئسَ ما كانوا يَفعَلون ﴾.

وقال ﷺ : « كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته »[1].

ثانياً :

ولم يَقْسُرِ الإسلامُ - بعد هذا - العقلَ على الإيمان، وإنَّما تركَ له الخيار بين الإيمانِ والكفرِ ﴿ لا إكراهَ في الدِّين ﴾ .

﴿ وَقُلِ الحقُّ مِن ربِّكُم فَمَن شاءَ فَلْيُؤمن ومَن شاءَ فَلْيَكفُر ﴾ .

﴿ أَفَأَنتَ تُكرِهُ النَّاسَ حتى يَكونوا مؤمنِينَ ﴾ .

﴿ فَذكِّر إنَّما أنتَ مُذكِّرٌ لستَ عليهم بِمُسَيطِرٍ ﴾ .

فلم يُكره الإسلامُ العقلَ على الإيمان[2]؛ **ضِمْنَ شروطٍ معروفةٍ في الكتاب والسُّنَّة، بيَّنها الفُقهاءُ، وفصَّلها العُلماءُ .**

ثالثاً :

وَحَرِصَ الإسلامُ على قيام العلاقةِ بينَ العبد وربه على الوضوحِ العقليِّ في العقيدةِ والشَّريعةِ، وعدمِ تقييدِه له بعد اقتناعه وإيمانهِ بالرَّهبانية، فلا رهبانيَّة في الإسلام؛ لِما فيها من تَقييدٍ للعَقلِ - فَضلاً عن الغرائز والحواسِّ -، ولِما فيها من تعطيلٍ للطَّاقةِ والقوى البشريَّة، والمُخالفةِ لنظامِ الحياةِ مُخالفةً تقضي بالفناءِ على البَرِيَّة فيما لو اعتنقَ النَّاسُ الترهُّبَ والانعزالَ ديناً .

---

(١) رواه البخاري (١٣/١٠٠)، ومسلم (١٨٢٩) عن ابن عمر .

(٢) انظر المعنى الصحيح لقول الله سبحانه : ﴿ لا إكراهَ في الدِّين ﴾ في : « المحرّر الوجيز » (٢/٢٨٠)، و « معالم التنزيل » (١/٣٦٢)، و « تيسير الكريم الرحمن » (١/٣١٦)، و « خصائص التصوُّر الإسلامي » (ص:١٨) .

رابعاً :

ومن مظاهرِ تكريمِ الإسلام للعقلِ نَعيُهُ على المُقلِّدين الذين لا يُعمِلونَ أذهانَهم، وحذَّر من التَّقليد الأعمى والتعصُّب الأَصَمّ لنظريَّاتٍ واهيةٍ وآراءٍ زائفةٍ ناشئةٍ عن الخرافاتِ والأهواء : ﴿ وإذا قِيلَ لهُم اتَّبعوا ما أنزلَ اللَّه قالوا بَل نَتَّبِعُ ما ألفَينا عَلَيهِ آباءَنا أَوَلَوا كانَ آباؤُهم لا يَعقِلونَ شيئاً ولا يَهتَدون ﴾ .

﴿ أَصلاتُكَ تأمُرُكَ أنْ نَّترُكَ ما يَعبُدُ آباؤنا ﴾ .

﴿ فَلا تَكُ في مِرْيَةٍ مِمَّا يَعبُدُ هؤلاءِ ما يَعبُدونَ إلّا كما يَعبُدُ آباؤهم مِّن قبلُ وإنَّا لَمُوَفُّوهم نَصيبَهُم غيرَ منقوصٍ ﴾ .

وَأَمَرَ بالتثبُّت في كلِّ أمر قبل الاعتقاد به واقتفائه : ﴿ وَلا تَقْفُ ما ليسَ لَكَ بِهِ علمٌ إنَّ السَّمعَ، البَصَر والفؤادَ كلُّ أُولئكَ كانَ عنهُ مسؤولاً ﴾ .

﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا إنْ جاءَكم فاسقٌ بنبإٍ فَتَبيَّنوا ﴾ .

خامساً :

ومن مظاهر تكريمِ الإسلامِ للعقلِ أمرُهُ بالتعلُّم، والحثُّ على ذلك؛ فكما أنَّ نموَّ الجسمِ بالطعامِ، فإنَّ نموّ العقل بالعلمِ، إذ بهذا يكونُ الإيمانُ عن إدراكٍ أوسعَ، وفهمٍ أعمقَ، واقتناع أتمَّ .

بل قَرنَ سبحانَه ذِكرَ أُولي العلم بذكره عزَّ وجلَّ وبذكرِ ملائكتهِ : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أنَّهُ لا إلهَ إلّا هوَ والملائكةُ وأُولوا العِلم قائماً بالقِسط لا إلهَ إلّا هوَ العزيزُ الحكيمُ ﴾ .

﴿ إنّما يَخشى اللَّهَ مِن عبادِه العُلماءُ ﴾

﴿ يرفعِ اللَّهُ الَّذينَ آمَنوا منكُم والَّذينَ أُوتوا العِلمَ دَرَجاتٍ ﴾ .

وجعلَ العِلمَ مُشاعاً؛ لأنَّهُ غذاءُ العقلِ الذي به ينمو : ﴿ إنَّ الَّذينَ يَكتُمونَ ما أنزلنا مِن البيِّنات والهُدى مِن بعدِ ما بيَّنَّاهُ للنَّاسِ في الكتابِ أُولئكَ يلعنهُم اللَّه ويَلعنهُم اللَّاعنونَ إلّا الَّذينَ تابوا وأصلَحوا وبيَّنوا فأُولئكَ أتوبُ عليهم وأنا التوَّاب الرَّحيم ﴾ .

لذا لم يَعرف الإسلامُ (رجلَ الدين) الذي يحتكرُ علومَه، ويُعطي صكوكَ الغفران، ويَملكُ التَّحليلَ والتَّحريمَ، ولكنَّه يعرفُ فكرةَ (عالم الدين) الذي يُرجَع إليه لمعرفةِ حُكم اللَّه فيما اشتبه على النَّاسِ من أُمورِ دينهم مُستنداً إلى دليلٍ معتبرٍ شرعاً من غير إلزامٍ إلّا بحجَّةٍ من كتابٍ أو سنَّةٍ أو إجماعٍ مُسلَّمٍ به .

سادساً :

ومن ذلك إسنادهُ استنباطَ الأحكامِ فيما لا يُوجَدُ فيه نصٌّ من كتابٍ أو سُنَّةٍ أو إجماعٍ إلى الاجتهاد - الذي يقومُ مدارُه على العقل -، حيث قال رسول اللَّه ﷺ حاضّاً عليه - عند فَقْدِ النَّصِّ - : « إذا اجتهَدَ الحاكمُ وأصابَ فله أجران، وإذا اجتهدَ وأخطأ فله أجرٌ واحدٌ »[1].

فجعلَ من اجتهاد العقلِ أساساً للحُكم - لمن هو أهلُه - عند فقدانِ

(١) رواه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦) عن عمرو بن العاص .

النَّصِّ، مع تثبيت الأجر عند الخطأ .

سابعاً :

ومنها الأمرُ بتكريمه والمحافظةِ عليه، والنَّهيُ عن كلِّ ما يُؤثِّر في سَيره أو يُغطِّيه فضلاً عمَّا يُزيله .

فحرَّم لذلك شُربَ الخمر : ﴿ إنَّما الخَمرُ والمَيسرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجسٌ مِن عملِ الشيطانِ فاجتَنِبُوه ﴾ .

وحرَّم كل مسكر : « كلُّ مسكر خمر، وكلُّ مسكر حرام »[1].

وامتدَّ التَّحريمُ أيضاً إلى الكميَّة التي لا تُسكر منها : « ما أسكرَ كَثيرُهُ فَقليلهُ حرام »[2]، كلُّ هذا حِفاظاً على العقلِ وعلى بقائه .

وجعل الديةَ كاملةً على من تسبَّب في إزالتهِ عن آخرِ :

قال الإمامُ ابنُ قُدامَة في كتابهِ « المُغني » (٨/٣٧) :

« لا نعلم في هذا خلافاً، وقد رُويَ عن عُمر وزيدٍ رضي اللَّه عنهما، وإليه ذهبَ مَن بَلَغنا قولُه من الفقهاء؛ لأنَّهُ أكبرُ المعاني قَدْراً، وأعظمُ الحواسِّ نفعاً، فإنَّ به يتميَّز عن البهيمة، ويعرف حقائقَ المعلومات، ويهتدي إلى مصالحهِ، ويتَّقي ما يضرُّه، ويدخلُ به في التَّكليف وهو شرطٌ في ثبوتِ الولاياتِ، وصحَّةِ التصرُّفات، وأداءِ العباداتِ، فكان بإيجاب الديَة أحقَّ من بقيَّة الحواس » .

---

(١) رواه البخاري (١٠/٢٥)، ومسلم (٢٠٠٣) عن عبداللَّه بن عُمر رضي تعالى عنهما .
(٢) حديثٌ صحيحٌ، له طرق؛ انظر تخريجه موسَّعاً في « إرواء الغليل » (٢٣٧٥) .

المبحث الثَّاني : مجالُ العقل في الإسلام :

ولكنَّ الإسلامَ بعد هذا التَّكريم كلّه وذلك الاهتمام جميعه، قد حدَّد للعقل مجالاته التي يخوضُ فيها حتى لا يَضلَّ .

وفي هذا تكريمٌ له - أيضاً - لأنَّه محدودُ الطَّاقات والمَلَكات؛ فلا يَستطيع أن يُدرك كلَّ الحقائق مهما أُوتيَ من قُدرةٍ وطاقةٍ على الاستيعاب والإدراك .

لذا؛ فإنَّهُ سيظلُّ بعيداً عن مُتناولِ كثيرٍ من الحقائق، وإذا ما حاوَلَ الخَوضَ فيها التبسَت عليه الأمورُ وتخبَّط في الظلمات، وفي هذا مدعاةٌ لوقوعِه في كثيرٍ من الأخطاء، وركوبِهِ مَتنَ العديد من الأخطارِ .

فأمرَ الإسلامُ العقلَ بالاستسلام والامتثال للأمرِ الشَّرعيِّ الصَّريح حتى ولو لم يُدرك الحكمةَ والسَّبب في ذلك .

وقد كانت أولَ معصيةٍ للَّه ارتُكِبَت بسببِ عدم هذا الامتثال؛ فحينَما أمرَ اللَّه سبحانه وتعالى إبليسَ بالسجود لآدمَ عليه السَّلام استكبرَ وعَصى، واستبدَّ برأيه فقارَنَ بين خَلقه وخَلق آدم عليه السَّلام : ﴿ قالَ أنا خَيرٌ منهُ خَلَقتَني من نارٍ وخَلَقتَهُ مِن طينٍ ﴾، فلم يمتثل للأمرِ طلباً للسبَبِ الذي يسجدُ لأجلِهِ الفاضلُ للمفضولِ - حسب رأيِه - فلمَّا لم يُدرك عقلُه السَّببَ رفضَ الامتثالَ فكانَت المعصيةُ وكانت العقوبة .

لذا منعَ الإسلامُ العقلَ من الخوضِ فيما لا يُدركه، ولا يكون في

مُتناوَلِ إدراكِهِ كالذَّات الإلهيَّةِ والأرواح في ماهيَّتها، ونحو ذلك، فقال رسولُ اللَّه ﷺ : « تفكَّروا في آلاءِ اللَّه ولا تفكَّروا في اللَّه »(١).

وقال ﷺ : « لا يزالُ النَّاسُ يتساءلون، حتى يقال : هذا خَلْقُ اللَّهِ، فَمَن خَلَقَ اللَّهَ ؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقُل : آمنتُ باللَّه ورسلِه »(٢).

وعن الرُّوح قال تعالى : ﴿ وَيَسأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحِ مِن أمرِ ربِّي ﴾ .

فصرف الجوابَ عن ماهيَّتها، لأنَّهُ ليس من شؤونِ العقلِ السُّؤالُ عنها ولا من مداركِه .

. وكذلك الجنَّةُ ونعيمها والنَّارُ وجحيمها وكيفيّة ذلك، وغيرها من الغيبيّات التي ليست في مُتناوَل العقلِ ومَداركِه .

وعلى هذا مضى المُسلمون في العصرِ الأوَّل من الإسلام : عَرَفوا ما للعقلِ فَدرسوه وحَفِظوهُ، وما ليسَ له فَاجْتَنَبُوه، بل اجتنبوا مَن عُرِف بالأهواء والسُّؤال عن المتشابه؛ فهذا صَبِيغُ بن عِسْل جعل يسألُ عن متشابه القرآن في أجناد المسلمين حتى قَدِمَ مصر، فبعث به عَمرو بن العاص إلى عمر بن الخطَّاب رضي اللَّه عنهما، فلمَّا أتاه الرَّسول بالكتابِ فقرأه، قال :

---

(١) حديثٌ حسنٌ بشواهده؛ انظر تخريجها - مفصلاً - في « سلسلة الأحاديث الصحيح » (١٧٨٨) لشيخنا الألباني

(٢) رواه البخاري (٦/٢٤٠)، ومسلم (١٣٥)، وأبو داود (٤٧٢١) عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه .

أين الرَّجل ؟ أبصِرْ لا يكونُ ذَهَبَ فَتُصيبكَ منِّي العقوبةُ الوجيعةُ، فأُتيَ به، فقال عُمر : سَبيلٌ مُحدَثَةٌ؛ فضربه، وأعادَه إلى أرضهِ، وكتبَ إلى أبي موسى الأشعريِّ أن لا يجالسَه أحدٌ من المسلمين .

قال أبو عثمان النَّهدي : فلو جاءَنا ونحن مئةٌ لتفرَّقنا عنه[1].

ولا يعني هذا أنَّ العصرَ الإسلاميَّ كان خالياً كلَّ الخلوِّ من الآراءِ الشَّاذَّةِ، بل وُجدَ في وقته عليه الصَّلاة والسَّلام شيءٌ من ذلك؛ ولكنْ كان لوجودهِ ﷺ ونزولِ الوحي حينئذٍ القضاءُ على تلك الآراء في مهدها، فالمنافقون قالوا يوم أُحد عن إخوانهم : ﴿ لو كانوا عِندَنا ما مَاتوا ومَا قُتِلوا ﴾ فهل هذا إلّا تصريحٌ بإنكارِ القَدَرِ[2].

وقالت طائفةٌ من المشركين : ﴿ لَو شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِن دونهِ من شَيءٍ ﴾ فهل هذا إلّا تصريحٌ بالجَبْرِ[2].

بل إنَّ منهم مَن جادَلَ في ذاتِ اللَّه؛ ﴿ وهُم يُجادِلونَ في اللَّه وَهُوَ شَديدُ المِحال ﴾ .

ولكنَّ هذه الآراء لم يتبنَّها أصحابُها ويَدعوا لها ويُؤلِّفوا عنها وينشروها بين النَّاس بل كانت تنطفىءُ في مَهدِها » .

---

(١) أخرجه الدارمي في « السنن » (١/٥٥-٥٦) .
وانظر « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » (ق ١٢٢) للخلّال .
(٢) قارن بـ « الملل والنّحل » (١/٢٢) للشّهرستاني .

المبحث الثَّالث : بين العقل والشَّرع :

« العقلُ شرطٌ في معرفةِ العلوم، وكمالِ وصلاح الأعمال، وبه يَكمل العلمُ والعَمَلُ، **ولكنَّه ليسَ مستقلاً بذلك**، لكونه[1] غريزةً في النَّفس، وقوَّةً فيها، [فهو] بمنزلةِ قوَّة البَصَر التي في العين، فإنِ اتَّصل به نورُ الإيمانِ والقرآن، كان كنور العين إذا اتَّصلَ به نورُ الشَّمس والنَّار .

وإنِ انفردَ بنفسهِ لم يُبصِر الأمورَ التي يَعجَزُ وحدَه عن دَرْكِها .

وإنْ عُزلَ بالكُليَّة : كانت الأقوالُ والأفعالُ مع عَدمهِ : أموراً حيوانيَّةً، قد يكون فيها محبَّةٌ، ووجدٌ، وذَوقٌ كما قَد يحصلُ للبهيمةِ .

فالأحوالُ الحاصِلةُ مع عدم العقلِ ناقصةٌ، والأحوالُ[2] المخالفةُ للعقل باطلةٌ .

والرُّسل جاءَت بما يعجزُ العقلُ عن دَرْكِهِ؛ لم تأْتِ بما يُعْلَمُ بالعقلِ امتناعهُ[3]، لكنِ المُسرِفون فيه قَضَوا بوجوبِ أشياءَ، وجوازِها، وامتناعها؛ لحُجَجٍ عقليَّةٍ بزعمهم اعتقدوها حقّاً، وهي باطلٌ، وعارضوا بها النبوَّات »[4].

---

(١) في « الأصل » : (لكنَّه) .

(٢) في « الأصل » : (والأقوال) .

(٣) وهذا كلامٌ لا يعقلهُ إلّا العالمون ... فتأمّل .

(٤) « مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيميّة » (٣/٣٣٨-٣٣٩) .

مِن أجلِ ذا؛ نَرى تناقُضَ (العقلانيّين) - قديماً وحديثاً - واضطرابَهم، وتَلَجلُجَهُم .

قال إمامُ السُّنَّة وأديبُها ابنُ قُتَيبةَ الدِّينَوَرِيُّ في كتابه « تأويل مختلف الحديث » (ص:١٤) مُبيِّناً حقيقةَ هؤلاء وبُطلان حُججهم :

« وقد كان يجبُ - مع ما يدَّعونَهُ من معرفةِ القياسِ، وإعدادِ آلاتِ النَّظر - أنْ لا يَختَلِفوا كما لا يختلفُ الحُسَّابُ، والمُسَّاحُ، والمُهندسون؛ لأنَّ آلاتهم لا تدلُّ إلّا على عددٍ واحدٍ، وإلّا على شَكلٍ واحدٍ ... فما بالُهم أكثرُ النَّاس اختلافاً، لا يجتمعُ اثنانِ من رؤسائهم على أمرٍ واحدٍ في الدِّين ! » .

وهم يدَّعون (القطع) و (العقل) و (النَّظر) !!

وهذا كلُّه يُعطينا **قاعدةً أساسيّةً لا تنخرمُ، ولا تُغالَطُ، وهي أنَّ الشَّرعَ قائدُ العقلِ، وأنَّهُ هو المعوّل، وهو الذي عليه الأمرُ الأوّلُ .**

« ومن ها هنا نعرفُ أنَّ المادِّيّين المُلحدين من أضلِّ الخلقِ وأجهلهم، وأعظمهم غُروراً، حيثُ اغترّوا لمَّا عرفوا بعضَ العلومِ الطَّبيعيَّة، ووقفتْ عقولُهم القاصرةُ عندها، وقالوا : نُثبِتُ ما وصلتْ معارفُنا إليه، ونَنفي ما سواهُ !! فتعرفُ بهذا أنَّ نَفيهم جهلٌ وباطلٌ باتِّفاق العقلاء؛ فإنَّ مَن نَفى ما لا يعرفه، فقد برهنَ على كذبهِ وافترائه، فكما أنَّ من أثبتَ شيئاً بلا علمٍ، فهو ضالٌّ غاوٍ، فكذلك من نفى شيئاً بغير علمٍ .

وتعرفُ أيضاً أنَّ إثباتهم لعلومِ الطَّبيعة التي عرفوها ووصلت إليها

معارفهم : إثباتٌ قاصرٌ لم يَصِلوا إلى غايته، وحقيقته، فلم يَصِلوا بذلك إلى خالقِ الطَّبيعةِ ومُبدعها، ولم يعرفوا المقصودَ من نظامها وسببيَّتها، فأثبتوا بعضَ السَّببِ، وعَمُوا عن المقصودِ !

وهم في علمِهم ذا حائرون مُتردِّدون، لا تَثْبُتُ لهم قدمٌ على أمرٍ من الأُمور، ولا تثبتُ لهم نظريَّةٌ صحيحةٌ مستقيمةٌ، فهم دائماً في خَبطٍ وخَلطٍ وتناقضٍ »[1].

« وليسَ معنى هذا إلقاءَ العقلِ جانباً كما هو في المفهوم الكَنَسيِّ، لأنَّ البحثَ العقليَّ ليس مذموماً على الإطلاقِ، بل يُذَمُّ إذا اكتُفيَ به عن الأدلَّةِ الشَّرعيَّة، أو قُدِّمَ عليها، أو عورضَ به نصوصُ الدِّين .

كما أنَّهُ لا دَخلَ للعقلِ في مجالِ الغيبِ - **السَّمعيَّات التَّفصيليَّة** - من أُمورِ العقيدة؛ لأنَّ المجالَ مجالُ تسليمٍ واستسلامٍ .

أمَّا أبحاثُ العقيدةِ التي يُستدلُّ بها على وحدانيَّةِ اللَّه تعالى وعلمِهِ وقُدرتهِ وحِكمتِه والبعث والجزاء، فقد طالب القرآنُ العقلَ البشريَّ أن يهتدي إليها، فهي أدلَّةٌ تدعَمُ النُّصوصَ وتزيدُ في تثبيتِ الاعتقادِ، ولهذا يجدُ المتأمِّلُ في كتابِ اللَّه تعالى الآياتِ الكثيراتِ، التي تَحُثُّ العقلَ البشريَّ على التأمُّل والتفكُّر والتبصُّر والتدبُّر .

إنَّ فَتحَ المجالِ أمامَ العقلِ البشريِّ لِيَنطلقَ في مجالاتِ الكَونِ فيُذلِّلَ

(١) « المعين على تحصيل آداب العلم وأخلاق المتعلّمين » (ص:١٧-١٨) للعلّامة عبدالرّحمن بن ناصر السّعدي، بتحقيقي، نشر دار الصميعي - الرياض

الصِّعابَ ويُرشدَ الإنسانَ إلى طُرُقِ الحضارةِ، ممَّا يعودُ على البشريَّة بالخير العميم، أمرٌ حَسَنٌ وجميلٌ، بل هو طريقهُ الطَّبيعيُّ ومسارُهُ الاعتياديُّ .

أمَّا أن يُسمحَ للعقلِ أن يتدخَّل في مجالاتِ الغيب ويُلاقي منَّا كلَّ تشجيعٍ واستحسانٍ : فهذا خطأٌ فادحٌ وحماقةٌ كُبرى تُرتكَب في حقِّ حاضرِ الإنسان ومُستقبله، وإهانةٌ صريحةٌ للعقلِ بتوريطهِ بالانزلاقِ في مساربَ لا دَخلَ له بها، بل هي بعيدةٌ جدّاً عن مطلبهِ، ومُحالٌ أمامَ تصوُّره .

لقد ابتدأَ المُعتزلةُ هذه المهزلةَ؛ حيث جَعَلوا العقلَ هو الحَكَمَ والفيصلَ، وأسنَدوا إليهِ مُهمَّةَ الكشفِ في عالم الغَيبِ ومَلَكوتِ الآخرةِ !!

وتدخّل العقلُ باحثاً في خصائصِ اليومِ الآخرِ، فأثبتَ ما أرادَ، ونفى ما شاءَ، واعتَدى على مقامِ الألوهيَّة العظيم، فتناولَ صفاتِ اللَّه تعالى بالتَّبديلِ والتَّحوير، والطَّمسِ والتَّزوير، مُنتهكاً حُرمةَ النُّصوص، غيرَ مُبالٍ ولا مُلتَفِتٍ لأيِّ وَعيدٍ أو عقابٍ، فتَناقَضَ أيَّما تناقُضٍ، ونفى عن الذَّات الإلهيَّة صفاتٍ أثبتها اللَّهُ لنفسه، زعمَ أنَّها أوصافٌ للأجسامِ ونعوتٌ للمخلوقات !!!

إنَّ العقلَ البشريَّ قاصرٌ كلَّ القصورِ في عالمِ الغيبِ، ونتائجهُ وتوقُّعاتُه كلُّها تخرُّصاتٌ سكرى وظنونٌ بَلهاء !!

وقَد بيَّنَت النُّصوصُ النَّبويَّةُ المباركةُ عدمَ الرُّكونِ إلى هذه الأوهام بعباراتٍ وجيزةٍ، فقد رُويَ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم قال : « تَفكَّروا في خَلقِ اللَّهِ، ولا تتفكَّروا في ذاتهِ فتهلَكوا »[1].

(١) سبق تخريجه .

إنَّ العقلَ إذا لم يَنطلِق من وَحي النُّصوص المعصومةِ فإنَّهُ سرعانَ ما يُخطىء، ولمَّا كان من مَهَامِّ العقيدةِ تنظيمُ سلوكِ الإنسان، فإنَّ نتائجَه آنذاك تكونُ خطيرةً وتُسبِّبُ اختلافاً بين النَّاس، وهل يتعارضُ النَّاسُ ويختلفون في أمورِ الدِّين إلّا بسببِ استخدامِ عقولهم بمَعزِلٍ عن نُصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ !

إنَّ العَقلَ مخلوقٌ من مخلوقاتِ اللَّه تعالى؛ شأنُه كشأنِها، له قُدراتُهُ المحدودةُ، وخصائصهُ الثَّابتةُ، فهل يُطلبُ من العينِ أن تُبصرَ ما يَبعُدُ عنها آلاف الأميال ؟

وهل يُطلَبُ من الأُذنِ أن تَسمعَ ما يدورُ بين الطُّيورِ في السَّماء من مناجاةٍ ؟

وهل يُطلبُ من اليَدِ أن تَحملَ جَبَلاً ؟

ومن القَدمِ أن تُزعزِعَ بِرَكلةٍ منها ناطحةَ سحابٍ ؟

أو غير ذلك من الأمورِ المُغرِقةِ في المحالِ، وكذلك الشأنُ نفسهُ بالنِّسبةِ للعقلِ البَشريِّ، عندما يتعرَّضُ لمسائلِ الغيبِ فيُثبتُ ويَنفي .

نعم؛ إنَّهُ يُباحُ للعقلِ أن يتعرَّف على المخلوقاتِ لأنَّهُ مخلوقٌ مثلها، **أما أن يتطاوَلَ هذا المخلوقُ المغرورُ ليَتدخَّلَ في مهامِّ الخالقِ العظيمِ، ويُنصِّبَ نفسَهُ الحكَم العَدلَ الذي لا يُرجَعُ عن حُكمه، ولا يُعترَضُ على قراره ! فتلك بليةُ البلايا وأعجوبة الأساطير !**

فهل يقَعُ الإنسانُ في ضلالٍ أبعدَ من هذا الضَّلال ؟

أضل

وصدقَ اللَّهُ إذ يقول : ﴿ وَمَن أظلمُ ممَّن اتَّبعَ هواهُ بغَيرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ ﴾ »[1]. القصص : ٥٠

ولا بدَّ - بعد هذا كلِّه - من الإشارة إلى مسألةٍ مهمَّةٍ غايةً، فنقولُ :

« العقلُ المجرَّدُ عن الهوى، المُتمحِّضُ لتمحيص الحقائق، المنزَّه عن كلِّ شائبةٍ تشوبُ التَّفكير أو تشوبُ الحكمَ وَهَمٌ توهَّمَتهُ الفلسفةُ الإغريقيَّةُ، كما توهَّمتهُ مِن بَعدِها كلُّ عقلانيَّةٍ بالَغَت في تقديرِ دورِ العَقلِ وتقدير قدُراته .

والواقعُ البَشريُّ الطَّويلُ يشهدُ بأحدِ أمرين أو بهما معاً في الحقيقةِ :

إمَّا أنَّ هذا العقلَ - في صورَتِهِ المجرَّدة تلك - لم يُوجَد قطُّ في واقعِ الأمر .

وإمَّا أنَّ البشريَّة لا تُحَكِّم عقلَها في جميعِ أحوالها .

وكلا الأمرين صحيحٌ ! فلا هذا العقلُ المُطلَقُ موجودٌ عند أحدٍ من البشرِ العاديِّين، ولا الفلاسفة ولا المفكِّرين، ولا البشريَّةُ تَخضَعُ لنداءِ العقلِ - على فَرَضِ صحَّته - وتُصيخُ إليه ! إلّا مَن رَحِمَ ربُّك !

والدَّليلُ - **العقليُّ** - على الأمر الأوَّل :

أنَّه لا يكادُ ينطبقُ عقلانِ من عقولِ البشريَّة في تاريخها الطَّويل كلِّه على تصوُّرٍ واحدٍ بجميعِ تفصيلاته، ولو كانت العقولُ - حتى عقولُ

(١) « علاقة الإثبات والتفويض بصفات ربِّ العالمين » (ص:٣١-٣٢) للأخ الفاضل رضا مُعطي .

الفلاسفة والمفكِّرين - بالصُّورة الوَهميَّة التي تُصوِّرُها العقلانـيَّةُ لَتلاقَت وتطابقَت [1] لأنَّ الحقّ لا يتعدَّد !

والدَّليلُ - العقليُّ كذلك - على الأمرِ الثَّاني :

هو هذا الجُنوحُ الدَّائمُ والتَّخبُّطُ الذي تُمارسُهُ البشريَّةُ، وتلك الحُروب المجنونة، وذلك الاتِّباع الجُنونيُّ للهوى والشَّهواتِ، ولو كانت البشريَّةُ تُصيخُ لنداء العقلِ في جميعِ أحوالها ما جنحَت ولا تخبَّطَت ولا أصابَها الجنونُ !

إنَّما الحقُّ - الذي تُشيرُ الدَّلائل كلُّها إليه - أنَّ العقلَ - في خارجِ مَيدانِه الأصيل - أداةٌ طيِّعةٌ لمن يُسيطر عليه :

فإذا سَيطرَت عليه الرُّوحُ المهتديةُ استقامَ منطقهُ واستقامَ تفكيرُه، وأصبحَ خادماً أميناً للهُدى يُسخِّر طاقاتهِ كلَّها في خدمته .

وإذا سيطَرَت عليه الرُّوحُ الضَّالَّةُ، أي : سَيطرَ عليه الهَوى والشَّهوات، فهو خادمٌ للضَّلالِ يُسخِّرُ طاقتَه كلَّها في خدمته، ويجادلُ أشدَّ الجَدَل لِتَسويغِ موقفِه :

﴿ وكانَ الإنسانُ أكثرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ .

﴿ وَجادَلوا بالباطلِ ليُدحِضوا به الحَقَّ ﴾ .

﴿ لَهُم قُلوبٌ لا يَفقَهونَ بها ﴾ .

---

(١) وهذا ما لم يحدُث، ولن يَحصُلَ !!

ومعرفةُ هذه الحقيقةِ عن العقل لا تَنْقُصُ من قَدْرِهِ كأداةٍ للتفكير، بل إنَّ هناك ميادينَ من الفكر هي خالصةٌ للعقلِ لا يُشاركه فيها غيرهُ من أدواتِ التلقِّي، وأدوات تحصيل المعرفة، وإنَّما معرفةُ هذه الحقيقة تجعلنا نتحفَّظ فقط في تقديرنا للقيمةِ النِّهائيَّة للعقل، بحيثُ لا نجعله هو المحكِّمَ في كلِّ شيءٍ، ولا المرجعَ الأخيرَ لكلِّ شيءٍ ! إنَّما نُنزِّلهُ منزلةَ الحقِّ، فما كان فيه هو المرجعَ الوحيدَ أو المرجعَ النهائيَّ وَكَلْناهُ إليه كلِّه، وما كان فيه قَميناً أن يَضِلَّ إذا تُرِكَ وحدَه جَعَلنا له الصُّحبةَ التي تمنعُ ضلالَه، وما كان عاجزاً عن الوصولِ فيه إلى شيء لم نُقحمه فيه ... **وهذا هو مَنهجُ الإسلام** »[1].

وممَّا يزيد التأصيلَ السابقَ بياناً وَوُضوحاً أن نقول :

إنَّ « مِنَ الدَّليل على ضَعفِ العقلِ، وأنَّ الدينَ لا يُدرَكُ به أنَّ اللَّه تعالى ذَمَّ المُنافقين الذين كانوا يَرجِعونَ في نفاقِهم إلى عُقولهم؛ فقال تعالى : ﴿ أفَتَطْمَعونَ أنْ يُؤمِنوا لكُم وَقَد كان فَريقٌ منهُم يَسمَعونَ كلامَ اللَّهِ ثمَّ يُحرِّفونَهُ مِن بَعدِ ما عَقَلُوهُ وهُم يَعلَمونَ ﴾، أي : مِن بَعدِ ما قالوا : وَقَفنا على كلامِ اللَّهِ تعالى بعقولنا ! وهُم يعلمونَ بُطلانَ ما أدركوهُ بعُقولهم .

فدلَّ هذا على أنَّ معنى كلامِ اللَّهِ لا يُدرَكُ بالعَقلِ، وإنَّما يُدْرَكُ بالعِلم، ولأنَّ العَقلَ لا مجالَ له في إدراكِ الدِّين بكمالِهِ، وبالعلمِ يُدركُ بكمالِهِ، ولأنَّ العلمَ يستحسنُ أشياءَ في الدِّين ولا يَرُدُّها شَرعاً، ويستقبحها العَقلُ ويردُّها طَبعاً؛ فإنَّ أكلَ المَيتَةَ؛ كالسَّمكِ والجرادِ، وأكلَ الدَّم؛ كالكبدِ والطِّحال

(١) « مذاهب فكرية معاصرة » (٥٣٢-٥٣٣) محمد قطب .

[وغيرَ ذلك مـمّا هو على بابته]، يردُّه العقل ويُحسِّنهُ العلمُ والشرعُ .

فَبانَ أنَّ العَقلَ لا مجالَ له في دَرْكِ الدِّين إذا كانَ مُنفرداً عن قرينةٍ، ولو كان للعقلِ مجالٌ في الدِّين يُدرِكُ به الدِّينَ لكانَ العُقلاءُ من الكُفَّار لا يُصِرُّونَ على الكُفرِ، ويُبصرونَ الدِّينَ القويمَ، لا سيَّما كُفَّارَ قُريشٍ الَّذينَ كانوا معروفينَ بِوُفورِ العَقلِ، وأصالةِ الرَّأي، حتى وَصَفَهُم اللَّهُ تعالى في كتابه فقال : ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُم أحلامُهُم بهذا ﴾، أي : عقولُهم؛ فدلَّ أن العَقلَ لا يَهدي إلى الدِّين .

ولو كان العَقلُ **يُغني**، لَمَا أمرَ اللَّهُ تعالى نبيَّه ﷺ بالمُشاورةِ في الأمرِ مع تمامِ عَقلِه، وَوُفورِ رَأيِهِ، فقال : ﴿ وَشاوِرهُم في الأمرِ ﴾، أي : لا تَتَّكِل على عَقلِكَ وَحدَهُ، فدلَّ هذا على ما قُلناه .

قال بَعضُ العُلماء : لا يُوصَفُ اللَّهُ بكونهِ عاقلاً، ويُوصَفُ بكونهِ عالماً، فدلَّ أنَّ العلمَ أقوى من العَقلِ »[1].

ولا بدَّ - هنا - من تنبيهٍ أخيرٍ مُهمٍّ جدّاً؛ وهو : « أنَّ الوَحيَ والعقلَ ليسا نِدَّين؛ فأحدُهما أكبرُ من الآخر وأشملُ، وأحدُهما جاءَ ليَكونَ هو الأصلَ الذي يرجعُ إليه الآخرُ، والميزانَ الذي يَختبرُ الآخرُ عنده مقرَّراتهِ، ومفهوماتِهِ، وتصوُّراتِه، ويُصحِّحُ به اختلالاتِه وانحرافاتِه .

فبينهما - ولا شكّ - توافقٌ وانسجامٌ؛ ولكن على هذا الأساس، لا

(١) « الحُجّة في بيان المحجّة » (٢/٥٠٤-٥٠٥) للأصبهاني .

على أساسِ أنَّهما نِدَّان متعادلان »[1].

فلولا أنِ (اختَرَعَ) بعضُ القاصرين الجهَلَةِ هذه (المشكلةَ) (العقلانيَّةَ) المدَّعاة ... لَما أوجَدنا هذه الهوَّةَ الواسعةَ بين الوحي والعقل ... لِنَنقُضَها ونُبطِلَها ... فالوَحيُ ... والشَّرعُ ... هما الأُصل ... والعقلُ يعقِلُ عنهما، ويأخذُ منهما ... فهو التَّابعُ ...

واللَّه الهادي .

○ ○ ○ ○ ○

(١) « خصائص التصور الإسلاميّ » (ص:٢٠) سيِّد قطب .

الفصلُ الثَّالثُ

ما هي (العقلانيَّةُ) ؟

لم يَكِلَّ أصحابُ الأهواءِ وأهلُ الضَّلال - قديماً وحديثاً - مِن الطَّعن في الإسلام، ونَبْزِ المسلمين؛ وذلك بتلفيق أوصافٍ تشمئزُّ منها النّفوسُ الزَّكيَّةُ، وتَنفرُ منها العقولُ النقيَّةُ، فنراهم يقولون :

رجعيُّون ... مُتزَمِّتون ... جامِدون ... جاهِلون ... مُتخلِّفون ... مُتطَرِّفون ... في تلفيقاتٍ كثيرةٍ لا نهايةَ لها إلّا بانتهاءِ أصحابها - إن شاء اللَّهُ - وزوالهم، وذهابهم !

« وآخِرَةُ هذه التَّلفيقات : الدَّعوةُ إلى الإسلام العقلانيِّ، وهي أُحبولةٌ مزوَّقةٌ جميلةٌ، لا يملكُ ساذجٌ إلّا أن يَقبلَ بها، حتى لا يُتَّهم بالغباء، ولأنَّ الإسلامَ نصَّ في كتابه العظيم - في عشرات الآيات - على (وجوبِ) التفكُّر، والتدبُّر، واستخدام (العقل)، وأَلْزَمَ بإعمال النَّظر في مَلكوتِ السَّماواتِ والأرضِ، وعَدمِ الخرورِ على الآياتِ خرورَ الصُّمِّ والعُميان، بل استقبالها استقبالَ المُتدبِّرين، كما أنَّ القلوبَ التي لا تتدبَّرُ الآياتِ إنَّما هي قلوبٌ غُلْفٌ خَتَمَ اللَّهُ عليها فلا تعقِلُ !

لكنَّ المُسترخِصين في سوق الأفكارِ كثيراً ما لا ينتبهون إلى أنَّ (العقلنَة) لا تعني ما يتبادرُ إلى ذهن السَّامع لأوَّلِ وهلةٍ، بل تَعني : أنْ يَحِلَّ العقلُ محلَّ النَّصِّ، وأنْ يقومَ هَوى الإنسان مقامَ هُدى الرَّحمن، وأنْ تكونَ النَّظريَّاتُ البشريَّةُ حاكمةً على القطعيَّات الربَّانيَّةِ !!

وهذا ما لا يَقبلُ به عاقلٌ ولا مسلمٌ ! »[1].

فالعقلانيَّةُ بهذا المفهوم تَعنيْ : « التفسير العقلانيّ لكلِّ شيءٍ في الوجودِ، أو تمريرَ كلِّ شيءٍ في الوجودِ من قَناةِ العقلِ لإثباتهِ أو نَفيِهِ، أو تحديدِ خصائصِهِ »[2].

وقد يُقالُ في تعريفها :

« العقلانيَّة : يُرادُ بها عموماً : المذهبُ الفلسفيُّ الذي يرى أنَّ كلَّ ما هو موجودٌ يُرَدُّ إلى مبادئَ عقليَّةٍ، وخصوصاً : الاعتدادُ بالعقلِ ضدَّ الدين، بمعنى عَدَم تقبُّل المعاني الدِّينيَّة إلّا إذا كانت مطابقةً للمبادىء المنطقيَّة (!) والنُّور الفِطريّ (!) »[3] !!

فالعقلانيَّةُ في حقيقتها : « إلغاءُ النَّصِّ أمامَ النَّظر العقليِّ المُجرَّد - أو الهوى المُجرَّد - الذي يستقبحُ اليومَ ما كانَ حَسناً بالأمس، ويستقبحُ في

---

(١) « العقلانيَّة : هداية أم غواية ؟ » (ص:٩-١٠) عبدالسلام البَسيوني .

(٢) « مذاهب فكريَّة معاصرة » (ص:٥٠٠) محمَّد قطب .

(٣) « معجم المصطلحات العلميَّة » يوسف خيّاط .

وَقتٍ ما كان حَسناً عنده في وقتٍ سابق »[1] !!

وهُنا لا بدَّ من كلمةٍ تُدفَعُ في وجوهِ أصحابِ هذه المدرسة (العقلانيّة) إن كانوا يعقلون :

قال الإمامُ ابنُ الجوزيّ في كتابه العاطِر « صَيد الخاطر » (ص:٤٩١) :

« لقد أنِسَ ببديهة (العقل) خَلقٌ مِن الأكابر، **أوّلهم إبليس، فإنَّهُ** رأى تفضيلَ النَّار على الطِّين[2]؛ فاعترَضَ ...

وَرَأينا خَلقاً مِمَّن نُسِبَ إلى العلمِ قد زلُّوا في هذا واعترضوا، وَرَأَوا أنَّ كثيراً مِن الأفعال لا حكمَةَ تحتها[3] !

والسَّببُ هو الأُنسُ بنَظرِ العقلِ في البديهةِ والعادات، والقياسُ على أفعال المخلوقين » .

فإنَّ « إطلاقَ يَدِ العقلِ بحيثُ يتصرَّفُ على هواهُ، وَوَفْقَ رؤيته الخاصَّة، التي ينفخُ فيها الهوى مُلغياً القواعدَ المتَّفقَ عليها من عُلومِ الأُصولِ، وآلاتِ المنهجيَّة السَّديدة، وبحيث يستعينُ - كما نرى كثيراً - بالقاعدةِ إذا كانت له، ويُهملُها أو يتطاوَلُ عليها إذا كانت عليه، منهجٌ يدلُّ على روحِ التَّدليس،

---

(١) « في فقه الواقع » (ص:٢٩) عبدالسلام بَسيوني .

(٢) هي كذلك (!) في عقل العقلانيِّين !!

(٣) وهذا هو المدخلُ الأساسُ الذي (يتسلّل) فيه (شيطانُ العقلنة) إلى أفهام المخدوعين والسُّذَّج؛ ليَقَعُوا في (مصيدة العقلانيّة) ويُصبِحوا مِن مُنكري بعض السُّنن .. إلى منكرين لبعض العقائد ... إلى (خارجين من الدين) وهم لا يشعرون !! عياذاً بالله .

لا على العِلميَّةِ أو المنهجيَّةِ الحياديَّةِ .

ثمَّ إنَّ (**العقلَ يُبطلُ الاعتمادَ على العقلِ**)؛ وذلك بسببِ التَّفاوُتِ في العقول ... فإذا حكَّمناه وجعلناه الضَّابطَ والمقياسَ الأُوحدَ؛ فَعَقلُ مَن نُحَكِّمُ ؟

○ هل عقلُ الخواصِّ أم عقلُ العوامِّ ؟

○ وهل نُحكِّم العقلَ السَّلفيَّ أم العقلَ الصّوفيَّ ؟!

○ وهل نُحكِّم العقلَ الأُصوليَّ أم العقلَ الفلسفيَّ ؟

لقد رأينا الفلاسفةَ - وهم طائفةٌ واحدةٌ - يختلفونَ فيما بينهم إلى حدِّ التَّناقضِ والتَّضاربِ؛ هذا يُثبتُ وهذا يَنفي، هذا يَبني وهذا يهدمُ !!

○ فَمَن معه الحقُّ من الفلاسفة ؟

عقلُ المثاليِّين أم الواقعيِّين ؟

أم المادِّيين أم الإلهيِّين ؟

○ وعقلُ أيِّ جيلٍ نُحكِّم ؟

أعقلُ الأجيالِ الفاضلةِ أم الأجيال الخاملةِ ؟

○ ومن جهة الالتزام وحُريَّةِ الممارسةِ :

هل نُحكِّم عقلَ المسلم المتميِّز بهُويَّته، الحرِّ في تفكيره داخلَ دولته

المطبَّقَة للشَّرع ؟ أم عقل المسلم المأزومِ الذي تضعُ ضغوطُ المعاصرةِ - بجبروتها وسَطوتها - حذاءَها على عُنُقه، تجرُّه إلى حُفَرٍ وأُطُرِ تفكيرٍ تتضاربُ تماماً مع منهجِهِ وعقيدته ؟!

○ **ثمَّ إنَّ للعقلِ عند استقامتهِ منهجاً، وعند جُنوحهِ مناهجَ ومناهجَ ..**

والعقلُ الجاهليُّ غيرُ العقلِ الإسلاميِّ !

○ فالعقلُ الجاهليُّ الأوروبّيُّ استباحَ إلغاءَ اللَّهِ - سبحانه وتعالى - وعبادةَ نفسِه مكانَ العليِّ العظيم ...

والعقلُ الأوروبيُّ الجاهليُّ استحسنَ اللُّواطَ ونكاحَ الأُمَّهات والبناتِ !!

والعقلُ الجاهليُّ العربيُّ استباحَ وَأْدَ البناتِ ونكاحَ الاستبضاعِ !!

والعقلُ الذي انحرفَ عن المنهجيَّة الإسلاميَّة عطَّل السُّنَّة كلَّها - وهم القُرآنيُّون - واستحسنَ إلغاءَ الإسراءِ والمعراجِ، بل والمُعجزاتِ الحسيَّةِ كلِّها !

وهو الذي أنكرَ الكثيرَ الكثيرَ من المُغيَّبات كالجنِّ والملائكةِ والسِّحر والدَّجّال والرُّؤية وغيرها .

بل إنَّ العقلَ كثيراً ما أقرَّ الخرافَةَ، وأضفى المصداقيَّة على كثيرٍ من الأباطيل التي يَمَجُّها الذوقُ السَّليمُ والفطرةُ القويمة، فتراهُ يُقيمُ الدَّلائل العقليَّة على صحَّة الأعرافِ والتَّقاليد أو المُثُل والقِيَم أو العقائدِ والأفكار، مهما كانت مُمعِنةً في الخُرافة والسَّفاهة، أو مقرونةً بالظُّلم والقسوةِ حتى

يستريحَ العقلُ منها، وتستريحَ هي منه، فلا يكونانِ في نضالٍ دائم، وفي عِراكٍ دامٍ !!

فكم دافعَ العقلُ اليونانيُّ عن البِغاءِ الرَّسميِّ وحِرفةِ المومساتِ والشُّذوذِ الجنسيِّ الذي ظهرَ في المجتمعِ الإغريقيِّ عندما بلغ أَوْجَهُ في المدنيَّةِ !!

وكان من المدافعين عن كلِّ ذلك الذي فَلسَفوهُ، وشَقُّوا الشعرةَ في فوائدِهِ ومصالحه : كبارُ فلاسفةِ اليونان الَّذينَ لم يكُن يُرجى منهم الدِّفاعُ عن مثلِ هذه الرَّذائل »[1].

وهذا الخلطُ والخَبطُ في المزاعمِ (العقلانيَّة) الفارغة، جعلَ بعضَ مَن أنصفَ (عَقله) - مِن المنتسبين إلى مدرسة (العقلنة) هذه - يُعلنُ على الملأ بأعلى صوته تخبُّطَ (العقلانيِّين) واضطرابَهم، وحَيرَتَهم !!

فقال ابنُ رُشدٍ في « تهافت التَّهافت » (٢/٥٤٧) :

« ومَن الذي قال في الإلهيَّات شيئاً يُعتَدُّ به ؟! » .

أقولُ : ومَن جرَّب مثلَ تجربتِهِ (!) عَرَفَ مثلَ معرفتِهِ !

ثمَّ بَعدَ ذلك يوجَدُ مَن يقول - بل يُنادي - متبجِّحاً :

(العقل) (العقلانيَّة) !؟

وإنْ هو إلّا مُستكبرٌ عن الحقِّ، مخادعٌ لنفسه، - أو مَخدوعٌ بنفسِه - مخاتلٌ قلبَه وذاتَه !

---

(١) « العقلانيَّة : هداية أم غواية ؟ » (ص:٥٦-٥٨) .

الفصل الرَّابعُ

مَقالاتُ العقلانيِّين قَديماً وحَديثاً !

« إنَّ الاستعمارَ الصَّليبيَّ والصُّهيونيَّ، فَشِلَ حينَ فَرَضَ العَلمانيَّةَ بجنودِهِ؛ فقد أحسَّ المسلمونَ به، فتحصَّنوا منه .

وحين فَرَضَ العَلمانيَّةَ بعُملائِهِ الَّذينَ ربَّاهم في مدارسِهِ، ورَبَطَهُم بفَلَكِهِ، واستعبدَهُم بالجاه والمالِ؛ رفضَ المسلمونَ ذلك؛ فما استطاعوا أن يَصِلُوا إلى قلوبهم .

والمحاولةُ اليومَ خَطِرَةٌ حقّاً؛ فإنَّ العَلمانيَّةَ تُفرَضُ بحقٍّ يَدَّعي لنفسهِ العَمَلَ للإسلام، ويَنسِبُ إلى نفسهِ الرِّيادةَ، وَيَصِفُ حرَكَتهُ بالبَعثِ، ويُهيَّأُ له المناخُ ليكونَ إماماً (!) ولِتكونَ دعوتهُ نهضةً !

وهي في حقيقتها عَلمانيَّةٌ ... أو عصريَّةٌ ... أو تغريبٌ ... أو ما شئتَ مِن الأسماء »[1]؛ لأنَّها جميعاً - في ثمرتها - إنَّما تَعني الانسِلاخَ مِن الضَّوابطِ الشَّرعيَّةِ ... وانفِراطَ عِقدِ دلائلِ الهُدى ... والفَصلَ الباطلَ بين

---

(١) « العصريُّون : معتزلة اليوم » (ص:٧٦) يوسف كمال .

النَّقلِ الصَّحيح والعقل الصَّريح !

ولمعرفةِ أقوالِ هؤلاءِ العقلانيِّين - الذين ليس لهم من اسمهم نصيبٌ - لا بُدَّ مِن تَتبُّعٍ لشيءٍ من كلامهم وسَرْدِهِ؛ حتى تُعرَفَ أفكارُهم ممَّا سوَّدتهُ أيديهم بأنفسهم :

أ - المعتزلةُ القدماءُ :

تمهيدٌ :

لأنَّ أصلَ فكرة (العقلنةِ) الإسلاميَّة المزعومة نَبَعَت و (نَبَغَت) مِن المُعتزلةِ الأُوَلِ، كان لا بدَّ مِن مَعرفةِ حقيقةِ منهجهم في الفهم، والتَّفكير والتَّلقِّي .

وعليه؛ فإنَّ الواجبَ « على النَّاظر في نشاطِ المُعتزلةِ وآثارهم أن لا يكتفي باستعراضِ أُصولهم أصلاً أصلاً، ومسائِلِهم مسألةً مسألةً، بل عليه أن يَنظُرَ في اليَنبوعِ الذي نَهَلوا منه أصولَهم ومسائلَهم كلَّها .

وقد اختلفت مذاهبُ الأُمَمِ وتنوَّعت في سبيلِ وصولِهم إلى المعرفةِ، وسَلَكَ النَّاسُ مناهجَ عدَّةً ليَتوصَّلوا بها إلى مَعينِ المعرفةِ، فأيُّ المناهجِ كان منهجُ المُعتزلةِ ؟

لِنُجيبَ على هذا نقولُ : إنَّ المُعتزلةَ قَد سَلَكوا في هذا المنهجَ العقليَّ، وقد اشتملَ هذا المنهجُ على خطوتين :

أمَّا الأولى : فَقَصَدوا بها تَطهيرَ الفِكرِ وضرورةَ تجرُّدِه عن الإلْفِ

والعادةِ، وعن مختلفِ الأهواءِ بالنسبةِ لكُلِّ مَن أرادَ أن يُصدِرَ أحكاماً يتوخّى فيها الصَّوابَ والإخلاصَ للحقِّ، وفي هذا هَدمٌ لنظريَّةِ التَّقليدِ[1].

أمَّا الثَّانية : فتحكيمُ العقلِ تحكيماً مُطلقاً؛ فقد آمَنَ المُعتزلةُ بالعقلِ، ورَفَعوا شأنَه، ونوَّهوا به أيَّما تَنويهٍ، وَصَدَعُوا بمبادئه، وقالوا : خُلِقَ العَقلُ لِيَعْرِفَ، وهو قادرٌ على أن يعرفَ كُلَّ شيءٍ، المنظورَ وغيرَ المنظورِ (!) وجعلوه الحَكَمَ الذي يُحَكَّمُ في كلِّ شيءٍ، والنُّورَ الذي يجلو كُلَّ ظُلمةٍ، حكَّموه في إيمانهم، وفي جميعِ شؤونهم الخاصَّةِ والعامَّةِ .

والعَقلُ - عندهم - هو تلك الحاسَّةُ اللطيفةُ الجوهرِ، التي تُمَيِّزُ الإنسانَ من الحيوانِ، وكما أنَّ فعلَ العينِ هو الإبصارُ فكذلك فعلُ العقلِ هو التفكُّر والرَّوِيَّةُ والنُّطقُ .

لذلك؛ أقبلَ المُعتزلةُ على فلسفةِ اليونانِ يَستَلهِمونَها، وأعلامِ يونانَ؛ يترسَّمونَ خُطاهُم، ويَنسِجونَ على مِنوالِهِم، وعلى كُتُبِ يونانَ يتفهَّمونها ويَهضِمونَها، فحكَّموا العقلَ أكثرَ من تحكيمهم للشَّرع، **بل جعَلُوا الأدلَّة العقليَّة مقدَّمةَ على الأدلَّةِ الشَّرعيَّةِ فكذَّبوا ما لا يُوافقُ العقلَ من الحديثِ، وإنْ صحَّ !** وأوَّلوا ما لا يُوافقهُ من الآياتِ وإن وَضَحت ! بل حاوَلوا إخضاعَ عباراتِ القرآنِ لآرائهم وتفسيرهم لها تفسيراً يتَّفقُ مع مبادئهم، وقالوا بسُلطَةِ العقلِ وقُدرَتِهِ على معرفَةِ الحَسَنِ والقبيحِ، ولو لم يَرِدْ بهما شَرعٌ، والحُسْنُ والقُبحُ صفتان ذاتيَّتان للحَسَنِ والقبيح، ورتَّبوا على هذا أنَّ الإنسانَ مُكلَّفٌ

---

(١) وهو كلامٌ - في ظاهره - حَسنٌ ومقبولٌ ... ولكنْ ... مِن ثمارِهم تعرفونهم !!

قبلَ ورودِ الشرائع، أوْ إذا لم تَبلُغهُ دعوةُ الرسلِ - بما يَدلُّ عليه العقلُ -، **فهو مُكلَّفٌ ولو لم يَصِل إليه شَرعٌ »[1]، وهو كلامٌ يُبطِلُ بعضهُ بعضاً !**

وإليكَ - أخي العاقلُ بحقٍّ - شيئاً مِن أقوالِ (أكابرِهِم) !! :

قال (القاضي) عبدالجبَّار في « فَضلِ الاعتزال » (ص:١٣٩) عند سَردِه الأدلَّة (الشَّرعيَّة) حَسَبَ ترتيبِه :

« **أوّلها العقلُ**؛ لأنَّ به يَتميَّزُ بين الحُسنِ والقُبحِ؛ ولأنَّ به يُعرَف[2] أنَّ الكتابَ حُجَّةٌ، وكذلك السُّنَّة والإجماع !!

... وربَّما تعجَّبَ[3] مِن هذا التَّرتيب بعضُهُم (!)، فيظنُّ أنَّ الأدلَّة هي الكتابُ والسُّنَّةُ والإجماعُ فقط، أو يظنُّ أنَّ العقلَ إذا كانَ يَدلُّ على أُمورٍ فهو مؤخَّرٌ؛ وليسَ الأمر كذلك؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى لم يُخاطب إلّا أهلَ العقلِ » !

قلتُ : وهذا القولُ الأخيرُ منه كلمةُ حقٍّ يُرادُ بها باطلٌ ...

نعم؛ لم يُخاطِبِ اللَّهُ سبحانه إلّا أهلَ العقل ... ولكنْ ... لِيَعقِلُوا عن اللَّهِ أحكامَه، ويُنَفِّذوا أوامرَ نَبيِّه ﷺ، لا ليجعلُوا العقلَ هو القاعدةَ التي تُرَدُّ - عياذاً باللَّه - على مَذْبحها النُّصوصُ؛ كتاباً وسُنَّةً !

قال مُعاذ بن مُعاذ[4]: سمعتُ عَمرو بن عُبَيدٍ - وهو مِن كُبراءِ

(١) « منهج المدرسة العقلية » (ص:٥٣-٥٤) .

(٢) وهذا تلبيسٌ شديدٌ ... لكنَّه باردٌ !! فانظر ردَّهُ بعد سُطورٍ .

(٣) والكلام له !

(٤) هو أحدُ ثقاتِ أئمَّة المسلمين، توفي سنة (١٩٦هـ)، ترجمتُه في =

المعتزلة - ذكر حديثَ الصَّادقِ المصدوقِ ﷺ، فقال : لو سمعتُ الأعمش يقولُه لكذَّبته، ولو سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقولُ هذا لَرَدَدتُه ! ولو سمعتُ اللَّهَ يقولُ هذا لقلتُ : ليسَ على هذا أخذتَ ميثاقَنا »[1] !!!

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخرُجُ مِن أفواهِهم إنْ يَقولونَ إلّا كَذِباً ﴾ ... وضلالاً ... وكُفراً ...

ثمَّ إنَّكَ تَرى الزَمخشريَّ - وهو مِن كُبرائهم أيضاً - يقولُ في « أطواق الذَّهب في المواعظ والخُطب » (ص:٢٨) مُلقِّباً العقلَ بـ « السُّلطان » ! :

« اِمشِ في دينك تحت رايةِ السُّلطان، ولا تَقنع بالرِّواية عن فُلانٍ وفلان، فما الأَسَدُ المُحتَجِبُ في عرينهِ؛ أعزَّ من الرَّجل المُحتجِّ على قرينه ! وما العَنْزُ الجرباءُ تحتَ الشَّمأل البَليلِ[2]؛ أذلَّ مِن المُقلِّد عند صاحبِ الدَّليلِ » !

فهذا منه كالتَّصريح بردِّ علمِ الحديثِ عند (ظنِّ) مخالفتهِ لذاك (السُّلطان) المزعوم الموهوم !!

وهو باطلٌ بيقينٍ، كما سبقَ - وسيأتي - بدلائلهِ إن شاءَ اللَّهُ تعالى .

« ثمَّ إنَّ هذا (السُّلطان) العقليَّ المُطلقَ، قد جرَّ المعتزلةَ إلى إنكارِ ما

= « تاريخ بغداد » (١٣/١٣١) للإمام الحافظ الخطيب البغدادي .

(١) « ميزان الاعتدال » ٣/٢٧٨، و « السِّيَر » (٦/١٠٢) .

(٢) الشَّمأَل : الرِّيح تَهُبُّ عند مطلعِ الشَّمسِ . « قاموس » (١٣١٨) .
والبَليلِ : ريحٌ باردةٌ مع ندىً . « قاموس » (١٢٥١) .

صحَّ مِن الأحاديث التي تُناقضُ أسُسَهُم، وقواعدَهم المذهبيَّة »[1]!

ويقولُ الجاحظُ - وهو مِنهم (!) - : « فما الحكمُ القاطِعُ إلّا للذِّهنِ، وما الاستبانةُ الصَّحيحةُ إلّا للعقلِ »[2].

ولقَد هوى المُعتزلةُ (وأفراخُهم) إلى وادٍ سحيقٍ من الضَّلالِ والانحرافِ؛ حيث « أدَّى بهم تحكيمُ العقلِ إلى أنْ شَطَحُوا بعقولهم؛ فوضعوا الرسلَ تحتَ مِجهَرِ العقلِ (!) ناقِدينَ؛ لأنَّهم بَشَرٌ (!)، وندَّت منهم عباراتٌ لا تليقُ في حقِّ رسُلِ اللّه »[3].

يقولُ الزَّمخشريُّ المُعتزليُّ في « تفسير الكشَّاف » (٥١١/٢) مفسِّراً قولَه تعالى : ﴿ وتَفصيلَ كلِّ شيءٍ ﴾، قال : « ...يُحتاجُ إليه في الدِّين؛ لأنَّ القانون الذي تستندُ إليه السُّنَّة والإجماعُ والقياسُ **بعد أدلَّةِ العقل** » .

... فجعلَ أدلَّة العقل هي الأساس !

وقد عَلِمَ الكَفَرَةُ والمُشرِكون مِن أعداءِ الدِّين - كاليهود والنَّصارى - مبلغَ إفسادِ هذا الفِكرِ (العقلانيِّ) النَّابتِ للإسلام، فعظَّموهُ وبجَّلوهُ :

« فهذا شتينَر (Stainer) أَطلق عليهم اسم : « المفكِّرون الأحرار في الإسلام » !!

(١) « التَّفسير والمفسِّرون » (٣٧٣/١) محمَّد حسين الذهبي .

(٢) « رسائل الجاحظ » (ص:١٩١ - رسالة التربيع والتدوير) .

(٣) « منهج المدرسة العقلية الحديثة » (ص:٥٥) فهد الرومي .

بل جعلَ مِن هذا اللَّقب عنوانَ كتابِهِ عنهم !

ووَصفهم آدَم مِيز (Adam Mez) وهاملتون (Hamilton) بأنَّهم دُعاةُ الحريَّة الفكريَّة والاستنارة !! »[1].

وانظر إلى كبير المُستشرقين - الذي علَّمهم الكُفر وأرضعَ المُستغربين لُبانَهُ - جولدزيهر (Goldziher) - اليهوديُّ الخبيث -، إذ يقولُ مُثنياً عليهم ومُبجّلاً لهم (!) أنَّهم :

« ... وسَّعوا مَعينَ المعرفةِ الدِّينيَّة بأن أدخلوا فيه عُنصراً مُهمّاً آخرَ قيّماً، **وهو العقلُ**، الذي كان حتى ذلك الحينِ مُبعداً بشدَّةٍ عن هذه النَّاحية »[2] !!

كذا قال !! وكأنَّ صفوةَ الأُمَّةِ وسَلَفها الصَّالح لم يستعملوا عقولَهم، وأهملوا تلك الهِبَةَ العظيمةَ التي أنعمَ اللَّهُ - سبحانه - عليهم بها .

نعم؛ لم يستعملوا عقولَهم بالباطلِ، وفي خلافِ الحقِّ، وإنَّما وضعوهُ موضعَه اللائق به، جاعلين إيَّاه تابعاً للشَّرع، فاهماً له، آخذاً عنه .

ويقولُ سارتر (Sarter) اليهوديُّ الفرنسيُّ - مُختَرِعُ مذهبِ الوجوديَّة الباطلِ - في كتابه « تأمُّلات في المشكلة اليهوديَّة »[3] :

« ما دامَ البشرُ يؤمنونَ بالدِّين، فسيظلُّ يقعُ على اليهودِ تمييزٌ مُجحِفٌ

---

(١) « موقف المعتزلة مِن السُّنَّة النَّبويَّة » (ص:٧٦) أبو لُبابة حسين .

(٢) « أدب المعتزلة » (ص:١٧٢) د. عبدالحليم بليغ .

(٣) كما في « مذاهب فكرية معاصرة » (ص:٥٣١) محمد قطب .

على اعتبارِ أنَّهم يهود، أمَّا إذا زالَ الدِّينُ من الأرضِ، وتعامَلَ البَشرُ **بعقولهم**، فعقلُ اليهوديِّ كعقلِ غيرِ اليهوديّ، ولن يقعَ عليهم التمييزُ المُجحِفِ » .

قلتُ : وهذه - في الحقيقة - هي الثمرةُ النهائيّة لدعوةِ (العقلانيّين) مهما حاوَلوا أن يتلطَّفوا في نَشرها، ومهما (جَهدوا) أن يَستُروا سوآتِهم البادية فيها ... فإنَّ مآلَهم أنَّ الدِّينَ هو العقلُ ... لا الوحيُ ... وهذا إبطالٌ منهم لأصلِ الدِّين، بل هو إنكارٌ للنبوَّاتِ .

أقولُ - أيضاً - : **فهؤلاء السَّائرونَ - بالباطل - خلفَ أذهانهم، واللَّاهثونَ - بغير حقٍّ - وراءَ عقولهم، هم - في حقيقتهم - أدواتٌ تُنفِّذُ ما تسعى إليه الصَّنائعُ اليهوديَّةُ، والصُّهيونيَّةُ العالميَّةُ، مِن تشكيكِ المسلمين بدينهم، وإغرائهم بالعقولِ الفارغةِ ليَجعَلوا « العقلَ وحدَه أصلَ عِلمهم، ويُفرِدوهُ، ويَجعَلوا الإيمانَ والقرآنَ تابِعَيْنِ له »[1]؛ وهم بذلك يَهدِمونَ أُسَّ الدِّين وأصلَه وقاعدةَ بُنيانهِ !**

ب - الأشاعرةُ - وهم مخانيثُ المعتزلةِ[2] - :

قال الفَخرُ الرَّازيُّ في « أساس التَّقديس » (ص:٢٢٠-٢٢١) .

« اِعلم : أنَّ الدلائل القطعيَّة العقليَّة إذا قامَت على ثبوتِ شيء، ثمَّ وجدنا أدلَّة نقليَّة **يُشعر** ظاهرُها بخلاف ذلك؛ فهناك لا يخلو الحالُ من أحد أمورٍ أربعةٍ :

---

(١) « مجموع فتاوى شيخ الإسلام » (٥/٣٣٨) .

(٢) هذا هو وصفُ شيخ الإسلام لهم في « فتاويه » (٦/٣٥٩) .

إمَّا أن يُصَدَّقَ مقتضى العقل والنَّقل - فيلزم تصديقُ النَّقيضين وهو محالٌ -

وإمَّا أن تُكذّب الظواهرُ النَّقليَّة، وتُصَدَّقَ الظواهر العقلية .

وإمَّا أن تُصَدَّق الظواهرُ النَّقليَّة وتُكذَّب الظواهر العقليَّة - وذلك باطلٌ -

لأنَّهُ لا يُمكننا أن نعرفَ صحَّةَ الظواهر النَّقليَّة، إلّا إذا عرفنا بالدَّلائل العقليَّة إثباتَ الصَّانعِ، وصفاتِه، وكيفيَّةَ دلالة المعجزة على صدق الرَّسول ﷺ، وظهور المعجزات على يد محمَّد ﷺ .

ولو صارَ القدحُ في الدَّلائل العقليَّة القطعيَّة، صارَ العقلُ مُتَّهماً، غيرَ مقبولِ القولِ، ولو كان كذلك لخرجَ عن أن يكونَ مقبولَ القولِ في هذه الأصول، وإذا لم تثبت هذه الأصولُ، خرجت الدلائلُ النَّقليَّةُ عن كونِها مفيدةً .

[ولـمّا كان العقلُ أصلاً للنَّقل][1] ثَبت أنّ القدحَ في العقل لتصحيح النَّقل، يُفضي إلى القدح في العقل والنَّقل معاً، وهذا باطل .

ولما بطلت الأقسامُ الأربعةُ لم يبق إلّا أنْ يُقطَعَ بمقتضى الدلائل العقليةِ القاطعةِ بأنَّ هذه **الدلائل النَّقليَّة** إمَّا أن يقال : إنَّها غير صحيحة[2]، أو

(١) زيادة مِن « المطالب العالية » (ص:٣١٠-مخطوط) للرّازيّ نفسه .

(٢) قال الأخ الشيخ سَفَر الحوالي في « منهج الأشاعرة في العقيدة » (ص:٣٣) تعليقاً =

يُقال : إنَّها صحيحةٌ إلّا أنَّ المرادَ منها غير ظواهرها .

ثمَّ إن جوَّزنا التَّأويلَ : اشتغلنا عل سبيل التبرّع[1] بذكر تلك التَّأويلات على التَّفصيل، وإن لم نُجوِّز التَّأويلَ فوّضنا العلمَ بها إلى اللّٰه تعالى، **فهذا هو القانون الكلّي المرجوع إليه في جميع المتشابهات، وباللّٰه التَّوفيق** » .

وكذا قال عَضُد الدِّين الإيجيُّ في « المواقف في علم الكلام » (٣٩-٤٠) بعد كلامٍ - كأنَّه تلخيصٌ[2] لما سبقَ عن الرَّازيِّ - :

« ... وتقديمُ النَّقلِ على العقل، ! باطلٌ للأُصلِ بالفرع، وفيه إبطالٌ للفرع، وإذا أدّى إثباتُ الشيء إلى إبطالِهِ كان مُناقضاً لنفسه، فكان باطلاً » !!

وهكذا؛ فإنَّ للقومِ عباراتٍ وألفاظاً مُتكاثرةً تدلُّ كلُّها على أنَّ « **مصدرَ التَّلقِّي عند الأشاعرة هو العقلُ** :

وقد صرَّحَ الجُوَيني، والرَّازي، والبغدادي، والغزالي، والآمدي،

= على هذه السَّواةِ (ا) : « يُلاحظ أنَّ **الدلائل النقلية** [كلمةٌ مُجملةٌ، فهي] تشملُ نصوصَ الكتابِ والسُّنَّة معاً ! فكيف يقال : إنَّها غير صحيحةٍ ؟ دون تفريقٍ بينهما !! » .

مع أنَّ مجرَّد إطلاقها على السُّنَّة وحدَها في غاية الخطورة !!

(١) وقال الأخ سَفَر مُعلِّقاً هنا :

« هل وَصَلَت قيمَةُ نصوص الوحي إلى حدِّ أن الاشتغال بتأويلها - الذي هو تحريفٌ لها - يُعتبر تبرُّعاً وإحساناً ؟! » .

(٢) وقد صرَّحَ بذلك العلامة المُعلِّمي اليماني في « القائد إلى تصحيح العقائد » (ص:٣٢٥ - المُلحق بـ « التنكيل ») وردَّ على الكلامَين، السَّابق واللاحق .

والإيجي، وابنُ فُورَك، والسَّنوسي، وشُرَّاح « الجوهرة »، وسائر أئمَّتهم بتقديم العقل على النَّقل عند التَّعارض[1]، وعلى هذا يرى المُعاصرونَ منهم »[2].

وسيأتي - بمنّةِ اللّهِ سبحانه - فصلٌ كاملٌ في نقضِ قانونهم الكلّي المُتهافت هذا، الذي قدَّسوه، وطبَّقوه : أعظَمَ من تقديسهم وتطبيقهم لنصوص الوَحيَين الشَّريفين، مع أنَّه غيرُ قائمٍ بنفسهِ، فضلاً عن أن يقومَ به غيرُهُ !!

جـ - العقلانيُّون الجُدُد - أفراخُ المعتزلة - :

... وهم أمشاجٌ (فكريَّةٌ) مُختلطةٌ، لا ضابِطَ لهُم، ولا رابِطَ بينهم؛ إذ إنَّ بعضهم محسوبٌ على (الدُّعاة والمُفكِّرين) ! والبعضُ الآخر منهم محسوبٌ على (الثَّقافة والمثقَّفين) ! وبعضٌ ثالثٌ لا في العِيرِ ولا في النَّفير؛ إنْ هو إلّا ورَّاقٌ صحفيٌّ يملأُ عمودَه اليوميَّ أو الأُسبوعيَّ بكلامٍ غَثٍّ فارغٍ باردٍ لا يُسمنُ ولا يُغني مِن جوعٍ !!

ولا بدَّ - لمعرفَةِ حقيقةِ رأيهم - مِن الوقوفِ على شيءٍ من كلماتهم العَرجاء العَوْجاء :

١ - يقولُ قائلٌ[3] منهم : « اتَّفق أهلُ المِلَّةِ الإسلاميَّة - إلّا قليلاً

(١) وهو تعارضٌ - في أصلِهِ - موهومٌ مزعومٌ كما سيأتي نَقضُهُ بما لا مزيدَ عليه .

(٢) « منهج الأشاعرة في العقيدة » (ص:٣١) للأخ الشيخ سفر الحوالي .

(٣) هو محمد عبده في رسالته « الإسلام والنصرانيّة » (ص:٥٩) !

مع أنَّهُ - عفا اللّه عنه - قال في « رسالة التوحيد » (ص:١٢٨-١٢٩) : « إنَّ العقلَ وحدَه لا يستقلُّ بالوصول إلى ما فيه سعادةُ الأمم بدون مُرشد إلهيّ » .

مِمَّن لا يُنظَرُ إليه – على أَنَّهُ إذا تعارضَ العقلُ والنَّقلُ أُخِذَ بما دلَّ عليه العقلُ » !!!

٢ – وقال الدكتور (!) محمد عمارة في كتابه « تيارات الفكر الإسلامي » (ص:٨٧–٨٨) :

« لقد انتقضَت[1] المعتزلةُ كَفِرقَةٍ، ولكنَّها استمرَّت **نزعةً عقليَّةً** (!) وفكراً قوميّاً، وأُصولاً فكريَّة، مِن خلالِ فِرَقٍ أُخرى تأثَّرت بها، ومن خلالِ البصماتِ التي طَبَعَتها على المجرى العام **الخالد والمتدفِّق والمتطوِّر** (!)، لفكر العَرَب والمسلمين » !

وقال : « ومَقام العقلِ عندهم ... كان عالياً ... وصفاتُ **الأرستقراطيَّة الفكريَّة** (!) وسِماتُ **العُلماء** (!)، كانت واضحةً في أوساطهم كلَّ الوضوح ... » !!

ثمَّ قال : « وهكذا كان المعتزلةُ : كوكبةً مِن أهلِ **الفكر** (!) **والنَّظر** (!) والدِّين (!) والثَّورة (!)، اتَّخذوا مِن الفلسفةِ، والفكرِ، **والرُّقيّ** (!) في المعرفة بديلاً عن الأحساب والأنساب ... » !!!

ويتكلَّم الدَّكتور محمد عمارة[2] عن نظريّته التي يدعو إليها، وطريقته

---

(١) ولله الحمد .
لأنَّها ملَّةٌ فاسدةٌ ... ومنهجٌ قبيحٌ مُتناقض .
(٢) في « تحديات لها تاريخ » (ص:١٠٧) .
وانظر « العقلانية هداية أم غواية ؟ » (ص:٢٠) .

التي يمشي عليها، مُشيراً إلى أنَّها « تُعلي مِن شأنِ العقل، وتجعلُه **مِعياراً وميزاناً، حتى بالنسبة للنُّصوص** والمأثورات، حتى لنستطيع أن نقول : إنَّ موقفها مِن العقل والفلسفة يجعلها الامتدادَ **المتطوِّر** لمدرسة **المعتزلة، فُرسان العقلانيَّة** في تراثنا القديم » .

٣ - يقولُ الصَّحفيُّ[١] (!) فهمي هويدي في مقالٍ بعنوان « **وثنـيُّون هم عَبَدةُ النُّصوص** »[٢]، واصفاً (محاولةَ تَعطيل العقول أمامَ النُّصوص) - على حدِّ تعبيره - أنَّها « وثنيَّةٌ جديدةٌ؛ ذلك أنَّ الوثنيَّة ليست فقط عبادةَ الأصنام، فهذه صيغةُ الزمن القديم. ولكن **وثـنـيَّة هذه الزمان** صارَت تتمثَّل في عبادةِ القوالبِ والرموز، **في عبادة النُّصوص** والطُّقوس » ! كذا قال !!! وله مِن مثل ذلك - كلماتٌ كثيرةٌ ... لا نشتغلُ بإيرادِها ! ولا نُطيل بنقلها !!

٤ - نرى في كتابات **الأزهريّ** (!) محمد الغزاليّ منهجاً عقلانيّاً ملفوفاً، يتمثَّل في « إعطاء العقل أكبرَ من منزلته، فلا يكتفي أن يكونَ العقل مُستنبطاً، بل يجعله قابلاً رادّاً، ومؤثِّراً، وهذا أشبهُ ما يكون بمنهج المعتزلة »[٣].

وهذا النَّهج (العقلانيّ) منثورٌ في تسويداته كلِّها، وبخاصَّة الكتاب

---

(١) هُوَ يظنُّ نفسَه مُفكِّراً !!!

(٢) مجلة العربي / عدد ٢٣٥ / ص:٣٤ / كانون ثاني ١٩٧٨ .

(٣) « الغزالي في مجلس الإنصاف » (ص:٨٣) للأخ الشيخ عايض القَرْني وفَّقه الله .

الظالم للعلم وأهلِه، « السنَّة النبويَّة بين أهل الفقه وأهل الحديث »؛ كما تراه في كتابات الرَّادِّين عليه، النَّاقضين لكلامِهِ[1]؛ إذ إنَّه بَلوَرَ فيه « معالَم منهجٍ جديدٍ في التفكير الإسلاميِّ، ينحى جهة المذهبيَّة العقليَّة، التي تُهدِرُ ميزانَ أهل السُّنَّة في ضَبطِ العلاقة بين العقل والنَّقل »[2].

وعليه؛ فإنَّه - هداه اللّهُ - قد « انتهى إلى مبدأ [فيه هدمٌ للسُّنَّة من حيث يَدري، **أو لا يَدري**] مفادُه : أنَّ الحديثَ إذا خالفَ **التَّصوُّرَ العقليَّ للإنسان، فله** أن **يَرفضَهُ، ويُلقي به خَلفَ ظهره**، مهما كان إسنادُه، ومهما كان مَن صحَّحوه ووثَّقوه من علماءِ الإسلام وأئمَّة الدِّين »[2].

فانظر إلى **هذا الغزاليِّ** وهو يقولُ[3] :

« ألا فَلْنَعْلَم أنَّ **ما حكمَ العقلُ ببطلانِهِ** يستحيلُ أن يكون ديناً ... **الدِّين الحقُّ هو الإنسانيَّة الصَّحيحة، والإنسانيَّة الصَّحيحة** هي العقلُ الضَّابط للحقيقة، المُستنيرُ بالعلم، الضَّائقُ بالخرافةِ، النَّافِرُ مِن الأُوهام ... ولا نزالُ نُؤكِّدُ أنَّ كلَّ حُكمٍ يرفضهُ العقلُ، **وكلُّ مسلك يأباهُ امرُؤٌ سويٌّ، وتُقاومهُ الفطرةُ المستقيمةُ يستحيلُ أن يكون ديناً** » !!

---

(١) وقد عقد الأخ الشيخ سلمان العودة في كتابه « حوار هادىء » (ص:٩-٣٩) فصلاً جيّداً في « صلة الغزالي بالمدرسة العقليّة المعاصرة » فَلْيُنظَر .

(٢) « أزمة الحوار الديني » (ص:٢٩) جمال شلطان .

(٣) مجلّة « الدوحة » القطريّة / عدد ١٠١ / رجب ١٤٠٤هـ .

وهذه كلماتٌ خطيرةٌ تخرُجُ عن أن تكون مجرّد منهج عقلانيّ ! بل هي أخطرُ من ذلك بكثيرٍ، كما يلحظهُ النّاظرُ !!

... لذلك نرى الغزاليّ يَرُدُّ - بجرأَةٍ بالغةٍ - كثيراً من الأحاديث النَّبويَّة الصحيحة الثَّابتة لمجرَّد أنَّها لم (تركب) على عقله !!

من ذلك حديثُ البُكاء على الميّت، وحديثُ قصَّة ملك الموت وموسى، وحديث صلاة المرأة في المسجد، وحديث قطع الصَّلاة[1]...

وكلُّها أحاديثُ صحيحةٌ، بل جلُّها في « الصِّحاح » !

وله من ذلك كثيرٌ كثير !

٥ - محمد أحمد خَلَف اللَّه (ا) :

يقولُ في كتابه « العدل الإسلاميّ »[2] :

« إنَّ البشريَّة لم تَعُد في حاجةٍ إلى مَن يتولَّى قيادَتَها في الأرض **باسْم السَّماء**، فلقد بَلَغَت سنَّ الرُّشد، وآن لها أن تُباشرَ شؤونَها بنفسها » .

(ويؤكِّد الدّكتور على أنَّ النبوَّة والوحيَ كانا قَيداً وحِجْراً على العقل البشريِّ، ولذلك فقد كان إنهاء (نظام النبوَّة) إيذاناً بتحرير العقلِ البشريِّ مِن (قيود السَّماء)، فيقول : « فلقد حرَّر الإسلامُ العقلَ البشريَّ من سُلطان النُّبوَّة، مِن حيث إعلانُه **إنهاءَها** كُليَّةً، **وتخليصَ** البشريَّة منها »[3])[4].

---

(١) انظر الردَّ عليه في هذه القضايا في كتاب « كشف موقف الغزالي من السُّنَّة وأهلها » لأخينا الفاضل الشيخ ربيع بن هادي .

(٢) نقلاً عن « غزو من الداخل » (ص:٥١) جمال سلطان .

(٣) في كتابه « الأُسس القرآنية للتقدم » (ص:٤٤) !!

(٤) « غزو من الداخل » (ص:٥١) .

٦ - حُسين أحمد أمين :

يقولُ - وهو فَرْخُ أبيهِ - : « فالتشبُّعُ **بروحِ الإسلام**(١) - لا الالتزام بأحكام مُعيّنة متناثرة - كفيلٌ بأن يكونَ البوصلة التي تهدينا سواء السَّبيل !

فقد يجدُ المجتمعُ الراهنُ عقاباً لجريمة السرقةِ غير العقوبة في المجتمع البدوي، وكذلك بالنسبة للحجاب الذي فُرضَ بالمدينة .

فالقطعُ الذي قرَّره القرآنُ عقاباً للسَّارق هو **شريعةٌ بدويَّةٌ**(٢)، مثلُ عقيدةِ القَدَر (!!!) .

وكذلك الحجاب : كان مُناسباً للمدينة المنوَّرة، ولم يعد مناسباً للقاهرة ... في القرن العشرين »(٣) !

فدعاوى (روح الإسلام) و (التَّسامح) و (الوَسَطيَّة) التي يُدَندِنُ حولَها العقلانيّون (وأسيادُهم) - ثمَّ (أذنابُهم) - كلماتُ حقٍّ يُراد بها

---

(١) كلمة (روح الإسلام) خدعةٌ (عقلانية) علمانية فاسدة، تسرَّبت - وللأسف - إلى بعض مَن يُطلق عليهم أنّهم مِن (رموز الحركة الإسلامية !!)، فانظر فَضحاً لها، وكشفاً لحقيقتها في « حقائق الإسلام بين الجهل والجحود » (ص:٢٤٩-٢٥٤) تأليف : عبدالمجيد صُبح .

(٢) ويكرر (الأزهري) محمد الغزالي كلام هؤلاء الضُّلّال دونما (عقل) أو وعي - إن حسَّنَّا به الظَّنّ - في مواطنَ مِن كتبِهِ؛ منها كتابه « السنة النبويّة » (ص:١١) وكتابه « دستور الوحدة الثقافية » (ص:١١٣) وغيرها !!

وانظر ردّاً قويّاً على هذا المصطلح (الجاني) في كتاب « كشف موقف الغزالي من السنّة وأهلها » (ص:٦٩-٧٧) للشيخ ربيع بن هادي، وكتاب « في فقه الواقع » (ص:٣٣-٣٦) .

(٣) نقلاً عن « أساطير المعاصرين » (ص:١٥٢) للدكتور أحمد عبدالرحمن .

باطلٌ !

نعم؛ روحُ الإسلام هي الأساسُ ... لكن دون تَفريطٍ بالعقائد، أو الشَّرائع، أو الأحكام !

نعم؛ التسامحُ من أعظمِ معالم هذا الدِّين ... لكن مِن غيرِ التقاءٍ مع الكُفر في منتصف الطَّريق ! أو تنازلٍ عن قاعدة الولاء والبراء .

نعم؛ الوسطيَّة من السِّمات المهمَّة للإسلام ... لكن من غير انفلاتٍ أو تمييعٍ !

٧ - ومن أصحابِ هذا المنهجِ العقلانيّ الوافد : الدكتور (الحقوقيّ) حَسَن التُّرابي، الذي (يُلَمَّع) اسمهُ (اليومَ) لارتباطهِ بدولة السُّودان، والدَّعوة - فيها - لتطبيق شرعِ اللَّه سبحانه .

نَعَم؛ نحن مع السُّودان، وشعب السُّودان في تطبيق شَرعِ اللَّه .

ونحن - كذلك - ضد أولئك الكائدين الذي يَمكرون المكرَ الكُبَّار ضدَّ بلاد المسلمين عامَّة، والسُّودان - اليوم - خاصَّة، والذين يَضعون العوائق الكبيرة أمامَ مَن يريدونَ الإسلامَ، ويبتغون تطبيق الشريعة .

ولكنَّنا يجبُ أن نُحذِّر إخوانَنا السُّودانيِّين من الفِكر العقلانيّ (الغَربيّ في أصله) الذي سيطرَ على عقل التُّرابي، حتى لا يغترُّوا به؛ فَينجرِفوا وراءَه !! بدعوى (التجديد) و (التقدُّم) والبُعد عن (الرَّجعيَّة) ... إلى غير ذلك من عباراتٍ رنَّانةٍ - يُكَرِّرُها (التُّرابي)، ويُرَدِّدُها في محاضراتِهِ (!)

وتساويدهِ (ا) -، لكنَّها رخيصةٌ لا تَنْفَقُ إلّا في سوق الجَهلِ والجُهلاء !

لذا؛ فإنّي أستغربُ مِن (بَعضِ) مَن له منزلةٌ في نفوسنا ممَّن (ما يزالُ) يَصِفُ التُّرابيَّ بِـ (المفكِّر) و ... (الدَّاعية) !!

فهل (هؤلاء) يجهلون حقيقة التّرابيّ وفكرهِ ؟! أم أنّهم (يعرفون)، لكنَّهم يُرَجِّحون (المصلحة) التي تَوهَّمَتها (عقولُهم) في ذلك، بالسُّكوت عن بيانِ حقيقتهِ ؟!

فإلى هؤلاء وغيرهم أسوقُ بعضاً من كلماتِ الترابيِّ الدَّالَّةِ على حقيقةِ فكرهِ، وأصلِ منهجه :

يقولُ - هداهُ اللَّه - في كتابه: « تجديد الفكر الإسلاميّ » (ص:٢٦):

« امَّا المصدرُ الذي يتعيَّـنُ علينا أن نُعيد إليه اعتبارَه كأصلٍ له مكانَتهُ فهو **العقلُ** ... » !!

ولقد أدَّاه نظرُه (العقلانيُّ) هذا إلى اعتبار الاكتفاء بالكتاب والسُّنَّة (وهماً شائعاً) فتراه يقولُ في الكتاب نفسهِ (ص:٢٥) :

« **ومِن المعوِّقات : هناكَ مَن يقولُ : بأنَّ عندنا ما يكفينا مِن الكتابِ والسُّنَّة، وهذا وهمٌ شائعٌ؛ إذ لا بدَّ أن يَنهضَ عُلماءُ فُقَهاءُ، فنحن بحاجةٍ إلى فقهٍ جديدٍ لهذا الواقع الجديد** » !!

ما هو هذا الفقهُ الجديد ؟!

هل هو خارجٌ عن الكتابِ والسُّنَّةِ غيرُ مُتَّصلٍ بهما ؟!

أم هو صادرٌ عنهما مُنبعثٌ منهما ؟!

إن كان الأوَّلَ - وهو ما يُريدُه - فهو مردودٌ مَرفوضٌ ! بل هو مِن أبوابِ الرِّدَّةِ، - نسألُ اللَّه العافية - .

وإن كان الثَّاني - وهو ما وهَّمَه - فهو إبطالٌ لكلامِهِ من أساسِهِ ! .

بل انظر إلى تلك الباقعةِ العظيمةِ التي تقيَّأَها هذا التُّرابيُّ حيث يقولُ في محاضرةٍ عنوانها « تحكيم الشريعة »[1] (مُبيحاً) الرِّدَّة عن الإسلام :

« وأودُّ أن أقولَ : إنَّه في إطار الدَّولة الواحدةِ، والعَهد الواحد : **يجوزُ للمسلم - كما يجوزُ للمسيحيّ - أن يُبدِّلَ دينَه** » !!

والعياذُ باللَّه تعالى !

ولقد أنكرَ التُّرابي - فيما أنكر بأسلوبه العقلانيّ الوافد - حدَّ الرَّجم؛ كما نقله عنه الدَّكتور محمود الطَّحَّان في كتابه « مفهوم التَّجديد بين السنَّة النبويَّة وأدعياء التَّجديد المعاصرين » (ص:٣١) وكذا صاحبُ كتاب « الصَّارم المسلول » (ص:١٢) .

ثم تراهُ ينتقدُ (منهجَ السَّلف) والمُنتسبين إليهِ إعلاءً لمنهجه (العقلانيّ) (التَّجديديّ) بقوله :

---

(١) وقد (ألقاها) في جامعة الخرطوم، كما نقله عنه أحمد بن مالك في كتابه « الصارم المسلول في الرَّدِّ على التُّرابي شاتم الرَّسول » (ص:١٢) .

« ولكنْ يتسمَّى بالسلفيَّة آخَرون يَرَونَ الدِّين متمثّلاً في **تاريخ المتديِّـنين** (!)، فهم بحُسن نيَّةٍ **يتعصَّبون** لذلك التَّاريخ، وينسون أنَّ مغزاه في وجهته، لا في صورته ! **ويُقلِّدون** السَّلف (!) لا في مناهجهم (!) وسُنَنهم الأُصوليَّة (!)، بل في **شكل كَسبهم المُعيَّـن** (!)، ويعتبرون بالصَّحابة والتَّابعين وأئمَّة الفقه، لا في مسالكهم مِن التديُّن اجتهاداً وجهاداً (!) بل يُحاكون حَرْفَ (!) أقوالهم وأعمالهم، ويَرَونَ الاتِّباع لا في المُضيِّ على المنهج السَّالك قُدُماً (!) إلى اللَّه، بل في الموقف عندَ حدِّ الأوَّلين ومبلغهم ... »[1] !!

كذا قال ! وهو كلامٌ لا يسوى فَتلةَ عِقال !!

ولو أردتُ نقدَ - بل نَقضَ - هذه الكلمةِ البتراء، لخرجَ كتابنا عمَّا وُضعَ له، لكنّي أكتفي بإيرادها ليَعرفَ حقيقةَ هذا التُّرابيِّ (العقلاءُ) حقّاً !

بل انظُر إلى قوله بعد ذلك مُباشرةً :

« والغالبُ في الذين يرجعون إلى الصُّوَر السَّالفة في تطبيق الشريعة لا إلى **مغزى أحكامها** أنَّهم أهلُ ثقافةٍ صاغَها **الانغلاقُ** على القديم ... » !!

لذلك ... أجازَ - بانفِتاحهِ على الحديث والجديد - الكُفْرَ بالرِّدَّةِ عن الإسلام - كما سبق - !!

وأنكرَ حدَّ الرَّجم !!

---

(١) « تجديد الفكر الإسلامي » (ص:١٥٠)، وقارِن بما سيأتي (ص:١٩٤) .

وجعلَ حدَّ شارب الخمر « لا يتعدَّى الجلدَ بين عشرين وأربعين (!!) ولا يتعدَّى السجن نحو شهر أو أكثر من ذلك بقليل (!) وغرامة قليلةٍ (!!) »[1] !!

وانظر - حفظكَ اللّه - إلى قوله : « مغزى أحكام الشريعة » ! وما يحملهُ بين طيَّاته مِن معانٍ كثيرةٍ مؤدَّاها الانفلات بدعوى (التَّجديد) ! والإنكار بزعم (التَّسامح) ! والتَّمييع بحُجَّةِ (الحضارة) !!!

وممَّا يُؤكِّد ما سبقَ، ويكشفُ مَخْبوءَهُ، ويزيدُه بياناً وتوضيحاً ما قالَه محمد سرور زين العابدين في كتابه « دراسات في السيرة النبويَّة » (ص:٣٠٨) حكايةً منه عن تجربةٍ شخصيَّةٍ له مع هذا الرَّجل (التُّرابيِّ) :

« أنكرَ أُستاذُ الحقوق الدستوريَّة في الجامعات السُّودانيَّة الدكتور حسن عبداللّه الترابيُّ نزولَ المسيح عليه السَّلام في آخر الزَّمان، فقلتُ له في مجلسٍ ضمَّنا قبلَ أكثر من إحدى عشرةَ سنةً : كيف تُنكر حديثاً متواتراً ؟!

قال : أنا لا أُناقشُ الحديثَ مِن حيثُ سندُه، **وإنَّما أراهُ يتعارضُ مع العقل، ويُقدَّم العقلُ على النَّقل عند التَّعارض** » !!

قلتُ :

وهذا الكلامُ من هذا التُّرابيِّ الجاهلِ المِسكين هَدْمٌ لمنهج (أسلافه) العقلانيِّين الذين نَصَبوا المعارضةَ بين ما زَعموهُ (ظنيّاً) من الأَحاديث وبين

(١) نقلاً عن « الصَّارم المسلول » (ص:١٢) .

(عقولهم) (القطعيَّة) !

فهو - هداه اللَّه سواءَ السَّبيل - قد وسَّع دائرةَ (مُعارضتهم) حتى شملت المتواتر من الأحاديث، وهو ما يُسمُّونه (قطعيّاً) !

إذَن؛ فالسُّنَّة كلُّها عنده - بل عندهم - تحت مِجهَر النَّقد العقلي، لا فرقَ بين مُتواترٍ وغيره !

وبالتَّالي : فما الذي يمنع هؤلاء المنحرفين مِن أن يُسرِّبوا (مُعارضتهم) (العقلانيَّة) حتى تصلَ إلى القرآن العظيم !!! **وقد فَعَلَهُ بَعضُهم !!**

﴿ قُل هَل نُنَبِّئُكُم بالأخسَرينَ أعمالاً الَّذينَ ضلَّ سَعيُهُم في الحَياةِ الدُّنيا **وَهُم يَحسَبونَ أنَّهُم يُحسنونَ صُنعاً** ﴾ .

ونَهتبلُها - هنا - فُرصةً؛ لِنَنصَحَ الدَّكتور حَسَن التُّرابي بالرُّجوع إلى الحقِّ، والأوبة إلى سبيل الصَّواب، وذلك بأن يَخلَعَ ثوبَ (العقلانيَّة) المُرقَّع الباليَ هذا، وأن يكونَ ممَّن لا يُقَدِّمونَ بينَ يَدي اللَّه سبحانه ورسوله ﷺ عقلاً ... ولا رأياً ... **لا بزعم (المصلحة) ... ولا بدعوى (التسامح) !**

٨ - **ويُؤسِفُني** أن أُشير - هنا - إلى أنَّ هذا المسلكَ العقلانيَّ ذاتَه يُلْمَحُ أحياناً في (بعض) كتابات الدكتور يوسف القَرضاوي، ولكنْ بأُسلوبٍ (مبطَّن لطيفٍ) غيرِ عنيفٍ، وليس كأُسلوب ذاك الغزاليِّ الهجَّام !!

وإن كانت الأُحاديثُ المتكلَّمُ عليها مِن القَرضاويّ هي نفسَها

(تقريباً) الأحاديث التي ردَّها الغزاليُّ واستنكرها بعقله القاصر !

لكنِ الفَرقُ بينهما مِن وجهين :

الأوَّل : أنَّ القرضاويَّ أعلمُ من الغزاليِّ وأقعدُ، وأقربُ إلى المنهجيَّة العلميَّة الصَّحيحة .

الثَّاني : أنَّ ما صرَّح الغزاليُّ بردِّه (اكتفى) القرضاويُّ - غالباً - بقوله فيه : « **توقَّفت في حديث** ... » ! كذا ! ثم يذكره !!

وهي - من حيثُ النَّتيجةُ - كسابقتها !!

ولقد ظهرَ هذا (الأسلوب) العقلانيُّ - ولا أقول : المنهج !! - في كتابٍ يُعَدُّ من أواخرِ مؤلّفاته(١)، وهو « كيف نتعامل مع السُّنَّة النبويَّة ؟ » !!

... من ذلك - مثلاً - توقُّفه في ثبوتِ الحديثِ المرويِّ في « صحيح مسلم » عن أنس أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لرجلٍ : « إنَّ أبي وأباكَ في النَّار » ! كما في (ص:٩٧) من كتابه !

وتراه أحياناً ينزعُ إلى التَّأويل المخالف لظاهر النَّصِّ، كمثل ما صنعَ في حديث : « يُؤتى بالموتِ كهيئةِ كبشٍ أملحَ ... » المتفق عليه ! كما في (ص:١٦٠) من كتابه !

وتراه (يستغربُ) مِمَّن « لا يَفتَأُونَ يَذكُرونَ للنَّاسِ حديثَ الذبابِ

---

(١) وهو من منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي - أمريكا، وهي الجهة نفسُها التي تولَّت نشر كتاب « السنَّة النبويَّة بين أهل الفقه وأهل الحديث » للغزالي !!

وغمسهِ في الطَّعام !

أو حديث لَطمِ موسى لملك الموت !

أو ... »[1] !!!

وله من مثلِ ذلك صُوَرٌ عِدَّةٌ متنوِّعةٌ نكتفي منها - هنا - بما سبقَ !!

... وسلسلةُ جيلِ (العقلنة) الباردة هذا : لم ينتَهِ !! فالقائمةُ - المتضاربة المتهافتة - طويلةٌ بهم !! وهم مع ذلك كلِّه مغرورون ... سليطو اللسان ... شديدو اللهجة ... يتكلَّمون - أو يكتبون - كأنَّما هم فوقَ بُرجٍ عاجيٍّ !!

وَبَعدُ :

فكما قلتُ مِن قبلُ[2] : إنَّ مآلَ هؤلاء (العقلانيِّين) (الفارغين) هو إنكارُ الوحي، وإبطالُ الدِّين، شاؤوا أم أبَوا ! رَضُوا أم رَفضوا !!

لذلك ترى - نتيجةَ استرسالهم مع (عقلنتهم) - أنَّهُ « لم يَعُد الإسلامُ دينَ اللَّه وحدَه في نظرٍ (بعضهم)، ولم يعد الابتغاءُ غيرهِ ضلالاً وكُفراً - كما نصَّ القرآنُ الكريم - بل صارَ طلبُ النَّصرانيَّة أو اليهوديَّة امراً مؤدّياً بأصحابه إلى الجنَّةِ، وربَّما إلى الفردوس الأعلى، كما ذهب إلى ذلك :

---

(١) « كيف نتعامل مع السنة النبويَّة ؟ » (ص:٨٦) .
وعلامتا التعجُّب - الواردتان بعد الحديثين - منه !!

(٢) انظر (ص:٥٨) .

د. محمد عمارة، **وفهمي هويدي**، و د. عبدالعزيز كامل - من طَرفٍ -، وكما ذهب سعيد العشماوي، ومحمود أبو ريَّة مِن طَرف آخر - »[1].

وهذا كلُّه - يجعلنا نُثبتُ لوناً آخرَ مِن ألوان اضطرابهم وتناقضهم؛ فنقول :

« عَجباً للعصريِّين في هذ العصر؛ إنَّهم مُصِرُّون على أنْ يَضَعوا الإسلام في ذمَّة التَّاريخ، على رُفوف التُّراث، يُشار إليه ولا يُعمَل به، فالإسلامُ يُصبح اسماً لكلِّ مَن يؤمن باللَّه واليوم الآخر؛ أيّاً كان إيمانه، فيندرجُ تحتَه الصهيونيُّون، والصليبيّون في صُورٍ تجعل إرسالَ الرسل بالبيانِ الحقّق المنهجِ الصَّواب عَبثاً »[2]، طالما أنَّ العقلَّ هو الحكمُ، والعقلُ هو القاعدةُ، ملفوفاً ذلك كُلُّه بأقيسةٍ باردةٍ، وتأويلاتٍ فاسدةٍ !!

يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّة - رحمه اللَّه -:[3]

« ومآلهُم في تلك الأقيسة العقليَّة إلى السفسطةِ؛ التي هي جحودُ الحقائق الموجودة بالتَّمويهِ والتَّلبيسِ، ومآلهم في تلك التأويلات إلى القَرمطة؛ التي هي تحريفُ الكلم عن مواضعهِ، وإفسادُ الشَّرعِ واللغَةِ والعقلِ، بالتَّمويه والتَّلبيس » .

وخلاصةُ القولِ : **« إنَّ كلامَ هؤلاء جَهلٌ، وأنّ مآله إلى الزَّندقةِ »**[4] !

---

(١) « العقلانيّة هداية أم غواية ؟ » (ص:٤٦) .

(٢) « العصريون معتزلة اليوم » (ص:١١٥-١١٦) .

(٣) « بيان تلبيس الجهمية » (١/١٥٠) لشيخ الإسلام ابن تيمية .

(٤) « بيان تلبيس الجهمية » (١/١٥٠) لشيخ الإسلام ابن تيمية .

الفصلُ الخامس

نَقضُ القانونِ الكُلِّيِّ للعقلانيِّين

تمهيدٌ :

كان من أكبرِ المصايدِ التي أوقعَ الشيطانُ الرَّجيمُ بها (العقلانيِّين) وأشياعَهم : مقابلةُ نُصوصِ الوَحي؛ كتاباً وسُنَّةً - سواءٌ منها ما كان مُتعلِّقاً بالغَيبِ، أم التعبُّديّات، أم المُعجزات - أمامَ العقل البشريِّ القاصرِ، بحدودِهِ، وتفكيراتِهِ، ونَظرتهِ الماديَّةِ المَحضَةِ !

وهذا صَنيعٌ فاسدٌ جدّاً؛ إذ « عالَمُ الغيبِ - وما يتبَعُهُ - هُو وراءَ المادَّةِ، فلا تُدركُه العقولُ المُقيَّدةُ بالأجسام في هذه الأرضِ، بل إنَّ العقولَ عَجَزت عن إدراكِ حقائقِ المادَّةِ التي في مُتناوَلِ إدراكها، فما بالُها تَسمو إلى الحُكْمِ على ما خَرجَ مِن نطاقِ قُدرتها ومن سُلطانها ؟!

وها نحنُ أُولاءِ في عَصرنا نُدركُ تحويلَ المادَّةِ إلى قوَّةٍ، وقد نُدركُ تحويلَ القُوَّة إلى مادَّةٍ، بالصِّناعةِ والعَمل، من غيرِ معرفةٍ بحقيقةِ هذه ولا تلكَ !!

وما نَدري ماذا يكونُ بَعدُ ! **إلّا أنَّ العَقلَ الإنسانيَّ عاجزٌ وقاصرٌ !!**

وما المادَّةُ، والقوَّةُ، والعَرَضُ، والجوهرُ، إلّا اصطلاحاتٌ لتقريبِ الحقائقِ ! **فَخَيرٌ للإنسانِ أن يُؤمنَ، وأن يَعمَلَ صالحاً، ثمَّ يدع ما في الغيبِ لِعالِمِ الغيبِ، لعلَّه يَنجو يومَ القيامة »**[1].

ولِغَفلةِ (العقلانيِّين) عن هذا الأصلِ المُهمِّ خَبَطوا خَبطَ عَشواءَ، فصارَ الواحدُ منهم يهدمُ ما بناهُ (سيِّدُه) !! ويبني - بيدِهِ - لأذنابِه - ما سيكون بَعدَه - حُطاماً رُكاماً !!

فسائرُ المُعارَضاتِ (العقليَّة)التي نَصبها (العقلانيُّون) - قديماً وحديثاً - مبنيَّةٌ على هذا الوَهَم الفاشلِ :

فإنكارُهم لكثيرٍ من الغيبيَّات الواردةِ في السُّنَّة المُطهَّرة ... ناتجٌ عن عَدم مُوافقةِ عقولهم لها جرَّاءَ تلكَ النَّظرةِ الماديَّةِ الخالصةِ ...

وإبطالُهم للمُعجزاتِ ... صادرٌ من ذلك النَّهج العقلانيِّ ذاتِه ...

وتحريفُهم لصفاتِ الباري جلَّ وعلا ... نَبَعَ من قياسهم (العقلانيِّ) الواهي الشاهدَ على الغائبِ ... (فَتَصوَّروا) أنَّ كُلَّ صِفَةٍ وردَت في الشَّرع ... تحملُ أنواعاً مِن (التشبيه) و (التَّجسيم) للاشتراك (!) بين الخالق والمخلوق بمجرَّد مُسمَّى الصِّفة !!

وهذا يُلزمهُم - شاؤوا أم أَبَوْا - إنكارَ وجودِ اللَّه سبحانَه وتعالى عمَّا يقولون لأنَّ (الوجودَ) صفةٌ (مُشتركةٌ) بين الخالق والمخلوق !! لا يُنكرها

---

(١) « شرح المسند » (١٩١/٨) للعلّامة أحمد شاكر .

إلّا دهريٌّ مُلحدٌ :

فإنْ نَفَوها هُروباً من ذلك (التشبيه) المزعوم الموهوم (!) ألحَقوا أنفسهم بالملاحدة !

وإنْ أثبتوها قائلينَ : نحنُ نُثْبِتُ وجوداً لا كوجود المخلوقات !!

قلنا : وكذلك نحن نقول في سائِر الصِّفات .

... كلُّ ذلك ... بحقائقهِ ومُستلزماتِهِ ... إنَّما هو بسببِ عَدمِ تَقديرِهم ربَّهم - سبحانه وتعالى - وما أوحى به إلى نبيِّه ﷺ؛ فشابَهوا بذلك مَن قال اللَّهُ - جلَّ وَعلا - فيهم : ﴿ وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدرِهِ ﴾ .

نعم؛ إذ لو قَدَرُوهُ - سبحانه - حقَّ قَدرِهِ لَعَرَفوا ضَعفَ عقولهم تُجاه الوَحي - كتاباً وسُنَّةً - لكنَّهم ... جَهِلوا ... فَضَلُّوا ... وأضلُّوا ...

وعلى ضَوءِ هذا؛ يَجبُ أن يكونَ مُستقرّاً في النُّفوسِ و (العقولِ) « أنَّ مواردَ النِّزاعِ لا تُفصَلُ بين المؤمنينَ إلّا بالكتابِ والسُّنَّة، وإن كانَ أحدُ المتنازعينَ يعرفُ ما يقولُه بعقلِه؛ **وذلك أنَّ قوى العقولِ مُتفاوتةٌ مختلفةٌ، وكثيراً ما يشتبهُ المجهولُ بالمعقول !**

فلا يُمكنُ أن يَفصِلَ بين المتنازعينَ قولُ شَخصٍ معيَّنٍ أو معقولُهُ؛ وإنَّما يفصلُ بينهم الكتابُ المنزَّلُ من السَّماء، والرَّسولُ المبعوثُ المعصومُ فيما بلَّغه عن اللَّه تعالى »[1].

---

(١) « بيان تلبيس الجهميَّة » (٢٤٨/١) لشيخ الإسلام ابن تيمية .

وما هذا كلُّه - في حقيقته - إلّا لِكَونِ « **العقولِ أقلُّ وأدنى وأحقرَ مِن أنْ تُحيطَ بجميعِ حِكَمِ اللّهِ تعالى، وأسرارِه، وغاياتِ إرادتِهِ في قضاياهُ وأقدارِهِ** »[١].

ولقد سَبَقَ في هذا الكتاب (ص:٥٨-٦٠) إيرادُ القانونِ (العقلانيّ) الكلّيّ الَّذي اخترعهُ (لهُم) الرَّازي لِينْظِمَ ما انفَرَطَ من عِقدِ حُجَجِهم الواهيةِ الواهنةِ، جاعلاً الأساسَ في قانونِهِ قاعدةَ التفريق بين الظَّنِّ واليقين من جهةٍ، والعقلِ والنَّقلِ - بالتَّالي - مِن جهةٍ أُخرى !!!

وقبلَ بدايةِ النَّقضِ العلميِّ لهذا (القانون الكُلّي) لا بدّ من بيانِ أُمور :

الأوَّل : « وهو أنَّ كونَ نَصٍّ ما من الأمورِ الظَّنِّيَّة أو القطعيَّة أمرٌ نسبيٌّ يختلفُ باختلافِ المُدرِك المُستَدِلّ؛ **ليس هو صفةً للدَّليلِ في نفسهِ**[٢] !!

وهذا أمرٌ لا يُنازِعُ فيه عاقلٌ، فقد يكونُ قطعيّاً عند زَيدٍ ما هو ظَنِّيٌّ عندَ عَمرٍو !! فقولهم : « إنَّ أخبارَ رسولِ اللّه ﷺ **الصَّحيحةَ** المتلقَّاةَ بين الأُمَّةِ بالقَبولِ لا تُفيد العلمَ بل هي ظَنِّيَّةٌ » !! هو إخبارٌ عمَّا عندهم ! إذ لم يَحصُل لهم من الطُّرق التي استفادَ بها العلمَ أهلُ السُّنَّة ما حصل لهم .

فقولهم : « لم نستَفِد بها العلمَ » لا يلزم منها النَّفيُ العامُّ على ذلك !

---

(١) « إيثار الحقّ على الخَلق » (ص:٣٧٩) .

(٢) وقد حقَّقتُ - بحمد اللّه - هذه المسألة في كتابٍ - وجيزٍ - مستقلٍّ مُفرَدٍ؛ لا يَسَعُ مَن يقفُ على الحُجَج التي فيه - إن كان مُنصفاً - إلّا الإذعان؛ وسمّيت كتابي هذا « **بُغية المُتمنّي في تحقيق معنى القطعيّ والظّنّي** »، يسَّر اللّهُ نشرَه .

وهذا بمنزلةِ الاستدلالِ على مَن يجدُ من نفسهِ وَجَعاً، أو لذَّةً، أو حُبّاً، أو بُغضاً، بأنَّهُ غيرُ واجدٍ له، ولا شاعرٍ به !! بأَنْ ينتصبَ له مَن يستدلُّ على أنَّهُ غيرُ وَجِعٍ، ولا متألِّمٍ، ولا مُحبٍّ، ولا مُبغضٍ ... ويُكثِرُ له مِن الشُّبَهِ التي غايتها أنّي لم أجد ما وجدتَهُ، ولو كان حقّاً لاشتركتُ أنا وأنتَ فيه !!

وهذا عينُ الباطلِ !

فيُقال له :

اِصْرِف عِنايَتَكَ إلى ما جاءَ به الرَّسولُ ﷺ، والحِرصِ عليه، وتَتبُّعهِ، وجَمعهِ، ومعرفةِ أحوالِ نَقَلَتِهِ، وسيرتهم .

وأَعْرِض عمَّا سواه، واجعَلْهُ غايةَ طَلَبِكَ، ونهايةَ قَصدِك، بل اِحرص عليه [أشدَّ مِن] حِرص أتباعِ أرباب المذاهب على معرفةِ مذاهبِ أئمَّتهم، بحيثُ حَصَل لهم العلمُ الضَّروريُّ بأنَّها مذاهبُهم، وأقوالُـهُم ! ولو أنكرَ ذلك عليهم مُنكِرٌ ... لَسَخِرُوا منه !!

وحينئذٍ تعلمُ : هل تُفيدُ أخبارُ رسولِ اللّٰه ﷺ العلمَ أو لا تُفيدُه ؟!

فأمَّا مَعَ إعراضِك عنها، وعن طَلَبها، فهي لا تُفيدك علماً، ولو قلتُ: لا تُفيدك – أيضاً – ظنّاً؛ لَكُنتُ مُخبِراً بحُصَّتِكِ ونَصيبك منها !!! »[1].

الثَّاني : أنَّ هؤلاء (العقلانيِّين) جَهَلةٌ في العلومِ كلِّها، ليس في علم

---

(١) « مختصر الصواعق المرسلة » (٢/٤٣٢-٤٣٣) للإمام ابن القيّم – بتصرُّفٍ يسيرٍ – .

الحديثِ فقط، فلو أنَّك طالَبتهم بضابطٍ (قطعيٍّ)[1] يفصلُ بين (الظَّنِّ) و (القَطعِ)، ويُرجَعُ إليه عند الاختلاف ؟! لَما وَجَدوا جواباً !! ولاحتاروا !!

فإنْ (تجرّأ) واحدٌ منهم، فإنَّه لا يجدُ أمامَه إلّا أن يجعلَ ذلك الضَّابطَ هو (العقلَ) !

وهو ضابطٌ هابطٌ !! لأنَّ العقولَ - باتِّفاق - مُتفاوتةٌ، فما هو المُرجِّحُ بينها - عند اختلافها - ؟!

وبخاصَّةٍ - كما سبقَ مراراً - « أنَّ اللَّهَ - سبحانَه - جعلَ للعقولِ في إدراكها حدّاً تنتهي إليه لا تتعدَّاه، ولم يجعَل لها سبيلاً إلى الإدراك في كلِّ مطلوبٍ »[2].

الثَّالث : أنَّ « العقلَ الصَّريحَ دائماً مُوافقٌ للرَّسولِ ﷺ، لا يُخالفهُ قطُّ، فإنَّ الميزانَ مع الكتاب، واللَّهُ أنزلَ الكتابَ بالحقِّ والميزان، لكن قد تقصُرُ عقولُ النَّاس عن معرفةِ تفصيلِ ما جاءَ به، فيأتيهم الرَّسولُ بما عَجِزوا عن معرفته وحاروا فيه، لا بما يعلمون بطلانَه .

فالرُّسلُ - صلواتُ اللّه وسلامهُ عليهم - تُخبِرُ بِـمَحاراتِ العقول، لا تُخبرُ بمُحالاتِ العقول »[3].

---

(١) على حدِّ تعبيرهم !

(٢) « الاعتصام » (٣١٨/٢) للشاطبي .

(٣) « مجموع الفتاوى » (٤٤٤/١٧) .

قال شيخُ الإسلام ابن تيميّة[1]:

« المنقولُ الصَّحيحُ لا يُعارِضُه معقولٌ صريحٌ قطٌّ .

وقد تأمَّلتُ ذلك في عامَّةِ ما تنازَعَ النَّاسُ فيه؛ **فوجدتُ ما خالفَ النُّصوصَ الصَّحيحةَ الصَّريحةَ : شُبهاتٍ فاسدةً يُعلَمُ بالعقلِ بُطلانُها، بل يُعلَمُ بالعقلِ ثُبوتُ نقيضِها الموافقِ للشَّرع .**

وهذا تأمَّلْتُهُ في مسائلِ الأُصولِ الكبارِ، كمسائلِ التَّوحيد والصِّفات، ومسائلِ القَدر، والنبوّات، والمَعادِ، وغير ذلك .

ووجدتُ ما يُعلَمُ بصريحِ العقلِ لم يُخالِفْهُ سمعٌ قطٌّ؛ بل السَّمعُ الذي يقال : إنَّه يخالفهُ ! إمَّا حديثٌ موضوعٌ، أو دلالةٌ ضعيفةٌ؛ فلا يَصلُحُ أن يكونَ دليلاً لو تجرَّد عن مُعارضَةِ العَقلِ الصَّريح ! فكيفَ إذا خالفَهُ صريحُ المعقول ؟! » .

« والقولُ كلَّما كان أفسدَ في الشَّرع؛ كان أفسدَ في العقلِ؛ فإنَّ الحقَّ لا يتناقَضُ، والرّسلُ إنَّما أخبرت بحقٍّ، واللَّهُ فَطرَ عبادَه على معرفةِ الحقِّ، والرّسلُ إنَّما بُعثتْ بتكميل الفِطرةِ، لا بتغيير الفِطرةِ »[2].

---

(١) « موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول » (٨٦/١) تحقيق محمد حامد الفقي، وعنه « منطق ابن تيمية ومنهجه الفكري » (ص:٢٠١) للدكتور محمد حسني الزين .

(٢) « منهاج السُّنَّة النبويّة » (٨٢/١) لشيخ الإسلام .

وَلِنَقضِ القانون (العقلانيّ) الكلّيِّ مِن أصلِهِ، وهَدمِه مِن أساسِهِ؛ أقولُ :

لقد طوَّل العلَّامةُ ابنُ قيِّم الجوزيَّة - تلميذ شيخ الإسلام ابن تيميَّة - في كتابه النَّافع الماتِع « الصواعقِ المرسلة على الجهميَّة والمعطِّلة » (٣/٧٩٥-٩٠٦) في نَقدِ هذا القانون ونَقضِهِ، مُلخِّصاً ذلك كُلَّه مِن ذاكَ الكتابِ العظيم الذي صنَّفهُ شيخُ الإسلام - رحمه اللَّه - في ذلك؛ أَلَا وهو « دَرْء تعارض العقل والنَّقل » وقد طُبع في عشرِ مجلَّدات .

قال ابنُ القيِّم مُشيراً إلى هذا :

« وقد أشفى شيخُ الإسلام في هذا البابِ بما لا مَزيدَ عليه، وبيَّن بُطلانَ هذه الشُّبهةِ [وهي القانونُ الكلِّيُّ]، وكَسَر هذا الطَّاغوتَ في كتابه الكبير، ونحن نُشيرُ إلى كلماتٍ يسيرةٍ، هي قطرةٌ من بَحرِه، تتضمَّن كَسرَهُ وَدَحضَهُ، وذلك يَظهرُ من وجوه ... »؛ ثمَّ بدأ رحمه اللَّهُ في سَردِها .

وها أنا ذا أُلخِّصُ زُبدةَ كلامِه - مِن نَحْو مُجَلَّدَيْن -؛ لتحصيلِ قَصدِه ومرامِه(١)، سائلاً اللَّهَ - سبحانه - مزيدَ التَّوفيق، وغايةَ التحقيق .

وأقولُ قبلُ : أصلُ (قانونِهم الكلِّيِّ) هذا مبنيٌّ على قولِ مُبتدِعهِ فيه :

« ولمَّا كان العقلُ أصلاً للنَّقل، ثبتَ أنَّ القَدحَ في العقل لتصحيح النَّقل، يُفْضي إلى القَدح في العقل والنَّقل معاً، وهذا باطلٌ » !!

---

(١) مع زياداتٍ يقتَضيها المقام .

... وما قبلَه ... وَبعدَه ... مُعتمدٌ عليه ... راجعٌ إليه !!

« وقد اعترضهم في ذلك المحقِّقون؛ بأنَّ العلومَ يستحيلُ تعارُضُها في العقلِ والسَّمعِ، فتعارُضُها تَقديرُ مُحالٍ؛ فإنَّهُ لو بَطَلَ السَّمعُ - أيضاً - بعد أنْ دلَّ العقلُ على صحَّتهِ؛ لَبَطلا معاً - أيضاً -؛ لأنَّ العقلَ قد كان حَكَمَ بصحَّةِ السَّمعِ، وأنَّهُ لا يَبطُلُ، فحينَ بَطلَ السَّمعُ، عَلِمنا ببُطلانهِ بُطلانَ الأحكامِ العقليَّةِ »[1].

وهي حجَّةٌ دامغة ، لا تُرَدُّ إلّا بالمُراوَغَة !

فإلى سردِ وجوهِ نَقض (القانون الكلِّيِّ)[2] :

الـوجـه الأوَّل :

قولُه : « إنْ قدَّمنا النَّقلَ لزِمَ الطَّعنُ في أصله[3] » ممنوعٌ؛ فإنَّ قولَه : العقلُ أصلُ النَّقلِ؛ إمَّا أنْ يُريدَ به أنَّهُ أصلٌ في ثبوتهِ في نفسِ الأمرِ، أو أصلٌ في عِلْمِنا بصحَّتهِ :

فالأوَّلُ لا يقولهُ عاقلٌ، فإنَّ ما هو ثابتٌ في نفسِ الأمرِ ليسَ موقوفاً على عِلْمِنا به، فَعَدمُ علمِنا بالحقائقِ لا يَنفي ثُبوتَها في نَفسِ الأمرِ .

---

(١) « إيثار الحقّ على الخلق » (ص:١٢٣) للعلّامة ابن الوزير اليماني .

(٢) وقبلَ أن يتعجّل (أحدٌ) بإنكارِ هذا المبحثِ مِن أساسهِ - توهُّماً باطلاً وظنّاً فاسداً -، فَلْيَنظُر إلى ما لا يسعُه ردُّه ممّا يدفعُ (إنكارَهُ) فيما يأتي (ص:١٦٨-١٧٠) .

(٣) في « الصواعق » (٧٩٩/١ - النسخة المحققة) : « فحاصله » ! وهو تحريفٌ، صحّحته من السياق، وهكذا هي على الصواب في « مختصر الصواعق » (١٣١/١) .

فما أخبرَ به الصَّادقُ المصدوقُ، **هو ثابتٌ في نفسهِ**، سواءٌ علمناهُ بعقولنا أوِ لم نعلمهُ، وسواءٌ صدَّقَهُ النَّاسُ أو لم يُصدِّقوهُ، كما أنَّ رسولَ اللَّهِ حقٌّ وإنْ كذَّبهُ مَن كذَّبهُ، كما أنَّ وجودَ الربِّ تعالى وثبوتَ أسمائهِ وصفاتهِ حقٌّ، **سواءٌ علمناهُ بعقولِنا أو لم نَعلَمهُ** .

فلا يتوقَّفُ ذلك على وجودِنا فَضلاً عن علومِنا وعقولِنا .

فالشَّرعُ المنزَّلُ من عندِ اللَّه مُستَغنٍ في نفسهِ عن عِلْمِنا وعَقْلِنا، ولكنْ نحنُ مُحتاجونَ إليه، وإلى أنْ نعلمَه بعقولِنا، وإذا علمَ العقلُ ذلك حصلَ له كمالٌ لم يكُن قبلَ ذلك، وإذا فَقَدَهُ كان ناقِصاً جاهِلاً .

وأمَّا إنْ أرادَ أنَّ العقلَ أصلٌ في معرفتنا بالسَّمعِ، ودليلٌ على صحَّته، وهذا هو مُرادُه ! فيُقالُ له :

أتَعني بالعقلِ هنا القوَّةَ والغَريزَةَ التي فينا ؟

أمِ العلومَ المستفادَة بتلك الغَريزَةِ ؟

فالأوَّلُ : لم تُرِده، وتمتنعُ إرادتُهُ؛ لأنَّ تلك الغريزةَ ليسَت علماً يمكنُ مُعارضتهُ للنَّقلِ - وإنْ كانَت شرطاً في كلِّ علمِ عقليٍّ أو سمعيٍّ -، وما كان شرطاً في الشيءِ امتنعَ أن يكونَ مُنافياً لهُ .

وإنْ أردتَ العلمَ والمعرفةَ الحاصلَ بالعَقلِ، قيل لك :

ليسَ كلُّ ما يُعرَفُ بالعقلِ يكونُ أصلاً للسَّمعِ ودليلاً على صحَّته؛ فإنَّ المعارِفَ العقليَّةَ أكثرُ مِن أنْ تحصرَ، والعلمُ بصحَّةِ السَّمعِ غايتهُ أن يتوقَّفَ

على ما به يُعلَمُ صدقُ الرَّسولِ مِنَ العَقليَّاتِ، وليسَ كلُّ العلومِ العقليَّةِ يُعلمُ بها صدقُ الرَّسولِ، بل ذلك يُعلَمُ بالآياتِ والبراهينِ الدَّالَّةِ على صدقِهِ .

فعُلِمَ أنَّ جميعَ المعقولاتِ ليسَت أصلاً للنَّقلِ، لا بمعنى توقُّفِ العلمِ بالسَّمعِ عليها، ولا بمعنى توقُّفِ ثبوتِهِ في نفسِ الأمرِ عليها .

فما يتوقَّفُ عليه العلمُ بصدقِ الرَّسولِ منَ العلمِ العقليِّ سهلٌ يسيرٌ، مع أنَّ العلمَ بصدقِهِ لهُ طرقٌ كثيرةٌ متنوِّعةٌ .

وحينئذٍ؛ فإذا كانَ المُعارِضُ للسَّمعِ منَ المعقولات ما لا يتوقَّفُ العلمُ بصحَّةِ السَّمعِ عليه، لم يكنِ القدحُ فيه قدحاً في أصلِ السَّمعِ .

وهذا بحمدِ اللَّه بيِّنٌ واضحٌ .

وليسَ القدحُ في بعضِ العقليَّاتِ قدحاً في جميعها، كما أنَّهُ ليسَ القدحُ في بعضِ السَّمعيَّاتِ قدحاً في جميعها، فلا يلزمُ من صحَّةِ المعقولات التي تُبنى عليها معرفتُنا بالسَّمعِ صحَّةُ غيرها مِن المعقولات، ولا من فسادِ هذه فسادُ تلك .

فلا يلزمُ من تقديمِ السَّمعِ على ما يُقال : إنَّهُ معقولٌ في الجملةِ، القدحُ في أصلِهِ !!

الوجه الثَّاني :

أنْ يُقالَ : العقلُ إمَّا أن يكونَ عالماً بصدقِ الرَّسولِ وثبوتِ ما أخبرَ به في نفسِ الأمرِ، وإمَّا أنْ لا يكونَ عالماً بذلك :

فإنْ لم يكُن عالماً امتنعَ التَّعارضُ عنه؛ لأنَّ المعقولَ إنْ كان معلوماً لم يتعارَض معلومٌ ومجهولٌ، وإنْ لم يكن معلوماً لم يتعارَض مجهولان .

وإنْ كان عالماً بصدقِ الرّسولِ، امتنعَ أنْ لا يَعلمَ ثبوتَ ما أخبرَ به في نفسِ الأمرِ، إذا علمَ أنَّهُ أخبرَ به، وهو عالمٌ بصِدقهِ لزمَ ضرورةً أنْ يكونَ عالماً بثبوتِ مُخبِرهِ .

وإن كانَ كذلك : استحالَ أنْ يقعَ عندَهُ دليلٌ يُعارضُ ما أخبرَ به، ويكونُ ذلك المعارضُ واجبَ التَّقديم .

الوجه الثَّالث :

إنَّهُ إذا قيلَ له : لا تُصدِّقْهُ في هذا؛ كانَ أمراً له بما يناقضُ ما عُلِمَ به صدقُه، وكانَ أمراً له بما يُوجِبُ ألّا يَثِقَ بشيءٍ من خبرِه، فإنَّهُ متى جوَّز كذبَه أو غلَطه في خبرٍ، جوَّزَ ذلك في غيرِه !

ولهذا آلَ الأمرُ بمَن سلكَ هذه الطَّريقَ إلى أنَّهم لا يستفيدونَ من جهةِ الرَّسولِ شيئاً منَ الأمورِ الخبريَّةِ المتعلِّقَةِ بصفاتِ اللَّهِ سبحانهُ وأفعالِه، بل وباليومِ الآخرِ - عندَ بعضِهم - لاعتقادِهم أنَّ هذه الأخبارَ على ثلاثةِ أنواعٍ :

نوعٍ يجبُ ردُّه وتكذيبُه، **ونوعٍ** يجبُ تأويلُه وإخراجُه عن حقيقتِه، **ونوعٍ** يُقَرُّ !!

وليسَ لهم في ذلك أصلٌ يرجعونَ إليه، بل هذا يقولُ : ما أثبتَهُ عقلُكَ

فأثبِتْهُ، وما نفاهُ عقلُك فانفِه، وهذا يقولُ[1]: ما أثبتَهُ كشفُكَ فأثبِتْهُ، وما لا فلا !!

ووجودُ الرَّسولِ **عندهم** كعدَمِهِ في المطالبِ الإلهيَّةِ ومعرفَةِ الرُّبوبيَّةِ، بل - على قولهم وأُصولهم - وجودُه أضرُّ من عدمه؛ لأنَّهم لم يستفيدوا من جهته علماً بهذا الشأن، واحتاجوا إلى دفعِ ما جاءَ به؛ إمَّا بتكذيبٍ، وإمَّا بتأويلٍ، وإمَّا بإعراضٍ وتفويضٍ !!!

فإن قيلَ : المعارضةُ ثابتةٌ بينَ العقلِ وبينَ ما يُفهمُ بظاهرِ اللفظِ، وليسَت ثابتةً بينَ العقلِ وبينَ نفسِ ما أخبرَ به الرَّسولُ، فالمُعارضَةُ ثابتةٌ بينَ العقلِ وبينَ ما يظهَرُ أنَّهُ دليلٌ وليسَ بدليلٍ، وأن يكونَ دليلاً ظنيّاً، لتطرُّقِ الظنِّ إلى بعضِ مقدِّماته إسناداً أو مَتناً !

قيلَ : وهذا يرفعُ صورةَ المسألةِ ويُحيلُها بالكليَّةِ، وتصيرُ صورتُها هكذا: إذا تعارضَ الدَّليلُ العقليُّ وما ليسَ بدليلٍ صحيحٍ وجبَ تقديمُ العقليِّ .

وهذا كلامٌ لا فائدةَ فيه، ولا حاصلَ لهُ، وكلُّ عاقلٍ يَعلمُ أنَّ الدَّليلَ لا يُتركُ لما ليسَ بدليلٍ .

ثمَّ يُقالُ : إذا فسَّرتُم الدَّليلَ السَّمعيَّ بما ليسَ بدليلٍ في نفسِ الأمرِ، بل اعتقادُ دلالته جهلٌ، أو بما يُظَنُّ أنَّهُ دليلٌ وليسَ بدليلٍ؛ فإنْ كانَ السَّمعُ في نفسِ الأمرِ كذلك - لكونِهِ خبراً مكذوباً أو صحيحاً - وليسَ فيه ما يدلُّ

---

(١) يُشيرُ الإمامُ ابنُ القيّم رحمه الله إلى بِدعةِ الكَشفِ الصُّوفيّ .

على معارضةِ القولِ بوجهٍ، وأثبتُّم التَّعارضَ والتَّقديمَ بينَ هذين النَّوعين فساعدناكم عليه، وكنّا أسعدَ بذلك منكم؛ فإنّا أشدُّ نفياً للأحاديث المكذوبةِ على رسولِ اللَّه ﷺ، وأشدُّ إبطالاً لما تحملُه منَ المعاني الباطلةِ، وأَوْلى بذلك منكم .

وإنْ كانَ الدَّليلُ السَّمعيُّ صحيحاً في نفسهِ، ظاهرَ الدَّلالةِ بنفسهِ على المرادِ، لم يكن ما عارضهُ منَ العقليّاتِ إلّا خيالاتٍ فاسدَةً ومقدّماتٍ كاذبةً، إذا تأمَّلها العاقلُ حقَّ التَّأمُّل ومشى إلى آخِرها وجدَها مُخالفةً لصريحِ المعقولِ .

وهذا ثابتٌ في كلِّ دليلٍ عقليٍّ خالفَ دليلاً سمعيّاً صحيحَ الدَّلالةِ .

وحينئذٍ فإذا عارضَ هذا - المسمَّى دليلاً عقليّاً - السَّمعَ وجبَ اطّراحُه لفسادِه وبطلانِه .

ولبيانِ العلمِ ببطلانهِ طريقان : كلّيٌّ، وجزئيٌّ :

أمّا الكلّيُّ : فنقطَعُ بأنَّ كلَّ دليلٍ عقليٍّ خالفَ السَّمعيَّ الصَّريحَ الصَّحيحَ فهو باطلٌ في نفسهِ، مخالفٌ للعقلِ قبلَ أن يُنظرَ في مقدّماته .

أمّا الجزئيُّ : فإنَّك إذا تأمَّلت جميعَ ما يدعوكَ به معارِضُ السَّمعِ وجدتَهُ ينتَهي إلى مقدّماتٍ باطلةٍ بصريحِ العقلِ، لكنْ تلقّاها مَعْوْدٌ عن مَعْوْدٍ(١)، **فظنُّوها عقليّاتٍ، وهي في التَّحقيقِ جهلٌ مركَّبٌ .**

---

(١) أي : مريضٌ عن مريض !

وحينئذٍ، فالواجبُ تقديمُ الدَّليلِ السَّمعيِّ، للعَلمِ بصحَّتهِ، وما عارضَهُ؛ فإمَّا معلومُ البطلانِ، وإمَّا غيرُ معلومِ الصحَّةِ، وذلك أحسنُ أحوالِه .

الـوجـه الـرَّابـع :

أنَّهُ إذا اعتُقِدَ في الدَّليلِ السَّمعيِّ أنَّهُ ليسَ بدليلٍ في نفسِ الأمرِ - بل اعتقادُ دلالتِه على مُخالفةِ ما زعمتُوه مِنَ العقلِ جهلٌ - أمكنَ أتباعَ الرُّسلِ المصدِّقين بما جاءوا به أنْ يعتَقدوا في أدلَّتكم العقليَّة أنَّها ليسَت بأدلَّةٍ في نفسِ الأمرِ، وأنَّ اعتقادَ دلالتِها جهلٌ، ويرمونَ أدلَّتكم بما رميتُم به الأدلَّة السَّمعيَّةَ !

ثمَّ التَّرجيحُ من جانبهم من وجوهٍ متعدِّدةٍ، وكانوا في هذا الرَّميِ أحسنَ حالاً منكم وأعذَر .

الـوجـه الـخـامـس :

أنْ يُقالَ : لو قُدِّرَ تعارضُ الشَّرعِ والعقلِ لوجبَ تقديمُ الشَّرعِ؛ لأنَّ العقلَ قد صدَّقَ الشَّرعَ، ومِن ضرورةِ تصديقهِ له قَبولُ خَبَرِهِ، والشَّرعُ لم يُصدِّقِ العقلَ في كلِّ ما أخبرَ به، ولا العلمُ بصدقِ الشَّرعِ موقوفٌ على كلِّ ما يخبرُ به العقلُ .

ومعلومٌ أنَّ هذا المسلكَ إذا سُلِكَ أصحُّ مِن مسلكِهم .

كما قال بعضُ أهلِ الإيمان : **يكفيكَ منَ العقلِ أن يعرّفك صدقَ الرَّسولِ، ومعاني كلامِهِ، ثمَّ يخلِّي بينكَ وبينَهُ .**

وقال آخر : العقلُ سلطانٌ ولَّى الرَّسولَ، ثمَّ عزلَ نَفسَهُ .

ولأنَّ العقلَ دلَّ على أنَّ الرَّسولَ يجبُ تصديقهُ فيما أخبرَ وطاعتُه فيما أمرَ .

ولأنَّ العقلَ يدلُّ على صدقِ الرَّسولِ دلالةً عامَّةً مطلقةً، ولا يدلُّ على صدقِ قضايا نفسهِ دلالةً عامَّةً .

ولأنَّ العقلَ يغلطُ كما يغلطُ الحِسُّ، وأكثَرُ مِن غلطهِ بكثير .

فإذا كانَ حُكمُ الحِسِّ مِن أقوى الأحكامِ، ويعرضُ فيه منَ الغلطِ ما يعرضُ، فما الظَّنُّ بالعقلِ ؟!

الوجه السَّادس :

إنَّ العقلَ مع الوحيِ كالعاميِّ المقلِّدِ مع المفتي العالِم، بل ودونَ ذلك بمراتبَ كثيرةٍ لا تُحصى، فإنَّ المقلِّدَ يمكنهُ أن يصيرَ عالماً، ولا يمكنُ للعالمِ أن يصيرَ نبيّاً رسولاً، فإذا عرفَ المقلِّدُ [عالماً فدلَّ عليه مقلِّداً آخَر، ثمَّ اختلفَ المفتي والدَّالُّ ، فإنَّ] المستفتي يجبُ عليه قَبولُ قولِ المفتي دونَ المقلِّد الذي دلَّهُ وعرَّفَهُ بالمفتي .

فلو قالَ له الدّالُّ : الصَّوابُ معي دونَ المفتي؛ لأنّي أنا الأصلُ في علمِكَ بأنَّه مُفتٍ، فإذا قدّمتَ قولَه على قولي قَدَحْتَ في الأصلِ الذي به عرفتَ أنَّهُ مفتٍ فلزمَ القدحُ في فرعِه !

فيقولُ له المستفتي : أنتَ لما شهدتَ بأنَّهُ مفتٍ، ودَلَلتَ على ذلك،

شهدتَ بوجوبِ تقليدِهِ، دونَ تقليدِك، كما شهدَ به دليلُكَ، وموافقتي في كلِّ مسألةٍ، وخطؤكَ فيما خالَفتَ فيه المفتي - الذي هو أعلمُ منك - لا يستلزمُ خطأَك في علمِك بأنَّهُ مفتٍ، وأنتَ علمتَ أَنَّهُ مفتٍ باجتهادٍ واستدلالٍ، ثم خالفتَه باجتهادٍ واستدلالٍ : كنتَ مخطئاً الاجتهادَ والاستدلالَ الذي خالَفتَ به مَن يجبُ عليكَ تقليدُه واتباعُ قوله .

وإنْ أصبتَ في الاجتهادِ والاستدلالِ الذي به علمتَ أَنَّهُ مفتٍ مجتهدٌ يجبُ عليكَ تقليدُهُ، هذا مع علمِهِ بأنَّ المفتي يجوزُ عليه الخطأُ، **والعقلُ يعلمُ أنَّ الرَّسولَ معصومٌ في خبرِه عن اللَّه ولا يجوزُ عليه الخطأُ** .

الوجه السَّابع :

أنَّ تقديمَ العقلِ على الشَّرعِ يتضمَّنُ القدحَ في العقلِ والشَّرعِ؛ لأنَّ العقلَ قد شهدَ للوحي بأنَّه أعلمُ منه، وأنَّهُ لا نسبةَ له إليه، وأنَّ نسبةَ علومِهِ ومَعارفِهِ[1] إلى الوحي، أقلُّ من خردلةٍ بالإضافةِ إلى جبلٍ، أو تلك [التي] تعلَقُ بالأَصبعِ بالنسبةِ إلى البحرِ .

فلو قدَّم حُكمَ العقلِ عليه لكان قَدْحاً في شهادته، وإذا بطَلت شهادتُه بطَلَ قَبولُ قوله، **فتقديمُ العقلِ على الوحيِ، يتضمَّنُ القدحَ فيه وفي الشَّرعِ !**

وهذا ظاهرٌ لا خفاءَ به .

---

(١) في « الصواعق » (١/٨١٠ - محققة) : « معارضة » ! وهو تصحيفٌ .

الـوجـه الـثَّـامـن :

وهو أنَّ الشَّرعَ مأخوذٌ عنِ اللَّهِ بواسطةِ الرَّسولين الـمَلَكيِّ والبشريِّ؛ بينه وبينَ عبادِهِ، مؤيَّداً بشهادةِ الآياتِ وظهورِ البراهين على ما يُوجبهُ العقلُ ويقتضيهِ تارةً، ويَستحسنهُ تارةً، ويُجوِّزُه تارةً، ويَكِعُّ عن دَرْكِهِ تارةً، ولا سبيلَ له إلى الإحاطةِ به، ولا بدَّ له منَ التَّسليمِ والانقيادِ لِحُكمِهِ والإذعانِ والقَبولِ .

وهناكَ يسقطُ «لم»، ويَبطلُ «كيف»، ويزولُ «هلّا»، ويذهبُ «لو»، و «ليت» في الريحِ، لأنَّ هذه الموادَّ عن الوحي محبوسةٌ، واعتراضَ المعترضِ عليه مردودٌ، واقتراحَ المقترحِ ما يظنُّ أنَّهُ أَوْلى منه سَفَهٌ وجهلٌ .

وجُملةُ الشَّريعةِ مشتملةٌ على أعلى أنواعِ الحكمَةِ علماً وعملاً، التي لو جُمعت حِكَمُ جميعِ الأُمم ونُسبت إليها لم يكُن لها إليها نسبةٌ، وهي مُتضمِّنةٌ لأعلى المطالبِ بأقربِ الطُّرقِ وأتمِّ البيانِ، فهي مُتَكَفِّلَةٌ بتعريف الخليقةِ بها وفاطِرها المحسنِ إليها بأنواعِ الإحسانِ بأسمائهِ وصفاتهِ وأفعالهِ، وتعريفِ الطَّريقِ الموصلِ إلى رضاه وكرامتِه والدَّاعي لديه، وتعريفِ حالِ السَّالكين بعدَ الوصولِ إليه .

ويقابلُ هذه الثَّلاثةَ تعريفُهم حالَ الدَّاعي إلى الباطلِ، والطّرقِ الموصلةِ إليه، وحالَ السَّالكين تلك الطّرق وإلى أينَ تَنتهي بهم، **ولهذا تَقَبَّلَتْها العقولُ الكاملةُ أحسنَ تقبُّلٍ** وقابلتها بالتَّسليمِ والإذعانِ، واستدارت حولها بحمايةِ حَوزتِها، والذبِّ عن سلطانها :

فبين ناصرٍ باللغةِ السَّائغة، وحامٍ بالعقلِ الصَّريحِ، وذابٍّ عنه بالبراهين، ومجاهدٍ بالسَّيفِ والرُّمحِ والسِّنان، ومُتَفقِّهٍ في الحلالِ والحرامِ، ومُعينٍ بتفسيرِ القرآن، وحافظٍ لمتونِ السُّنَّةِ وأسانيدِها، ومُفَتِّشٍ عن أُحوالِ رواتِها، وناقدٍ لصحَّتها من سقيمها، ومعلولِها من سليمِها، فهي الشَّريعةُ ابتداؤُها منَ اللَّه، وانتهاؤُها إليه، ليسَ فيها هذيانُ المنطقيِّين، وتحذلُقهم في النَّوعِ والجنسِ والفصلِ والخاصَّةِ، والعرضِ العامِّ، والمقولات العشر، والموجهاتِ[1] الصَّادرةِ عن رجلٍ مشركٍ من يونانَ كان يعبدُ الأوثانَ ولا يعرفُ الرَّحمنَ، ولا يُصدِّقُ بمعادِ الأبدانِ، ولا أنَّ اللَّهَ يرسلُ رسولاً بكلامِهِ إلى نوعِ الإنسان .

فجعلَ هؤلاءِ المعارضون بينَ العقلِ والنَّقلِ عقلَ هذا الرَّجل عياراً على كتبِ اللَّه المنزَّلةِ، وما أرسلَ به رُسُلَه؛ فما زكَّاهُ منطقُهُ وآلتُه، وقانونُه الذي وضعهُ بعقلِهِ قَبِلوهُ، وما لم يُزكِّه تركوهُ !

ولو كانت هذه الأدلَّةُ التي أفسَدت عقولَ هؤلاءِ وأتباعِهم صحيحةً لكانَ صاحبُ الشَّريعة يُقوِّمُ شريعتَه بها ويُكمِلُها باستعمالِها، وكانَ اللَّهُ سبحانهُ يُنَبِّهُ[2] عليها، ويَحُضُّ على التمسُّك بها، ويتقدَّم إلى عبادِهِ بالتمسُّك بها وبعلمِها وتعليمِها، ويفرضُ عليهم القيامَ بها .

فيا للعقولِ التي لم يُخسَف بها !

---

(١) انظر « التقريب لحدّ المنطق » (ص:١٦-٣٦)، و « حاشية العطاء على شرح التهذيب »(ص:١٤٤)، وتعليق محقِّق « الصواعق » (٨١٥/٣) .

(٢) في « الصواعق » (٨١٦/٣) : « يثيبه » ! وهو تحريفٌ، تصويبه من « المختصر » (١٣٩/١) .

أينَ الدِّينُ منَ الفلسفة ؟

وأينَ كلامُ ربِّ العالمين إلى آراءِ اليونان والمجوس وعُبَّادِ الأصنامِ والصَّابئين ؟

وأينَ المعقولاتُ المؤيَّدةُ بنورِ النُّبوّةِ إلى المعقولاتِ المتلقَّاة عن أرسطو وأفلاطون والفارابي وابنِ سينا وأتباعِ هؤلاءِ ممَّن لا يؤمنُ باللَّهِ ولا صفاتِه ولا أفعالِه ولا ملائكتِه وكتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخر ؟

وأينَ العلمُ المأخوذُ عن الوحيِ النَّازل من عندِ ربِّ العالمين منَ الشُّبهِ المأخوذةِ عن آراءِ المتهوِّكين والمتحيِّرين ؟

فإنْ أَدْلَوْا بالعقلِ فلا عقلَ أكملُ مِن عقولِ ورثةِ الأنبياء !

وإنْ أَدْلَوْا برؤسائهم وأئمَّتهم - كفرعونَ ونمرودَ وبطليموس وأرسطوطاليس، ومُقلّدتهم وأتباعِهم - فلم يزَل أعداءُ الرّسلِ يُعارضونَهم .

فهؤلاءِ وأمثالُهم، يُقدِّمونَ عقولَهم على ما جاءوا به .

ويا للَّه العجبُ ! كيفَ يُعارَضُ قولُ الرّسولِ بقولِ الفيلسوفِ، وعلى الفيلسوفِ أنْ يتَّبعَ الرُّسل، وليسَ على الرّسلِ أن تتَّبعَ الفيلسوفَ، فالرَّسولُ مبعوثٌ، والفيلسوفُ مبعوثٌ إليه، **والوحيُ حاكمٌ، والعقلُ محكومٌ عليه !**

ولو كان العقلُ يُكتفى به لم يكن للوحيِ فائدةٌ ولا غِنىً، على أنَّ منازلَ الحقِّ متفاوتةٌ في العقلِ أعظمَ تفاوتٍ، وأبصارُهم مختلفةٌ، وليسَ العقلُ بأسرِهِ في واحدٍ منَ النَّاس أو طائفةٍ معيَّنةٍ حتى يكونَ تقديمُ عقولهم على ما

جاءَت به الرُّسل، **بل لكلِّ طائفةٍ معقولٌ مُخالفٌ معقولَ الأخرى !**

فَمَن أظلمُ وأشدُّ عداوةً للرسلِ ممَّن جوَّزَ لكلِّ طائفةٍ من طوائفِ العقلاءِ أن تُقدمَ عقولَها على ما جاءَت به الرُّسل !

فإن قالوا : **إنَّما نقدِّمُ العقلَ الصَّريحَ الذي لم يختلف فيهِ اثنان على نصوصِ الأنبياء !**

فقد رموا الأنبياءَ بما هم أبعَدُ الخلقِ منه، وهو أنَّهم جاءوا بما يُخالفُ العقلَ الصَّريحَ الذي لا يختلفُ فيه اثنان .

قد شهدَ اللَّهُ - وكفى بِهِ شهيداً - وشهدَ بشهادتِه الملائكةُ وأُولو العلمِ أنَّ طريقَةَ الرُّسلِ هي الطَّريقةُ البرهانيَّةُ المتضمِّنةُ للحكمةِ، كما قالَ تعالى : ﴿ يا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِن رَّبِّكُم ﴾ .

وقال : ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيكَ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ ﴾ .

فالطَّريقةُ البرهانيَّةُ هي الواردةُ بالوحيِ، النَّاطقةُ بالرُّشدِ، الدَّاعيةُ إلى الخيرِ، الواعدةُ بحسنِ المآبِ، المُبيِّنةُ لحقائقِ الأنباءِ[1]، المُعرِّفةُ بصفاتِ ربِّ الأرضِ والسَّماءِ .

وأنَّ التَّقليديَّة التَّخمينيَّة الخَرْصِيَّة[2] هي المأخوذةُ منَ المقدِّمتين والنَّتيجةِ

---

(١) في « الصواعق » (٣/٨١٨) : « الأنبياء »، وما أثبتّه من « مختصره » (١/١٣٩) .

(٢) الخَرْص : هو الظنّ والتخمين، وهو رأسُ مالِ (العقلانيّين)، وعنوان بضاعتهم، ومع ذلك يقولون : القطع واليقين ...

إنَّ ممَّا (يُقطَع) به أنَّ (قطعهم) المزعوم هو الظّنّ بأبشع وأشنع صُورِه !!

والدَّعوى، التي ليسَ مع أصحابها إلّا الرُّجوعُ إلى رجلٍ من يونان كان يعبدُ الأوثان ويجحدُ الرَّحمنَ، فوضعَ بعقلهِ قانوناً يُصَحِّحُ به - بزعمه - علومَ الخلائق وعقولَهم، فلم يستفد به عاقلٌ تصحيحَ مسألةٍ واحدةٍ في شيءٍ من علومِ بني آدمَ، بل ما وُزِنَ به علمٌ إلّا أفسَدهُ، وما برعَ فيهِ أحدٌ إلّا انسلخَ من حقائقِ الإيمان كانسلاخِ القميصِ عن الإنسان، **فما استُفيدَ بهذا العقلِ العائلِ إلّا تعطيلُ الصَّانعِ عن صفاتِ كماله، ونعوتِ جلالهِ، وعن أفعاله، والكفرُ بملائكتهِ وكتبهِ ورسله واليوم الآخر .**

ومنَ العجبِ أنَّ هؤلاءِ الأوقاحَ جعَلوا نصوصَ الأنبياءِ من **بابِ الظُّنون** وهي منَ الوحي، وجعلوا كلماتِ المنطقيين وقواعدَ الفلاسفةِ والجهميَّةِ من **بابِ اليقين** ! ثمَّ عارضوا بينهما وقدَّموا هذا على نصوصِ الأنبياءِ !

فالشَّريعةُ ظهَرت مِنَ اللَّهِ على لسانِ أكملِ الخلقِ عقلاً، وأعظمِهم معرفةً، وأتمِّهم يقيناً، **وعقلياتكُم ظهرَت من جهةِ رجالٍ فكَّروا، وقدَّروا، وظنُّوا، وخرَّصوا، وتعبُوا وما أغنوا، ونصبُوا وما أخَذوا، وحامُوا وما وَرَدُوا، ونسجُوا فهلهَلُوا، وَمَشَطُوا ففلفَلُوا !!**

سافَروا في دَرْكِ المطالبِ العاليةِ على غيرِ الطَّريقِ، فما ربِحوا إلّا أذى السَّفرِ، وبُعثوا في البلادِ بغيرِ دليلٍ، فلم يقفوا للمطلوبِ على عينٍ ولا أثرٍ :

رضُوا بالدَّعاوى وابتُلوا بخيالهم

وخاضوا بحارَ الفكرِ، والقومُ ما ابتُلوا

فهم في السَّرى لم يبرَحوا من مكانهم
وما ظَعَنُوا في السَّير عنه وقد كلُّوا

لهم كلَّ وقتٍ حيرةٌ بعدَ حيرةٍ
وجهلٌ على جهلٍ فلا بُورِكَ الجهلُ

الوجه التَّاسع :

إنَّ الأُمَّةَ اختلفَت ضروباً منَ الاختلافِ في الأصولِ والفروعِ، وتنازَعوا فنوناً منَ التَّنازُع في المُشكلِ منَ الأحكامِ والحلالِ والحرامِ والتَّفسيرِ والتَّأويلِ والأخبارِ، وتفرَّقت في آرائها ومذاهبها ومقالاتها فصارَت أصنافاً وفرقاً كالخوارجِ والشيعةِ والمرجئةِ والمعتزلةِ .

فما فَزِعَت طائفةٌ من طوائفِ الأُمَّةِ في اختلافِها إلى منطقٍ ولا فيلسوفٍ، ولا إلى عقلٍ يخالفُ صريحَ النَّقلِ، ولا قالت طائفةٌ من هذه الطَّوائفِ : عقولنا مقدَّمة على ما جاءَ به الرَّسولُ، وإن أشقَوا مذاهبَهم بالتَّأويلِ بما جاءَ به، فلم تُقْدِم طائفةٌ منهم على ما أقدَمَت عليه هذه الفرقةُ وقالوا : العقلُ أوْلى بالاتِّباعِ ممَّا جاءَ به الرَّسولُ ! ولا قالَت فرقةٌ مِن هذه الفِرَق لأصحابِ هذه المعقولات : أعينونا بما عندَكُم واشهَدوا لنا وعلينا بما قبلكُم ! ولا حقَّقت مقالَتَها بشهادتهم ! ولا استعانَت بطريقتهم، ولا وجدَت عندَها علماً ومعرفةً لم تجدهُ في كتابِ ربِّها وسنَّةِ نبيِّها .

وأنتَ إذا تأمَّلتَ أصولَ الفرقِ الإسلاميَّة كلِّها وجدتَها متفقةً على تقديمِ الوحيِ على العقلِ، ولم يُؤسِّسوا مقالاتهم على ما أسَّسها عليه هؤلاءِ

من تقديمِ آرائهم وعقولهم على نصوصِ الوحي، فإنَّ هذا أساسُ طريقةِ أعداءِ الرُّسلِ، فهم متَّفقونَ على هذا الأصل، ومنهم أُخِذَ، وعنهم تُلُقِّيَ. كما حكى اللَّهُ سبحانه عنهم في كتابهِ أنَّهم عارَضوا شرعَهُ ودينَهُ بآرائهم وعقولهم، ولكنَّ الفرقَ بينهم وبينَ هؤلاءِ [أنَّ] أولئكَ جاهَروا بتكذيبِ الرُّسلِ ومعاداتهِم، وهؤلاءِ أقرُّوا برسالاتهم وانتَسبُوا في الظَّاهرِ إليهم، ثمَّ نقضوا ما أقرُّوا به، وقالوا : يجبُ تقديمُ عقولنا وآرائنا على ما جاءوا به، **فهم أعظمُ شراً على الإسلامِ وأهلِه من أُولئك ! لأنَّهم انتَسبوا إليه وأخذوا في هدمِ قواعدِه وقلْعِ أساسِهِ، وهم يتوهَّمونَ ويُوهمونَ أنَّهم ينصرونَهُ .**

الـوجـه الـعـاشـر :

إنَّ التَّفاوُتَ الذي بينَ الرُّسل وبينَ أربابِ هذه المعقولاتِ أعظمُ بكثيرٍ منَ التَّفاوتِ الذي بينَ هؤلاءِ وبينَ أجهلِ النَّاسِ على الإطلاقِ، فإنَّ هذا الجاهلَ يُمكنهُ مع الطَّلبِ والتَّعليمِ أن يصيرَ عالماً بما عندَ هؤلاء، ولا يمكنُ أشدُّ هؤلاء حرصاً وذكاءً وقوَّةً وفراغاً أن يصيرَ نبيّاً؛ فإنَّ النُّبوَّةَ خاصَّةٌ منَ اللَّهِ يختصُّ بها مَن يَشاءُ من عبادِه، لا تُنالُ بكسبٍ ولا باجتهادٍ .

فإذا علمَ الإنسانُ بعقلهِ أنَّ هذا الرَّسولُ، وعلمَ أنَّهُ أخبرَ بشيءٍ، ووجدَ في عقلهِ ما يُنافي خبره : كانَ الواجبُ عليه أن يُسَلِّمَ لما أخبرَ به الصَّادقُ الذي هو أعلمُ منه، وينقادُ له، ويتَّهمُ عقلَهُ، ويعلمُ أنَّ عقله بالنِّسبةِ إليه أقلُّ من عقلِ أجهلِ الخلقِ بالنِّسبةِ إليه هو، وأنَّ التَّفاوتَ الذي بينَهما في العلمِ والمعرفةِ باللَّه وأسمائهِ وصفاتهِ وأفعالهِ ودينهِ أعظمُ بكثيرٍ كثيرٍ

منَ التَّفاوتِ الذي بينَ [مَنْ] لا خبرةَ له بصناعةِ الطبِّ، ومَن هو أعلمُ أهلِ زمانهِ بها .

فياللّهِ العجبُ ! إذا كانَ عقلُه يُوجبُ عليه أنْ ينقادَ لطبيبٍ يهوديٍّ فيما يُخبرُ به من قوى الأدويةِ والأغذيةِ والأشربةِ والأضمدةِ والمُسَهِّلاتِ وصفاتِها وكمّياتِها ودَرَجاتِها مع ما عليه في ذلك مِنَ الكُلفَةِ والألمِ ومُقاساةِ المكروهاتِ لظنِّهِ أنَّ هذا اليهوديَّ أعلمُ بهذا الشأنِ منه، وأنَّهُ إذا صدَّقهُ كان في تصديقهِ حُصولُ الشفاءِ والعافيةِ **مع علمهِ بأنَّهُ يخطىءُ كثيراً**، وأنَّ كثيراً منَ النَّاسِ لا يشفى بما يصفهُ الطَّبيبُ، بل يكون استعماله لما يصفهُ سبباً من أسبابِ هلاكه، وأنَّ [مِن] أسباب الموتِ أغلاطَ الأطباءِ، فكم لهم من قتيلٍ أسكنوهُ المقابرَ بغلطهم وخطئهم - وإنْ كان خطأُ الطَّبيبِ إصابةَ المقادير - !

وكيفَ لا يَسلكُ هذا المسلكَ مع الرُّسل صلوات اللّه وسلامهُ عليهم وهم الصَّادقونَ المُصَدَّقون ؟ ولا يجوزُ أن يكونَ خبرُهم على خلافِ ما أخبَروا به، **والَّذينَ عارَضوا أقوالَهم بعقولهم عندَهم مِنَ الجهلِ والضَّلالِ المركَّبِ والبسيطِ ما لا يُحصيهِ إلّا مَن هو بكلِّ شيءٍ مُحيطٍ** .

الوجه الحادي عشر :

أنْ يقالَ : تقديمُ العقولِ على الأدلَّةِ الشَّرعيَّة ممتنعٌ متناقضٌ، وأمَّا تقديمُ الأدلَّةِ الشَّرعيَّة فهو ممكنٌ مؤتلفٌ، فوجبَ الثَّاني وامتنعَ الأوَّل :

بيانهُ أنَّ كونَ الشيءِ معلوماً بالعقلِ أو غيرَ معلومٍ بالعقلِ ليسَ هو صفةً لازمةً لشيءٍ منَ الأشياءِ، بل هو منَ الأُمورِ النسبيَّةِ الإضافيَّةِ، فإنَّ زيداً قد

يعلمُ بعقلِهِ ما لا يعلمهُ بكرٌ بعقلِهِ، وقد يعلمُ الإنسانُ في حالٍ بعقلِه ما يجهله في وقتٍ آخر، والمسائلُ التي يقالُ : قد تعارضَ فيها العقلُ والشَّرعُ جميعاً، قد اضطربَ فيها أربابُ العقلِ [أنفُسهم]، ولم يتَّفقوا فيها على أمرٍ واحدٍ، بل كلٌّ منهم يقول : إنَّ العقلَ أثبتَ، أو أوجبَ، أو سوَّغ، ما يقولُ الآخرُ : إنَّ العقلَ نفاهُ، أو أحالَه، أو منعَ منه !! بل قد آل الأمرُ بينهم إلى التَّنازعِ فيما يقولونَ : إنَّهُ منَ العلومِ الضَّروريَّة، فيقولُ هذا: نحنُ نعلمُ بالضَّرورةِ العقليَّة، ما يقولُ الآخَرُ : إنَّهُ غيرُ معلومٍ بالضَّرورةِ العقليَّةِ !!!

وأبلغُ مِن هذا أنْ يدَّعي بعضُهم أنَّ هذا مُحالٌ بضرورةِ العقلِ ! فيدَّعي الآخرُ أنَّهُ ممكنٌ بضرورةِ العقلِ ! فأكثرُ العقلاءِ يقولون : نحنُ نعلمُ بضرورةِ العقلِ امتناعَ رؤيا مرئيٍّ مِن غير مُعاينةٍ ومُقابلةٍ ! ويقولُ آخَرونَ مِنَ المنتَسبينَ إلى المعقولات : بل ذلك ممكنٌ لا يُحيلهُ العقلُ !!

ويقولُ أكثرُ العقلاءِ : إنَّ كونَ العالِم عالماً بلا علمٍ وحيّاً بلا حياةٍ، ومريداً بلا إرادةٍ، وسميعاً بصيراً بلا سمعٍ ولا بصرٍ : مُحالٌ بضرورةِ العقلِ، وآخرونَ يقولون : بل هو ممكنٌ غيرُ مستحيلٍ، بل هو الواجبُ في حقِّ اللَّه عزَّ وجلَّ !

وجمهورُ العقلاءِ يقولون : إنَّ إثباتَ موجودين قائمين بأنفسهما ليسَ أحدُهما مبايناً للآخرِ ولا داخِلاً فيه ولا خارجاً عنه ولا متَّصلاً به، ولا منفصلاً عنه مكابرةٌ لصريحِ العقلِ، وآخرونَ يقولونَ : بل هو ممكنٌ واجبٌ في العقلِ !

وجمهورُ العقلاءِ يقولون : إنَّ إثباتَ كونِ المريدِ مريداً بإرادةٍ لا في محلٍّ ممتنعٌ في ضرورةِ العقلِ، وآخرونَ يُنازعونهم في ذلك !

... إلى أضعافِ أضعافِ ما ذكرنا .

فلو قيلَ بتقديمِ العقلِ على نُصوصِ الوحي لزِمَ المحالُ واجتماعُ النَّقيضَيْن، أو أُحيلَ النَّاسُ على شيءٍ لا سبيلَ لهم إلى ثبوتِهِ ومعرفته !

وأمَّا الوحيُ فهو قولُ الصَّادقِ، وهو صفَةٌ لازمةٌ لا تختلفُ باختلافِ أحوالِ النَّاسِ، والعلمُ بذلك ممكنٌ، وردُّ النَّاسِ إليهِ ممكنٌ .

ولهذا جاءَ الوحيُ منَ اللَّهِ سبحانه بردِّ النَّاسِ عندَ التَّنازُعِ إلى كتابهِ وسُنَّةِ رسولهِ كما قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنازَعْتُمْ في شَيءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللَّهِ والرَّسولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤمِنُونَ بِاللَّهِ وَاليَومِ الآخِرِ ذلكَ خَيْرٌ وَأَحسَنُ تَأْويلاً ﴾ .

فأمرَ المؤمنينَ عندَ التَّنازعِ بالرَّدِّ إلى كتابهِ وسنَّةِ رسولهِ، **وهذا نصٌّ في تقديمِ السَّمعِ .**

قال هؤلاء : بل الواجبُ الرَّدُّ إلى العقلِ، وردُّ السَّمعِ إن عارضَهُ !!

ولو ردَّ النَّاسُ الأمرَ عندَ النِّزاعِ إلى عقولِ الرِّجالِ وآرائِهم ومقاييسهم لم يزدهم هذا الرَّدُّ إلّا اختلافاً واضطراباً وشكّاً وارتياباً، فلا يُمكنُ الحكمُ بينَ النَّاسِ في مواردِ النِّزاعِ والاختلافِ على الإطلاقِ، إلّا

بكتابٍ منزَّلٍ مِن السَّماءِ يرجعُ الجميعُ إلى حُكمِهِ، وإلّا فكلٌّ واحدٍ من أربابِ المعقولاتِ يقولُ : عقلي أَوْلى بالثِّقَةِ بهِ من عقلِ مُنازعي، وهذا يُدْلي بمعقولٍ، وهذا يُدْلي بمعقولٍ !

الوجه الثاني عشر :

أنَّ اللَّهَ سبحانَهُ قد تمَّمَ الدِّينَ بنبيِّه ﷺ وأكمَله به، ولم يُحْوِجْهُ ولا أُمَّتَهُ بعدَه إلى عقلٍ ولا نَقلٍ سواه، ولا رأيٍ، ولا منامٍ، ولا كَشْفٍ !

قال تعالى :

﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾ .

وأنكرَ على مَن لم يكتفِ بالوحيِ عن غيرِهِ، فقال :

﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ في ذلكَ لَرَحمَةً وَذِكرى لِقَومٍ يُؤْمِنونَ ﴾ .

ذكر هذا جواباً لطلبهم آيةً تدلُّ على صدقِهِ، فأخبرَ أَنَّهُ يكفيهم مِن كلِّ آيةٍ، فلو كانَ ما تضمَّنهُ منَ الإخبارِ عنه وعن صفاتِهِ وأفعالِهِ واليومِ الآخرِ يُناقضُ العقلَ لم يكن دليلاً على صدقِه، فضلاً عن أن يكونَ كافياً .

والمقصودُ أنَّ اللَّه سبحانه تمَّمَ الدِّينَ وأكمَلهُ بنبيِّه ﷺ وما بعثهُ به، فلم يُحْوِجِ أُمَّته إلى سواه، فلو عارَضَهُ العقلُ - وكان أولى بالتَّقديم منه - لم يكُن كافياً للأُمَّةِ ولا كان تامّاً في نفسه .

وقال سبحانه : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُم ثُمَّ لَا يَجِدُوا في أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسلِيماً ﴾ .

فأقسمَ سبحانه بنفسهِ أنَّا لا نُؤمنُ حتى نُحَكِّمَ رسولَه في جميعِ ما شجرَ بيننا، وتتسعَ صدورُنا بحُكمهِ، فلا يَبقى منها حَرَجٌ، ونُسلِّم لِحُكمهِ تسليماً **فلا نُعارضهُ بعقلٍ، ولا رأيٍ، ولا هوى، ولا غيره** .

فقد أقسمَ الربُّ سبحانه بنفسهِ على نفيِ الإيمانِ عن هؤلاءِ الذينَ يُقدّمونَ العقلَ على ما جاءَ به الرَّسولُ، وقد شهِدوا هم على أنفسهِم بأنَّهم غيرُ مؤمنين بمعناه وإنْ آمنوا بلفظهِ .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلى اللَّهِ ﴾ .

وهذا نصٌّ صريحٌ في أنَّ حُكمَ جميعِ ما تنازَعنا فيه مردودٌ إلى اللَّهِ وحدَه، وهو الحاكمُ فيه على لسانِ رسولِهِ، **فلو قُدِّمَ حُكمُ العقلِ على حُكمِه لم يكُن هو الحاكمَ بوحيهِ وكتابهِ** .

وقال تعالى : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيكُمْ مِن رَّبِّكُم وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِياءَ ﴾ .

فأمرَ باتِّباعِ الوحيِ المنزَّل وحدَه ونهى عنِ اتِّباعِ ما خالفهُ، وأخبرَ سبحانه أن كتابَهُ بيِّنةٌ، وشفاءٌ، وهدىً، ورحمةٌ، ونورٌ، وفضلٌ، وبرهانٌ، وحجَّةٌ، وبيانٌ، فلو كانَ للعقلِ ما يُعارضهُ ويجبُ تقديمهُ على القرآنِ لم يكُن فيه شيءٌ من ذلك، بل كانت هذه الصِّفاتُ للعقلِ دونَه، وكان عنها بمعزلٍ،

فكيفَ يشفي ويَهدي ويبينُ ويُفصِّلُ ما يُعارِضهُ صريحُ العقلِ ؟!

الوجه الثالث عشر :

أنَّ ما عُلِمَ بصريحِ العقلِ الذي لا يختلفُ فيه العقلاءُ، لا يُتصوَّر أنْ يُعارِضَهُ الشَّرعُ البتَّة، ولا يأتي بخلافِهِ .

ومَن تأمَّل ذلك في ما تنازعَ[1] العقلاءُ فيه من المسائلِ الكبارِ، وجدَ ما خالفتِ النُّصوصَ الصَّحيحةَ الصَّريحةَ شبهاتٍ فاسدةً يُعلَمُ بالعقلِ بُطلانُها، بل يُعلمُ بالعقلِ ثبوتُ نقيضِها الموافقِ للنَّقلِ .

ونحنُ نعلمُ قطعاً **أنَّ الرّسلَ لا يُخبِرونَ بمُحالِ العقولِ، وإنْ أخبَروا بمحاراتِ العقولِ**، فلا يُخبرونَ بما يُحيله العقلُ، وإنْ أخبَروا بما يَحارُ فيه العقلُ ولا يستقلُّ بمعرفته .

ومَن تأمَّل أدلَّةَ نُفاةِ الصِّفاتِ والأفعالِ والقَدَرِ والحكمَةِ والمعادِ، وأعطاها حقَّها مِنَ **النَّظرِ العقليِّ** علمَ بالعقلِ فسادَها، وثبوتَ نقيضها، وللَّهِ الحمدِ .

الوجه الرابع عشر :

إنَّ المسائلَ التي يقالُ : إنَّهُ قد تعارضَ فيها العقلُ والسَّمعُ؛ مِنَ المسائلِ المعلومةِ **بصريحِ العقلِ**، كمسائلِ الحسابِ والهندسةِ، والطَّبيعيَّات اليقينيَّةِ .

فلم يجيء في القرآن ولا في السُّنَّة حرفٌ واحدٌ يخالفُ العقلَ في

---

(١) في « الصواعق » (٨٢٩/١) : « ينازع »، والتصحيح من « مختصره » (١٤١/١) .

هذا الباب، وما جاءَ من ذلك فهو مكذوبٌ ومفترى ، ككثيرٍ مِن الأخبارِ الواهيةِ والإسرائيليّات الفاسدة، وغيرها منَ الأقوالِ المخالفةِ لصريحِ العقلِ .

فكيفَ يُجعلُ ما أثبَتهُ اللَّهُ لنفسِه في كتابهِ من صفاتهِ وأفعالهِ، وما صحَّ عن رسولهِ أنَّهُ أثبتَهُ له؛ مِن عُلُوّه فوقَ سماواتهِ على عرشِهِ، واستوائهِ عليه، وتكلُّمه، وتكليمِه، وثُبوتِ علمِه، وقُدرتِه، وحياتِه، وسمعِه، وبصرِه، ووجهِه الأعلى، ورحمتِه، وغضبِه، ورضاهُ، وفَرَحِه، وضحكِه، ويديه ...

ونحوِ ذلك من صفاتِ كمالهِ، ونعوتِ جلالهِ، كيف يُجعلُ هذا بمنزلةِ ذلك من مُخالفةِ كلٍّ منهما لصريحِ العقلِ ؟!

ويُجعلُ إثباتُ هذا كإثباتِ ذلك، وَوَصْفُهُ بهذا كوصفهِ بذاكَ؛ كما صرَّحَ به (كُبراؤهم) وقالوا : إنَّ هذا تشبيهٌ وتجسيمٌ ! فلا فرقَ بينَهُ وبينَ ذاك التَّشبيهِ والتَّجسيم !!

فَلْيَبْكِ على عقلِه وما أُصيبَ به مَن سَوَّى بين الأمرين !! أحسنَ اللَّه عزاءَه في عقلِه، ولا بورِكَ له في علمٍ هذه غايتهُ التي لا يرضاها أعظمُ النَّاسِ انغماساً في جهلِه !!

الوجه الخامس عشر :

إنَّهُ لا يُعلمُ آيةٌ من كتابِ اللَّه، ولا نصٌّ **صحيحٌ** عن رسولِ اللَّه ﷺ في بابِ أصولِ الدِّين : اجتمعَت الأُمَّةُ على خلافهِ، وغايةُ ما يُقَدَّرُ اختلافُ

الأُمَّةِ في القولِ بموجبِهِ .

ومَن له خبرةٌ بمذاهبِ النَّاسِ، وأقوالِ السَّلفِ يعلمُ قطعاً أنَّ الأُمَّةَ اجتمعَت على القولِ به قبلَ ظهورِ المخالِفِ، كما اجتمَعت بانَّ اللَّه مستوٍ على عرشِهِ، فوقَ سماواتِه، وأنَّ المؤمنين يرونَهُ عياناً بالأبصارِ من فوقهم في الجنَّةِ، وأنَّهُ سبحانه كلَّم نبيَّه موسى منه إليه بلا واسطةٍ تكليماً سمعَ به كلامَه، ولم يشكّ أنَّهُ هو الذي كانَ يكلِّمه .

فهذا إجماعٌ معلومٌ متيقَّنٌ عندَ جميعِ أهلِ السنَّة والحديثِ، فالعقلُ الذي يعارِضُ هذا لم تُجمعْ عليه الأُمَّة، ولم يُعرف عن رجلٍ واحدٍ منَ السَّلفِ والأئمَّة أنَّهُ قالَه، وغايتُهُ أن يكونَ عقلَ فرقةٍ منَ الفِرَقِ اشتقَّت لأنفسها مذهباً، وادَّعت له معقولاً، **فلما صالَت عليها نصوصُ الوحي التجأتْ إلى العقلِ، وادَّعت أنَّهُ يخالفها، وصدَقَت وكذبَت !!**

أمَّا صدقُها : فإنَّ نصوصَ الوحيِ تُخالفُ معقولَها هي، وذلك مِن أدلِّ دليلٍ على فسادِهِ في نفسِهِ؛ إذ شهدَت له نصوصُ الوحي بالبطلانِ .

وأمَّا كذبُها : فزعمُها أنَّ نصوصَ الوحيِ تخالفُ العقلَ المتفقَ عليه بينَ العقلاءِ، فهذا لم يَقَع، ولا يَقَع ما دامَت السَّماءُ سماءً، والأرضُ أرضاً، بل تزولُ السَّماءُ والأرضُ، وهذا لا يكون !

فأيُّ ذنبٍ للنُّصوصِ إذا خالفَت عقولَ بعضِ النَّاسِ، فقد وافقَت عقولَ أصحِّ النَّاسِ عقلاً :

﴿ فَإِنْ يَكفُرْ بِها هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرينَ ٥ أُولئكَ الَّذينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِه ﴾ .

الوجه السادس عشر :

أنَّ الأدلَّةَ السَّمعيَّة هي الكتابُ، والسُّنَّةُ، والإجماعُ، وهو[١] إنَّما يصارُ إليه عندَ تعذُّرِ الوصولِ إليهما، فهو في المرتبةِ الأخيرةِ، ولهذا أخَّره عمرُ في كتابِه إلى أبي موسى حيثُ كتبَ إليه : « اِقْضِ بما في كتابِ اللَّه، فإنْ لم يكُن في كتابِ اللَّه فبما في سنَّةِ رسولِ اللَّه ﷺ، فإنْ لم يكُن في السُّنَّةِ فبما قَضى به الصَّالحونَ قبلكَ »[٢].

وهذا السُّلوكُ هو كان سلوكَ الصَّحابةِ والتَّابعين، ومَن درجَ على آثارهم من الأئمَّة .

وقد صانَ اللَّهُ الأُمَّةَ أن تجتمعَ على خطإٍ أو على ما يُعلَمُ بطلانُه بصريحِ العقلِ، فإذا كانَ الإجماعُ معصوماً أنْ ينعقِدَ على ما يخالفُ العقلَ الصَّريحَ، بل إذا وَجَدنا معقولاً يخالفهُ الإجماعُ علمنا قطعاً أنَّهُ معقولٌ فاسدٌ .

فلأَنْ يُصانَ كتابُ اللّهِ وسنَّةُ رسولِه عن مخالفةِ العقلِ الصَّريحِ أَوْلى وأحْرى .

---

(١) أي : الإجماع .

(٢) رواه النَّسائي (٨/٢٣١)، وصححه شيخنا في « صحيح سنن النسائي » (رقم:٤٩٨٩) .

الوجه السابع عشر :

أَنَّهُ إذا قُدِّرَ تعارضُ العقلِ والكتابِ ! فَرَدُّ العقلِ الذي لم تُضمَن لنا عصمتُه إلى الكتابِ المعلومِ العصمةُ هو الواجبُ[1].

الوجه الثامن عشر :

أنَّ هؤلاءِ الخائضينَ في صفاتِ الرَّبِّ، وأفعالِه، وما يجوزُ عليه، وما لا يجوزُ (ا) **بآرائهم، وعقولِهم**؛ تراهم مختلفين متنازعين حيارى مُتَهوِّكين، وحاصِلُ ما مع أكثرِهم حسنُ الظَّنِّ بإمامِهِ الذي سلكَ طريقتَه، وتقليدُه في أصولِه، وهو يرى بعقلِه خلافَها، ويستشكلُها، ويُقِرُّ بأنَّها مشكلةٌ جدّاً، ثمَّ يَنْكُسُ على رأسِهِ، ويقول : هو أعلمُ بالمعقولِ منِّي !!

وكثيرٌ منهم يرى بعقله نقيضَ ما قاله شيخُه وإمامُه ! ولكن لحسنِ ظنِّه به يتوقَّف في مخالفتِهِ، وينسبُ التَّقصيرَ إلى فهمِه، والنَّقصَ إلى عقلِه لِعَظَمَةِ أرسطو - أو غيرِه - في نفسِه، ولظنِّهِ بأنَّهُ أعقلُ منه !

وهكذا شأنُ جميعِ أربابِ المقالاتِ والمذاهبِ، يرى أحدُهم في كلامِ متبوعِهِ، ومَن يقلِّدهُ ما هو باطلٌ، وهو يتوقَّفُ في رَدِّ ذلك لاعتقادِه أنَّ إمامه وشيخَهُ أكملُ منه علماً وأوفرُ عقلاً، هذا مع علمِه وعلمِ العقلاءِ أنَّ متبوعَه وشيخَه ليس بمعصومٍ منَ الخطإ !

فهلّا سلكوا هذا المسلكَ مع نبيِّهم ورسولِهم المضمونِ له العصمةُ،

---

(١) وكذا السُّنَّة الصحيحة سواءً بسواءٍ .

المعلومِ صدقُهُ في كلِّ ما يُخبرُ به، وهلّا قالوا : عقلهُ أوفرُ مِن عقولنا، وعلمُه أصحُّ من علومنا، فنحن نُنكرُ كلَّ معقولٍ يخالفُه، ونردُّه، ولا نقبلهُ، كما فعلوه مع شيوخِهم ومتبوعِيهم !

ولكن : ﴿ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَملِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولئكَ الَّذينَ لَم يُرِدِ اللَّهُ أن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُم لَهُم في الدُّنيا خِزْيٌ وَلَهُم في الآخِرَةِ عَذابٌ عَظيمٌ ﴾ .

الوجه التاسع عشر :

أنَّ كلَّ مَن أعرضَ عنِ السَّمعِ لظنِّه أنَّ العَقلَ يُخالِفهُ؛ لكونِ أدلَّتِهِ - عنده - لا تفيدُ اليقينَ، أو لأنَّهُ خاطبَ الخلقَ **خطاباً جمهوريّاً تخييليّاً** لا خطاباً برهانيّاً !! تجدُ بينهم مِنَ النِّزاعِ، والتفرُّق، والشَّهادةِ من بعضِهِم على بعضٍ بالضَّلالةِ بحسبِ إعراضهم عن السَّمع ! وكلُّ مَن كانَ عنه أبعدَ كان قولُهُ أفسدَ، واختلافُ طائفتِهِ أشدَّ .

فالمعتزلةُ[1] أكثرُ اختلافاً مِن مُتَكَلِّمَةِ أهلِ الإثباتِ، وبينَ البصريِّين والبغداديِّين منهم مِنَ النِّزاعِ ما يطولُ ذِكرهُ؛ والبصريُّون أقربُ إلى الإثباتِ والسُّنَّةِ منَ البغداديِّين، فالبصريُّون يُثبتونَ كونَه سبحانه سميعاً بصيراً حيّاً عالماً قديراً، ويُثبتونَ له الإرادةَ، ولا يُوجبونَ عليه الأصلحَ في الدُّنيا، ويُثبِتونَ خبرَ الواحِدِ والقياسَ، ولا يُؤثِّمونَ المجتهدين .

وأمَّا الشِّيعةُ، فأعظمُ تفرُّقاً واختلافاً منَ المعتزلةِ، حتى قيل : إنَّهم يبلغونَ

(١) لعلَّ اللاّهثين - اليومَ - وراءَ رُكامهم الغابر العاثِر ... **يعقلون** !!

ثنتين وسبعين فرقةً، وذلك لأنَّهم أبعدُ طوائفِ الملَّة عنِ السُّنَّةِ .

وأمَّا الفلاسفةُ، فلا يجمعهُم جامعٌ، فتلاعَبْ بالنبوَّات، ولا تقفْ مع حدودِها، وقُل بعقلكَ ما شئتَ !! وقد صِرتَ فيلسوفاً حكيماً !!

وهم أعظمُ اختلافاً من جميعِ طوائفِ المسلمين واليهودِ والنَّصارى !

وأمَّا سائرُ طوائفِ الفلاسفةِ، فلو حُكيَ لكَ اختلافُهم في علمِ الهيئةِ وحدَه لرأيتَ العجبَ العجابَ، هذا والهيئةُ علمٌ رياضيٌّ حسابيٌّ هو مِن أصحِّ علومهم، فكيفَ باختلافِهم في الطبيعيَّات ! فكيفَ بالإلهيَّاتِ !

أمَّا الطَّبيعيَّاتُ؛ ففيها منَ الاضطرابِ والاختلافِ ما لا يكادُ يُحصى، وهو أكثرُ مِن أنْ يُذكرَ، هذا وهو أقربُ إلى الحسِّ مِنَ العلمِ الإلهيِّ .

وأمَّا الإلهيَّاتُ؛ فإذا شئتَ مثالاً يقرِّبُ إليكَ حالَهم، فَمَثَلُهم كمثلِ قومٍ نَزَلوا بفلاةٍ منَ الأرضِ، في ليلةٍ ظلماءَ، فهجمَ عليهم العدوُّ، فقاموا في الظُّلمةِ هاربينَ على وجوههم في كلِّ ناحيةٍ !!

ولا إلهَ إلّا اللَّهُ كم لهم فيه من خَبْطٍ وخَرْصٍ وتَخْمينٍ، وليسوا متَّفقينَ فيه على شيءٍ أصلاً، وأساطينُهم قد صرَّحوا بأنَّهم لا يَصِلونَ فيه إلى اليقينِ، وإنَّما يتكلَّمون فيه بالأَولى والأخلقِ[1] !!

ولهذا ظهرَ في السَّالكين خَلفَهم مِنَ الحيرةِ والتَّوقُّفِ والاعترافِ بأنَّهم لم يصِلوا إلى شيءٍ، ما فيه عبرةٌ لأهلِ الوحي أتباعِ الرُّسلِ المُقدَّمين لما نزلَ به

(١) أي : الأجدر، والمقصود أنَّهم يبنون آراءَهم على الظُّنون .

الوحيُ على عقولِ هؤلاءِ وأشباههم !

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبيلاً ﴾ .

وحدّثني شيخُ الإسلام قال : حكى لي بعضُ الأذكياءِ - وكان قَد قرأَ على أفضَلِ أهلِ زمانِه في الكلامِ والفلسفةِ، وهو ابنُ واصلِ الحمويّ[1] - أنَّهُ قال له الشيخُ : أضطجِعُ على فراشي، وأضعُ الملحفَةَ على وجهي، وأقابلُ بين أدلَّةِ هؤلاءِ وأدلَّةِ هؤلاءِ حتى يطلعَ الفجرُ، ولم يترجَّح عندي شيءٌ !!

ولهذا ذهبَ طائفةٌ مِن أهلِ الكلامِ إلى القولِ بتكافؤ الأدلَّةِ، ومعناهُ أنَّها قد تكافأَت، وتعارَضَت، فلم يعرف الحقَّ منَ الباطلِ، **وصَدقُوا، وكَذبُوا** !!

أمَّا صدقهُم : فإنَّ أدلَّتهم وطُرُقَهم قد تكافأَت، وتصادَمَت؛ حتى قال شاعرهُم :

ونَظيري في العلمِ مثليَ أعمى   فترانا في حُنْدُسٍ نتصادَمُ

وَلَقد صَدقَ هذا الأعمى البَصرُ والبَصيرةُ، ووصفَ حالَ القومِ فأحسنَ - واللَّهِ - الفقهَ، وعبَّرَ عن حالِهم بأشدِّ عبارةٍ مُشَبِّهاً إيّاهُم بزمرةِ عميانٍ قاموا في ليلةٍ مُظلمةٍ يتهاوشونَ ويتصادَمونَ !!

وأمَّا كذبهُم : فإنَّ أدلَّةَ الحقِّ وشُبهَ الباطلِ لا تتكافَأُ حتى يتكافأَ الضَّوءُ والظَّلامُ، والبياضُ والسَّوادُ، والمسكُ وأنتنُ الجيَفِ !

---

(١) اسمه محمد بن سالم بن نصر التَّميمي، توفي سنة (٦٩٧هـ)، ترجمته في « الوافي بالوَفَيَات » (٨٥/٣) للصَّفدي .

فسبحانَ مَن أعمى عن الحقِّ بصائرَ مَن شاءَ مِن خَلقِه كما أعمى عن الشَّمسِ أبصارَ مَن شاءَ منهم ! فالذَّنبُ لِكَلَلِ البصائرِ لا للحقِّ، كما أنَّ الحجابَ في تلك العيونِ لا في الشَّمسِ .

ولقد أحسنَ القائلُ في وصفِ هؤلاءِ وبصائرِهم : إنَّها بمنزلةِ أبصارِ الخفَّاشِ، تعجزُ عن ضوءِ النَّهارِ، ولا تفتحُ أعينَها فيه، ويلائمها ظلامُ اللَّيلِ، فتذهَبُ فيه وتجيءُ !

ولهذا تجدُ أكثرَ هؤلاءِ لمّا لم يتبينَّ له الهدى في شيءٍ من تلكِ الطُّرق، نكصَ على عقبيهِ، وخلعَ العِذارَ[1]، ونزعَ قيدَ الشريعةِ من قلبهِ، وأقبلَ على شهواتِ الغيِّ في بطنهِ وفرجهِ، أو رياستِه ومالِه، فأقبلَ على اللذَّاتِ وسماعِ المُطرِبات، ومعاشرةِ الصوَر المستحسناتِ، وذلك لخلوِّ قلبهِ عن حقائق العلمِ والإيمان الذي بعثَ اللَّهُ به رسولَهُ، فلم يَصِل إليه ولا وصلَ مِن طُرُقِ أصحابه إلّا إلى الشكِّ والحيرةِ !

فهؤلاءِ هم الذين عناهُم اللَّهُ سبحانه بقوله : ﴿ إِنْ يَتَّبِعونَ إلّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأنفُسُ ﴾ ، فعلومُهم ظنونٌ : ﴿ وإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيئاً ﴾ .

وإرادتُهم هوى نفوسهم، وعلومُهم تَدعو إلى إرادتهم، وإرادتُهم تَدعو إلى علومهم؛ **فإنَّ اتباعَ الهوى يصدُّ عن الحقِّ**، ويُضِلُّ عن سبيلِ اللَّه، فتولَّوْا عن القرآن، وآثَروا عاجلَ الدُّنيا .

---

(١) أي : الحياء .

وهؤلاءِ الذينَ أمرَ اللَّهُ رسولَهُ بالإعراضِ عنهم بعدَ إقامَةِ الحجَّةِ عليهم، فقال تعالى :

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إلّا الحيَاةَ الدُّنيا ۝ ذلكَ مَبلَغُهُم مِنَ العِلمِ ﴾ .

الـــوجـــه الـعـــشـــرون :

قالَ ابن عبَّاسٍ[1] : تكفَّلَ اللَّهُ لمَن قرأَ القرآنَ، وعملَ بما فيهِ أن لا يَضلَّ في الدُّنيا، ولا يَشقى في الآخرَةِ، ثمَّ قرأ هذه الآيةَ : ﴿ وَمَن أعرَضَ عَن ذِكري فإنَّ لهُ مَعيشةً ضَنكاً ونَحشُرُه يَومَ القِيامَةِ أعمى .. ﴾ .

فيتناوَلُ الذِّكرَ الذي أنزَلهُ، وهو الهدى الذي جاءَت به الرُّسل، ويدلُّ عليه سياقُ الكلامِ، وهو قوله : ﴿ كذلكَ أتتكَ آياتُنا فنَسِيتَها ﴾ .

فهذا هو الإعراضُ عن ذكرهِ .

فإذا كانَ هذا حالَ المعرضِ عنه، **فكيفَ حالُ المعارضِ له بعقلِه أو عقلِ مَن قلَّده، وأحسنَ الظَّنَّ به ؟!** فكما أنَّهُ لا يكونُ مؤمناً إلّا مَن قَبِلَه وانقادَ له، فَمَن أعرضَ عنه وعارضَهُ مِن أبعَدِ النَّاسِ عن الإيمان به .

الـوجـه الـحـــادي والـعـشـرون :

أنَّ طالبَ الهدى في غيرِ القرآنِ والسنَّةِ قَد شَهِدَ اللَّهُ ورسولُه له

(١) رواه ابن أبي شيبة في « مصنَّفه » (٤٦٧/١٠) وعبدالرزّاق في « المصنّف » - أيضاً - (٦٠٣٢)، والحاكم (٣٨١/٢) .

بالضَّلالِ، فكيفَ يكونُ عقلُ الذي أضلَّهُ اللّه مقدَّماً على كتابِ اللَّه وسنَّة رسولِهِ ؟!

قال تعالى في أربابِ العقولِ التي عارَضوا بها وحيَهُ :

﴿ أَفَرَأَيتَ مَنِ اتَّخذَ إِلهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ على عِلمٍ وَختَمَ عَلى سَمعِهِ وَقَلبِهِ وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهديهِ مِن بَعدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرونَ ﴾ .

وقال : ﴿ وَأَنَّ هذا صِراطي مُستَقيماً فاتَّبِعوهُ وَلا تَتَّبِعوا السُّبُلَ فَتَفرَّقَ بِكُم عَن سَبيلِهِ ﴾ .

وقالَ فيمن قدَّمَ عقلَه على ما جاءَ به :

﴿ إِنْ يَتَّبِعونَ إِلّا الظَّنَّ وَمَا تَهوى الأَنفُسُ وَلَقَد جاءَهُم مِن ربِّهِم الهُدى ﴾ .

والقرآنُ مملوءٌ بوصفِ مَن قدَّمَ عقلَه على ما جاءَ به بالضَّلالِ .

الوجه الثاني والعشرون :

أنَّ ما عارضَ به هؤلاءِ نصوصَ الأنبياءِ منَ المعقولاتِ، قَد شَهِدوا على أنفسهم بالحيرةِ والشَّكِّ فيها، وأنَّهم لم يجزِموا فيها بشيءٍ، ولم يَظْفَرُوا منها بعلمٍ، ولا يقينٍ، وشهدَ به عليهم تناقضُهم واضطرابُهم واختلافُهم .

فإنَّ ما كانَ مِن عندِ غيرِ اللَّه لا بدَّ أن يقعَ فيه الاختلافُ الكثيرُ، وشهدَ عليهم بذلك أتباعُ الرَّسول، وشهدَ به عليهم مَن هو على كلِّ شيءٍ شهيدٌ،

وسيشهَدُ به عليهم يومَ القيامَةِ مَن أُنزِلَ عليه :

﴿ فَكَيفَ إذا جِئنا مِن كلِّ أُمَّةٍ بَشَهيدٍ وَجِئنا بكَ على هؤلاءِ شَهيداً ﴾ .

وشهدَ به عليهم نصوصُ الكتابِ والسُّنَّةِ، وشهدَ به عليهم أدلَّةُ العقولِ الصَّريحةِ للنُّصوصِ .

فهل عندهم مثلُ هؤلاءِ الشهودِ على صحَّةِ العقلِ الذي عارَضوا به نصوصَ الأنبياءِ ؟!

نَعَم؛ شهودُهم أرسطو، وأفلاطونُ، وفيثاغورسَ، وابنُ سنيا، والفارابي، وجهمُ بنُ صفوانَ، وأبو الهُذيلِ العلّاف، والنّظّامُ، وأوقاحُ الجهميَّةِ، والمعتزلةُ، وأفراخُ الصَّابئِينَ، والمجوسُ !

ومَن تعارضَت عنده هذه البيِّناتُ فلا نُنكرُ أن يتعارضَ عنده العقلُ والنَّقلُ، وأن يقدِّمَ العقلَ على النَّقلِ !!

الوجه الثالث والعشرون :

أنَّ أصحابَ القرآنِ والإيمان قد شهِدَ اللَّه لهم - وكفى به شهيداً - بالعلمِ واليقينِ والهدى، وأنَّهم على بصيرةٍ وبيِّنَةٍ من ربِّهم، وأنَّهم هم أُولو العقلِ والألبابِ والبصائر، وأنَّ لهم نوراً على نورٍ، وأنَّهم المهتَدونَ المفلحون :

قال تعالى في حقِّ الذينَ يؤمنونَ بالغيبِ، **ولا يُعارِضونَه بعقولهم وآرائهم :**

﴿ الٓمٓ ۝ ذلكَ الكِتابُ لا رَيبَ فيهِ هُدىً لِلمُتَّقِينَ ۝ **الَّذينَ يُؤْمِنونَ بالغَيبِ** ويُقيمونَ الصَّلوةَ ومِمَّا رَزَقناهُم يُنفِقونَ ۝ والَّذينَ يُؤْمِنونَ بِما أُنزِلَ إليكَ وَما أُنزِلَ مِن قَبلِكَ وبالآخِرَةِ **هُم يوقِنونَ** ۝ **أولئكَ على هُدىً مِن ربِّهِم وأُولئكَ هُمُ المُفلِحونَ** ﴾ .

وقال : ﴿ وَيَرَى الَّذينَ أُوتُوا العِلمَ الَّذي أُنزِلَ إليكَ مِن رَبِّكَ هُوَ الحَقَّ وَيَهدِي إلى صِراطِ العَزيزِ الحَميدِ ﴾ .

وهذا دليلٌ ظاهرٌ أنَّ الذي نراهُ مُعارِضاً للعقلِ، ويقدِّمُ العقلَ عليه ليسَ منَ الذينَ أُوتوا العلمَ من قَبيلٍ ولا دَبيرٍ، ولا قَليلٍ ولا كثيرٍ !

وقال : ﴿ أَفَمَن يَعلَمُ أَنَّما أُنزِلَ إليكَ مِن رَبِّكَ الحَقُّ كَمَن هُوَ أعمَى ﴾ .

وهذه شهادةٌ منَ اللَّه على عمى هؤلاءِ، وهي مُوافِقةٌ لشهادتهم على أنفسهم بالحيرةِ والشَّكِّ، وشهادةِ المؤمنين عليهم .

وقال سبحانه : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَواتِ والأَرضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشكَاةٍ فِيها مِصباحٌ المِصباحُ في زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كأنَّها كَوكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيتونَةٍ لا شَرقِيَّةٍ وَلا غَربِيَّةٍ يَكادُ زَيتُها يُضيءُ وَلَو لَم تَمسَسهُ نارٌ نُورٌ على نورٍ يَهدي اللَّهُ لِنورِهِ مَن يشاءُ وَيَضرِبُ اللَّهُ الأمثالَ للنَّاسِ واللَّهُ بكلِّ شيءٍ عَليمٌ ﴾ .

فأخبرَ سبحانه عن مَثَلِ نورِ الإيمانِ به، وبأسمائِه، وصفاتِه، وأفعالِه وصدقِ رسلِه في قلوبِ عبادِه، وموافقةِ ذلك لنورِ عقولهم وفِطَرِهم التي

أبصروا بها نورَ الإيمان بهذا المثلِ المتضمِّنِ لأعلى أنواعِ النُّورِ المشهودِ، وأنَّهُ نورٌ على نورٍ :

نورُ الوحي ونورُ العقل، نورُ الشَّرعةِ ونورُ الفطرةِ، نورُ الأدلَّة السّمعيَّة ونورُ الأدلَّةِ العقليَّةِ (١).

وقال تعالى :

﴿ أَوَمَن كانَ مَيْتاً فَأَحيَيناهُ وَجَعَلنا لَهُ نوراً يَمشي بهِ في النَّاسِ كَمَن مَثَلُهُ في الظُّلُماتِ ليسَ بِخارِجٍ منها كذلكَ زُيِّنَ للكافرينَ ما كانوا يَعمَلون ﴾ .

ثمَّ أخبرَ سبحانَهُ عن حالِ المُعرضينَ عن هذا النُّورِ المعارضينَ للوحيِ بالعقلِ بمَثَلَينِ يتضمَّنُ أحدُهما وصَفَهم بالجهلِ المركَّبِ، والآخرُ بالجهلِ البسيط؛ لأنَّهم بين ناظرٍ وباحثٍ ومُقَدِّرٍ ومُفَكِّرٍ، وبين مقلِّدٍ يُحَسِّنُ الظَّنَّ بهم، فقال في الطَّائفتين :

﴿ وَالَّذينَ كَفَرُوا أَعمَالُهُم كَسَرابٍ بِقيعَةٍ يَحسَبُهُ الظَّمآنُ ماءً حَتَّى إذا جاءَهُ لَم يجِدهُ شَيئاً وَوَجدَ اللَّهَ عندَهُ فَوَفَّاهُ حسابَهُ واللَّهُ سريعُ الحِسابِ ٥ أو كَظُلُماتٍ في بَحرٍ لُجِّيٍّ يَغشَاهُ مَوجٌ مِن فَوقِهِ مَوجٌ مِن فَوقِه سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعضُها فَوقَ بَعضٍ إذا أخرجَ يَدَهُ لَم يَكَد يَراها ومَن لَم يَجعَلِ اللَّهُ لهُ نُوراً فما لهُ مِن نُورٍ ﴾ .

---

(١) لذا؛ فإنَّك - أخي الموفَّق للهُدى - ترى أولئك (العقلانيِّين) مُظلمي البَصَر ... مُظلمي البصيرة ... ليس عليهم أدنى مسحةٍ من هذه الأنوار !!

الوجه الرابع والعشرون :

أن يقالَ : **إذا تعارضَ العقلُ والنَّقلُ، وجبَ تقديمُ النَّقلِ**، لأنَّ الجمعَ بينَ المدلولين جمعٌ بينَ النَّقيضين، وإبطالُهما معاً إبطالٌ للنَّقيضين، وتقديمُ العقلِ ممتنعٌ، لأنَّ العقلَ قَد دلَّ على صحَّةِ السَّمعِ ووجوبِ قَبُولِ ما أخبرَ به الرَّسولُ، فلو أبطلنا النَّقلَ لكنَّا قَد أبطلنا دلالةَ العقلِ، وإذا بطلَت دلالته لم يَصلُح أن يكونَ معارضاً للنَّقلِ، لأنَّ ما ليسَ بدليلٍ لا يصلحُ لمعارضةِ الدَّليل، فكانَ تقديمُ العقلِ موجباً لعدم تقديمه، فلا يجوزُ تقديمه .

وهذا بيِّنٌ جدّاً؛ فإنَّ العقلَ هو الذي دلَّ على صدقِ السَّمعِ وصحَّته، وأنَّ خبرَهُ مطابقٌ لِمَخبَرِه، فإمَّا أن تكونَ هذه الدَّلالةُ صحيحةً أو باطلةً :

فإن كانت صحيحةً امتنعَ أن يكونَ في العقلِ ما يُبطلها .

وإن كانت باطلةً لزمَ أن لا يكونَ العقلُ دليلاً صحيحاً .

وإذا لم يكن دليلاً صحيحاً لم يُتَّبَع بحالٍ فضلاً عن أن يُقدَّم على الدَّليل السَّمعيِّ الصَّحيح، فصارَ تقديمُ العقلِ على النَّقلِ قَدحاً في العقلِ بانتفاءِ لوازمِهِ ومدلولِهِ .

وإذا كانَ تقديمُهُ على النَّقلِ، يستلزمُ القدحَ فيه، والقدحُ فيه يمنعُ دلالته، وذلك يمنعُ معارضتَه، استحالَ تقديمُهُ عندَ المعارَضَةِ، لأنَّ تقديمَهُ عندَ المعارَضةِ يُبطِلُ المعارَضَةَ، وذلك يَحُلُّ المسألةَ من أصلها[1].

---

(١) وهذا الوَجه - وحده - كافٍ لإقناعِ كلِّ صاحبِ (عقلٍ) لم يُلَوِّثْهُ التعصُّب والهوى .

الوجه الخامس والعشرون :

أن يقالَ : **معارضةُ العقلِ لما دلَّ العقلُ على أنَّه حقٌّ دليلٌ على تناقضِ دلالته، وذلك يوجبُ فسادَها**، وأمَّا السَّمعُ فلم يُعلم فسادُ دلالته، ولا تعارُضُها وتناقُضُها في نفسها، وإن قُدِّرَ أنَّهُ لم يعلم صحَّتها .

وإذا تعارضَ دليلان، أحدهما علِمنا فَسادَه، والآخرُ لم نعلم فسادَه، كان تقديمُ ما لم يُعلم فسادُه أقربَ إلى الصَّوابِ من تقديمِ ما يُعلم فسادُه .

وهذا كالشَّاهد إذا عُلِمَ كَذبهُ وفسقُهُ لم يجُز تقديمُ شهادتهِ على شاهدٍ مجهولٍ لم يُعلم كذبهُ، فكيفَ إذا كانَ الشَّاهدُ الكاذبُ هو الذي شهدَ بأنَّهُ قَدْ كَذبَ في بعضِ شهاداته ؟!

والعقلُ إذا صدَّقَ السَّمعَ في كلِّ ما يُخبرُ به، ثم قال : إنَّهُ أخبرَ بخلافِ الحقِّ؛ قَد شهِدَ للسَّمعِ بأنَّهُ يجبُ قَبولُ قولِه، وشهدَ له بأنَّهُ لا يجوزُ قَبولُ قوله، وشهدَ بأنَّ ما أخبرَ به ليسَ بحقٍّ، وشهدَ له بأنَّ ما أخبرَ به حقٌّ ! **وهذا قدحٌ في شهادتهِ مُطْلَقاً، وفي تزكيتهِ**، ولا تُقبلُ شهادتهُ الأولى ولا الثَّانية !

الوجه السادس والعشرون :

إنَّ الشبهاتِ القادحةَ في نبوَّات الأنبياءِ، ووجودِ الرَّبِّ، ومعادِ الأبدانِ - التي يُسمِّيها أصحابُها حُججاً عقليةً - هي كُلُّها معارضةٌ للنَّقلِ، وهي أقوى منَ الشُّبهِ التي يَدَّعي النُّفاةُ للصِّفاتِ أنَّها معقولاتٌ خالَفتِ النَّقلَ، أو

مِن جنسِها، أو قريبةٍ منها، كما قيلَ :

دَعِ الخَمرَ يشربُها الغُواةُ فإنَّني رأيتُ أخاها مُغْنِياً بمكانِها

فإنْ لا يَكُنها أو تَكُنهُ فإنَّهُ أخوها غَذَتْهُ أُمُّه بِلُبانِها

فَقَد أُورِدَ على القدحِ في النّبوّات نحوُ ثمانينَ شبهةً أو أكثرَ - وهي كلُّها عقليةٌ - وأُوردَ على إثباتِ الصّانعِ سبحانَهُ نحوُ أربعينَ شبهةً كلُّها عقليَّةٌ، وأُوردَ على المعادِ نحوُ ذلك !

واللَّهُ يعلمُ أنَّ هذه الشُّبَهَ مِن جنسِ شُبَهِ [العقلانيِّين] نُفاةِ الصِّفات، وعلوِّ اللَّهِ على خلقِه وتكلُّمِهِ، وتكليمِهِ، ورؤيتِه بالأبصارِ عياناً في الآخرةِ .

لكن نَفَقَتْ هذه الشبهةُ تجاهَ نسبةِ أربابِها إلى الرَّسولِ والإسلامِ، وأنَّهم يذبُّونَ عن دينه، **ويُنَزِّهونَ الربَّ**[1] **عمّا لا يليقُ به**، وإلّا فعندَ التَّحقيقِ القاعُ عَرفجٌ[2] كلُّه، ولا فرقَ بينَ الشُّبهِ المعارضةِ لأصلِ نبوّةِ الرَّسولِ، والشّبهِ المعارضَةِ لما أخبرَ به الرَّسولُ .

ومَن تأمَّل هذا وهذا، تبيَّنَ له حقيقةُ الحالِ، وربَّما وجدَ الشُّبَهَ القادحة

---

(١) وتنزيهُهُم (المزعوم) كذبةٌ باطلةٌ ، توهَّمتها عقولهم ، بسبب جهلهم وعَدَم فهمهم لقاعدة الإثبات والتنزيه، إذ تنزيهُهم - هذا - هو التعطيلُ بعينه ، بل الإنكارُ بذاتِه !!

(٢) في « الصواعق » (٨٥٧/٣) : « عن فخّ » ! والتصحيح مِن « مختصره » (١٤٢/١).
والعرفجُ : نباتٌ طيِّبُ الرِّيح أغبرُ .
وقولُهُ : « القاع عرفجٌ » مثلٌ يُضرَبُ للتشابهِ .

في أصلِ النُّبوَّة أكثرَ منَ الشُّبَهِ القادحةِ فيما أخبرَت به الرُّسل، فيقال لمن قدَّمَ المعقولَ المعارضَ لما أخبرَ به الرَّسولُ : هل تُقَدِّمُ المعقولَ المعارضَ لأصلِ الرِّسالةِ والنُّبوَّةِ، وأنتَ قد أوردَتهُ وأجبتَ عنه بما يعلمُ أنَّ صدركَ لم يَنْثَلِجْ له ؟!

فإنَّ تلكَ الأجوبةَ مبنيَّةٌ على قواعِدَ قد اضطربَ فيها قولُك، فمرَّةً تُثبتها، ومرَّةً تنفيها، ومرَّةً تقفُ فيها .

أم تطرحُ تلكَ المعقولات، وتُهدرُها، وتشهدُ بفسادِها ؟!

فحينئذٍ فهلّا سلكتَ في المعقولات المعارضةِ لخبرِ الرَّسولِ، ما سلكَت في تلك، وكانت السَّبيلُ واحدةً .

والطَّريقُ في رَدِّها واضحةٌ، وأنتَ مِن أنصارِ اللَّهِ ورسولِهِ، مُحامٍ عن أصلِ الرِّسالةِ، وعمَّا جاءَ به الرَّسولُ، جازمٌ له بعقلِكَ .

وهذا في غايَةِ الظّهورِ بحمدِ اللَّه .

الوجه السابع والعشرون :

وهو أنَّ اللَّهَ سبحانه اقتَضَت حكمَتهُ وعدلُهُ أن يُفسدَ على العَبدِ عقلَه **الذي خالفَ به رسلَهُ**، ولم يجعَلهُ[1] مُنقاداً لهم، مُسلِّماً لما جاءوا به، مُذْعِناً له، بحيث يكونُ مع الرَّسولِ كمملوكهِ المُنقادِ من جميعِ الوجوهِ للمالِك المتصرِّفِ فيه، ليسَ له معه تصرُّفٌ بوجهٍ منَ الوجوهِ .

---

(١) أي : عقلُه، بسبب شبهاته الواهية، واعتراضاتهِ السَّخيفة .

فأوَّلُ ما أفسدَ سبحانه عقل **شيخهِم القديمِ إبليسَ**، حيث لم ينقدْ به لأمره، وعارضَ النصَّ بالعقلِ، وذكرَ وجهَ المعارضَةِ، فأفسدَ عليه عقلَه غايةَ الإفسادِ، حتى آلَ الأمرُ إلى أن صارَ إمامَ المبطلين، وقُدوةَ الملحدين، وشيخَ الكفَّار والمنافقين .

ثمَّ تأمَّل كيفَ أفسدَ عقولَ مَن أعرضَ عن رسلهِ، وعارضَ ما أُرسَلوا به، فآلَ بهم فسادُ تلك العقولِ إلى ما قصَّهُ اللَّهُ عنهم في كتابه .

ومِن فسادِ تلك العقولِ أنَّهم لم يَرضُوا بنبيٍّ من النَّبيِّين، ورضُوا بإلهٍ منَ الحجرِ .

ومِن فسادِ تلك العقولِ أنَّهم استحبُّوا العمى على الهدى، وآثَروا عقوبةَ الدُّنيا والآخرةِ على سعادتهما، وبدَّلوا نعمَةَ اللَّهِ كفراً، وأحلُّوا قومهم دارَ البوارِ .

وأفسدَ عقولَ أهلِ الكتابَيْنِ بكفرهم بالرَّسولِ، حتى آلَ أمرهُم إلى مقالاتِ الفلاسفَةِ، التي قَدَّموها على ما جاءَت به الرُّسل، حتى قالوا ما أضحَكوا به كافَّةَ العقلاءِ !

وأمَّا متكِّلمو الجهميَّة، والمعتزلة، فأفسدَ عقولَهم عليهم، حتى قالوا ما يسخَرُ العقلاءُ من قائلِه، كما تقدَّم التَّنبيهُ على اليسيرِ منه !

وكلَّما كانَ الرجلُ عن الرَّسولِ أبعدَ كانَ عقلهُ أقلَّ وأفسدَ، فأكملُ النَّاسِ عقولاً أتباعُ الرُّسل، وأفسدُهم عقولاً المُعرِضُ عنهم، وعمَّا جاءوا

به .

ولهذا كانَ أهلُ السُّنَّةِ والحديثِ أعقلَ الأُمَّةِ، وهم في الطَّوائفِ كالصَّحابةِ في النَّاسِ .

وهذه القاعدةُ مُطَّرِدةٌ في كلِّ شيءٍ عُصِيَ الرَّبُّ - سبحانه - به، فإنَّهُ يُفسِدُهُ على صاحبِهِ : فمَن عصاهُ بمالِهِ أفسَدهُ عليه، ومَن عصاهُ بجاهِهِ أفسَدهُ عليه، ومَن عصاهُ بلسانِهِ أو قلبِهِ أو عضوٍ من أعضائِهِ أفسدَهُ عليه، وإن لم يشعر بفسادِهِ .

فأيُّ فسادٍ أعظمُ من فسادِ قلبٍ خَرِبٍ من محبَّةِ اللَّهِ، وخوفِهِ، ورجائِهِ، والتَّوكُّلِ عليه، والإنابةِ إليه، والطمأنينةِ بذكرِهِ، والأُنسِ به، والفرحِ بالإقبالِ عليه ؟!

وهل هذا القلبُ إلّا قلبٌ قد استحكمَ فسادُهُ، والمصابُ لا يشعرُ !!

وأيُّ فسادٍ أعظمُ من فسادِ لسانٍ تعطَّل عن ذكرِهِ، وما جاءَ به، وتلاوةِ كلامه، ونصيحةِ عبادِهِ، وإرشادهم، ودعوتهم إلى اللَّه ؟!

وأيُّ فسادٍ أعظمُ مِن فسادِ جوارحَ عُطِّلَت عن عبوديَّةِ فاطِرها وخالقها وخدمتِه، والمبادرةِ إلى مرضاتِه ؟!

وبالجملةِ؛ فما عُصيَ اللَّهُ بشيٍ إلّا أفسَدهُ على صاحبِهِ .

ومِن أعظمِ معصيةِ العقلِ إعراضهُ عن كتابِهِ ووحيِهِ الذي هدى بِهِ رسولَه وأتباعَه، والمعارضةُ بينَهُ وبينَ كلامِ غيرِهِ .

فأيُّ فسادٍ أعظمُ مِن فسادِ هذا العقلِ !

وقد أرى اللَّهُ سبحانه أتباعَ رسولِهِ من فسادِ عقلِ هؤلاءِ ما هو من أقوى أسبابِ زيادةِ إيمانهم بالرَّسولِ، وبما جاءَ به، وموجباً لشدَّةِ تمسُّكهم به .

الوجه الثامن والعشرون :

هذه القاعدةُ[1] التي أسَّسها مَن عارضَ بينَ العقلِ والنَّقلِ [تقتضي] أن لا ينتفِعَ بخبرِ الأنبياءِ في بابِ الصِّفاتِ والأفعالِ أحدٌ منَ **الخاصَّةِ والعامَّةِ** :

أمَّا الخاصَّةُ : فهم مُصرِّحونَ بأنَّ علمَ ذلك ومعرفتَه، موكولٌ إلى العقولِ؛ فما دلَّت عليه وشهدت به قُبِلَ، وما خالَفها منَ السَّمعِ وجَبَ رَدُّهُ !

فلم يستفيدوا مِن جهَةِ الخبرِ شيئاً، وإنَّما استفادوا الحقَّ من جهةِ العقلِ المعارضِ لما أخبرَت به الرُّسلُ .

وأمَّا العامَّةُ : فإنَّهم اعتَقدوا ما دلَّ عليه الخبرُ، وهو باطلٌ في نفسِ الأمرِ، فلم يستفيدوا منه معرفَةَ الحقِّ، بل إنَّما حصَّلوا على اعتقادِ الباطلِ .

فأيُّ معاداةٍ لما جاءَ به الرَّسولُ أعظمُ مِن هذه ؟!

الوجه التاسع والعشرون :

أنَّهُ إذا جُوِّزَ أنْ يكونَ في العقلِ ما يُعارِضُ ما أخبرَ به الرَّسولُ، كان الإيمانُ الجازمُ موقوفاً على العلمِ بانتِفاءِ ذلك المعارضِ، ومشروطاً به،

(١) يُريد (القانون الكُلِّيّ) الذي أضحى قاعاً صَفصفاً (!!) بعد هذه الحُجج المنهمرةِ فوق

والمشروطُ بالشيء يُعدَمُ عندَ عدمه .

ومعلومٌ أنَّ ما يستخرجهُ النَّاسُ بعقولهم أمرٌ لا غايَةَ له، سواءُ كانَ حقّاً أو باطلاً .

فإذا جوَّزَ المجوِّزُ أنْ يكونَ في المعقولاتِ ما يناقِضُ خبرَ الرَّسولِ، لم يُمكنهُ أن يثِقَ بشيءٍ من أخبارِ الرَّسولِ؛ لجوازِ أنْ يكونَ في المعقولاتِ التي لم تظهَر له بَعدُ ما يناقِضُ خبرَهُ !

فإن قالَ : أنا أُقِرُّ مِنَ السَّمعيَّات بما لم ينفهِ العقلُ، وأُثبِتُ منَ الصِّفاتِ ما لم يخالفهُ العقلُ ! لم يكن لقوله ضابطٌ، فإنَّهُ وقفَ التَّصديقَ بالسَّمعِ على أمرٍ لا ضابطَ له، **وما كانَ مشروطاً بعدمِ أمرٍ لا ينضبطُ ! لم ينضبطْ؛ فلا يبقى مع هذا الأصلِ إيمانٌ جازمٌ البتَّة .**

ولهذا تجدُ مَن تَعوَّدَ معارضَةَ الشَّرعِ بالرَّأي، لا يستقرُّ في قلبهِ إيمانٌ أبداً .

ولا يكونُ الرَّجلُ مؤمناً حتى يؤمنَ بالرَّسولِ إيماناً جازماً، ليسَ مشروطاً بعدمِ معارضٍ، فإذا قالَ : أنا أؤمِنُ بخبرهِ ما لم يظهَر له معارضٌ يَدفعهُ ! لم يكن مؤمناً به، كما لو قال : أنا أشهَدُ أن لا إلهَ إلّا اللَّه، إلّا أن يكونَ في العقلِ دليلٌ يدلُّ على إثباتِ إلهٍ آخرَ ! أو يقولُ : أنا أؤمنُ بالمعادِ، إلّا أن يكونَ في العقلِ دليلٌ ينفيه ! أو يقولُ : أنا أؤمنُ بالرَّسول، إلّا أنْ يكونَ في العقلِ ما يُبطلُ رسالتَهُ !

فهذا وأمثالهُ ليسَ بمؤمنٍ جازمٍ بإيمانهِ، وأحسنُ أحوالهِ أنْ يكونَ شاكّاً[1] .

الـوجـه الـثـلاثـون :

أنَّ السَّمعَ الذي دلَّ العقلُ على صحَّته **أصحُّ**[2] منَ السَّمعِ الذي لم يشهَد له عقلٌ، ولهذا كانَ الخبرُ المتواترُ أعرفَ عندَ العقلِ منَ الآحادِ، وما ذاكَ إلّا لأنَّ دلالةَ العقلِ قد قامَت على أنَّ المخبرين لا يتواطؤنَ على الكذبِ، وإنْ كانَ الذي أخبروا به مخالفاً لما اعتادَهُ المخبرُ وألِفَهُ وعرفَهُ، فلا تجدُ مَحِيداً عن تصديقهم .

فالأدلَّةُ العقليَّةُ البرهانيَّةُ على صدقِ الرُّسلِ وتثبيتِ نبوَّتهم أضعافُ الأدلَّةِ الدَّالَّةِ على صدقِ المخبرين خبرَ التواترِ؛ فإنَّ أولئكَ لم يقُم على صدقِ كلِّ واحدٍ منهم دليلٌ، وإنَّما أفادَ اجتماعُهم على الخبرِ دليلاً على صدقهم، والرسلُ - صلاة اللَّه وسلامهُ عليهم - قد قامَت البراهينُ اليقينيَّةُ على صدقِ كلِّ فردٍ منهم، وقد اتفقَت كلمتُهم وتواطأَ خبرُهم على إثباتِ العلوِّ والفوقيَّةِ للَّه، وأنَّهُ على عرشهِ فوقَ سماواتهِ، بائنٌ مِن خلقِه، وأنَّهُ مُكلِّمٌ مُتكلِّمٌ آمرٌ ناهٍ، يرضى ويغضَبُ، ويثيبُ ويعاقِبُ، ويحبُّ ويبغضُ؛ على ما يليقُ بجلالِه .

---

(١) فيُخشى على هؤلاء - عياذاً - أن لا يكونوا مُؤمنين البتَّة، لأنَّ صفةَ المؤمنين حقّاً أنَّهم ﴿ الَّذينَ آمَنوا باللَّهِ ورسولهِ **ثمَّ لم يَرْتابُوا** ... ﴾ !

فعودوا ... وتوبوا ... واعرفوا - أيُّها العقلانيُّون - حقَّ الوحيِ والرسالةِ .

(٢) فالتفاوتُ إنَّما هو حاصلٌ في دَرَجةِ الصِّحَّةِ، لا في أصلِ الثبوتِ .

فإفادَةُ خبرهم العلمَ لِمُخبرِهِ، أعظمُ من إفادَةِ الأخبارِ المتواترةِ لمخبرها، فإنَّ الأخبارَ المتواترةَ مستندةٌ إلى حسٍّ قَد يغلطُ، وأخبارُ الأنبياءِ مستندةٌ إلى وحيٍ لا يغلطُ، فالقدحُ فيها بالعقلِ من جنسِ شُبهِ السُّوفِسْطائيةِ القادحةِ في الحسِّ والعقلِ .

ولو التفتنا إلى كلِّ شبهةٍ يُعارَضُ بها الدَّليلُ القطعيُّ، لم يبقَ لنا وثوقٌ بشيءٍ نعلمهُ بحسٍّ أو عقلٍ أو بهما .

الوجه الحادي والثلاثون :

إنَّ المعلوماتِ الغائبةَ التي لا تُدرَك إلّا بالخبرِ، أضعافُ أضعافِ المعلوماتِ التي تُدرَكُ بالحسِّ والعقلِ، بل لا نسبةَ بينهما بوجهٍ منَ الوجوهِ .

ولهذا كانَ إدراكُ السَّمعِ أعمَّ وأشملَ مِن إدراكِ البصرِ، فإنَّهُ يُدرِكُ الأمورَ المعدومةَ والموجودةَ، والحاضرةَ، والغائبةَ، والعلومَ التي لا تُدرَكُ بالحسِّ .

وهذه حُجَّةُ مَن فضَّلَ السَّمعَ على البَصرِ مِن النُّظّارِ وغيرهم .

وخالَفَهُم آخرون؛ فرجَّحوا البصرَ على السَّمع؛ لقوَّةِ إدراكهِ وجزمهِ بما يُدركه وبُعدِه منَ الغلطِ .

وبينَ الفريقينِ مُباحثاتٌ يطولُ ذكرها .

وفصلُ النِّزاعِ بينهما أنَّ ما يُدْرَكُ بالسَّمعِ أعمُّ وأشملُ، وما يُدْرَكُ بالبصرِ أتمُّ وأكملُ، فهذا له القوَّةُ والتَّمامُ، وذاك له العمومُ والإحاطةُ .

والمقصودُ أنَّ الأمورَ الغائبَةَ عنِ الحسِّ نسبةُ المحسوسِ إليها كقَطرٍ في بحرٍ، ولا سبيلَ إلى العلمِ بها إلّا بخبرِ الصَّادقِ، وقد اصطفى اللَّهُ من خلقِهِ أنبياءَ نبّأهم من هذا الغيبِ بما يشاءُ، وَأَطلَعَهُم منه على ما لم يُطلِع عليه غيرَهم، كما قال تعالى : ﴿ ما كانَ اللَّهُ لِيَذَرَ المُؤمنينَ عَلى ما أنتُم عَلَيهِ حتَّى يَميزَ الخَبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَما كانَ اللَّهُ ليُطلِعَكُم على الغيبِ ولكنَّ اللَّهَ يجتَبي مِن رسلِهِ مَن يشاءُ ﴾ .

فهو سبحانه يَصْطَفي مَن يُطلِعهُ مِن أنباءِ الغيبِ على ما لم يُطلِع عليه غيرَه، ولذلك سُمِّي نبيّاً؛ منَ الإنباءِ - وهو الإخبارُ -؛ لأَنَّهُ مُخبَرٌ من جهةِ اللَّهِ، ومُخبِرٌ عنه، فهو مُنبَأٌ ومُنْبِىءٌ .

وليسَ كلُّ ما أخبرَ به الأنبياءُ يُمكنُ معرفتهُ بدونِ خبرِهِم، بل ولا أكثرهُ، ولهذا كانَ أكمَلُ الأُممِ علماً أتباعَ الرُسلِ، وإنْ كانَ غَيرُهم أحذَقَ منهم في علمِ الرَّملِ والنُّجومِ والهندسةِ والسفسطةِ .. ونحوها من العلومِ، التي لما جاءتهم رسلُهم بالبيِّناتِ، فرحُوا [بما عندهم[1] مِن العلم] بها، وآثَروها على علومِ الرسلِ وما جاءوا به، وهي كما قال الواقفُ على نهاياتها، الواصلُ إلى غاياتِها : « **وهي بينَ ظنونٍ كاذبةٍ، - وإنَّ بعضَ الظنِّ إثمٌ - وبينَ علومٍ غير نافعةٍ، نعوذُ باللَّهِ من علمٍ لا ينفعُ، وإنْ نفعَت فنفعُها بالنسبةِ إلى علومِ الأنبياءِ، كنفعِ العيشِ العاجلِ بالنسبةِ إلى الآخرةِ ودوامِها** » .

---

(١) ما بين المعكوفين ساقط من مطبوعة « الصواعق » (٨٧٥/٣)، واستدركته من « مختصره » (١٤٨/١) .

فليسَ العلمُ في الحقيقةِ، إلّا ما أخبرَت به الرُسُلُ عن اللَّه عزَّ وجلَّ طلباً وخبراً، فهو العلمُ المُزكّي للنّفوسِ، المُكمّلِ للفِطَرِ، المُصحِّح للعقولِ، الذي خصَّهُ اللَّهُ باسم العلمِ، وسمَّى ما عارضهُ ظنّاً لا يُغني منَ الحقِّ شيئاً، وخِرصاً وكذباً، فقال تعالى : ﴿ فَمَن حَاجَّكَ فيهِ مِن بَعدِ ما جاءَكَ مِنَ العِلمِ .. ﴾ .

وشهِدَ لأهلِه أنَّهم أُولو العلمِ، فقال تعالى :

﴿ وَقالَ الَّذينَ أُوتُوا العِلمَ والإيمانَ لَقَد لَبِثتُم في كِتابِ اللَّهِ إلى يومِ البَعثِ ﴾ .

وقال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إلهَ إلّا هُوَ والمَلائِكَةُ وَأُولوا العِلمِ ﴾ .

والمرادُ : أُولو العلمِ بما أنزلَهُ على رسلِه ليسَ إلّا، وليسَ المرادُ أُولي العلمِ بالمنطقِ والفلسفةِ وفروعهما !

وقال تعالى : ﴿ وَلا تَعجَل بِالقُرآنِ مِن قَبلِ أنْ يُقضى إِلَيكَ وَحيُهُ وَقُل رَبِّ زِدني عِلماً ﴾ .

فالعلمُ الذي أمرَهُ باستزادته هو علمُ الوحي، لا علمُ الكلامِ والفلسفةِ والمنطقِ .

وقال – سبحانه – لمن أنكرَ المعادَ بعقلِهِ :

﴿ وَقالُوا ما هيَ إلّا حياتُنا الدُّنيا نَموتُ ونَحيا وَما يُهلِكُنا إلّا الدَّهرُ وَما لهُم بِذلكَ مِن علمٍ إنْ هُم إلّا يَظُنُّونَ ﴾ .

والظَّنُّ الذي أثبتَهُ سبحانه للمعارضينَ بنصوصِ الوحيِ بعقولهم، ليسَ هو الاعتقادَ الرَّاجحَ، بل هو أكذبُ الحديثِ[1].

وقال عزَّ وجلّ :

﴿ قُتِلَ الخَرَّاصُونَ ○ الَّذينَ هُم في غَمرَةٍ سَاهُونَ ﴾ .

وأنتَ إذا تأمَّلتَ ما عندَ هؤلاءِ المعارضينَ لنصوصِ الأنبياءِ بعقولهم؛ رأيتَه كلَّهُ خَرْصاً، وعلمتَ أنَّهم هم الخرَّاصون .

وإنَّ العلمَ في الحقيقةِ، ما نزلَ به الوحيُ على الأنبياء والمرسلين، وهو الذي أقامَ اللَّهُ به حجَّته، وهدى به أنبياءَه ورُسُلَه وأتباعَهم به، وامتنَّ عليهم فقال :

﴿ كَما أَرْسَلنا فِيكُم رَسولاً مِنكُم يَتلُوا عَلَيكُم ءَاياتِنا ويُزَكِّيكُم وَيُعَلِّمُكُم الكِتابَ والحِكمَةَ ويُعلِّمُكُم ما لَم تَكُونوا تَعلَمونَ ○ فاذْكُروني أذكُرْكُم واشكُروا لي وَلا تَكفُرونِ ﴾ .

وقال : ﴿ وأنزَلَ اللَّهُ عَلَيكَ الكِتابَ والحِكمَةَ وعَلَّمَكَ مَا لَم تَكُن تَعلَمُ وكانَ فَضلُ اللَّهِ عَلَيكَ عَظِيماً ﴾ .

وقال :

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ على المؤمنينَ إذْ بَعَثَ فيهِم رَسولاً مِن أنفُسِهِم يَتلوا

---

(١) روى البخاري (٩/١٧١)، ومسلم (٢٥٦٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال : « إيَّاكم والظَّنَّ، فإنَّ الظَّنَّ أكذبُ الحديث » .

عَلَيهِم ءَاياتِهِ وَيُزَكِّيهِم وَيُعَلِّمُهُم الكِتابَ والحِكمَةَ وإنْ كانوا مِن قَبلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ ﴾ .

فهذه النِّعمةُ والمِنَّةُ والتَّزكيَةُ، إنَّما هي لمَن عرفَ أنَّ ما جاءَ به الرَّسولُ وأخبرَ عنِ اللَّه وصفاتِه وأفعالِه، هو الحقُّ كما أخبرَ به، لا كَمَن زعمَ أنَّ ذلك مخالفٌ لصريحِ العَقلِ وأنَّ العقولَ مقدَّمةٌ عليه .

واللَّه المستعان .

الوجه الثاني والثلاثون :

أنَّ علومَ الأنبياءِ وما جاءوا به عنِ اللَّهِ، لا يمكنُ أنْ يُدرَكَ بالعقلِ ولا يكتَسبَ، وإنَّما هو وحيٌ أوحاهُ اللَّهُ إليهم بواسطةِ المَلَكِ، أو كلامٌ يكلّم به رسولَه منه إليه، بغيرِ واسطةٍ كما كلَّم موسى .

وهذا مُتَّفقٌ عليه بينَ جميعِ أهلِ المِلَل المُقِرّين بالنّبوّةِ، المصدّقين بالرّسلِ، وإنَّما خالفَهُم في ذلك جهلةُ الفلاسفةِ وسِفْلَتُهُم، الذينَ يقولونَ : إنَّ الأنبياءَ يعلمونَ ما يعلمونَهُ بقوَّةٍ عقليَّةٍ ! وهم أكملُ من غيرِهِم في قوَّةِ الحِدْس ! ويُسمُّونها القوَّةَ القُدسيَّة !

فهذه عندَهم خواصُّ النّبوَّةِ، فالأنبياءُ عندهم من جنسِ غيرهم مِنَ البَشرِ، ونبوَّاتُهم من جنسِ صنائعِ النَّاسِ وسياساتِهم ورياضاتِهم !

حتى قالَ أقربُ هؤلاءِ إلى الإسلام : اِعلَمْ أنَّ أصولَ الصّناعاتِ أربَعةٌ : صنعَةُ التِّجارَةِ والحدادةِ والنّساجةِ والسّياسةِ، وأصعبُها صنعةُ السّياسةِ،

وأصعبُ هذه الصِّناعةِ صناعةُ النبوَّة ! هذا كلامهُ بعَينهِ في كتابهِ .

فلما كانت النّبوَّةُ عندهم في هذه المرتبةِ، كانَت علومُها وأعمالُها من جنسِ علومِ البشرِ وأعمالهم، فالعقلُ مشتركٌ بينهم وبينَ كافَّةِ العقلاءِ، فلمَّا جاءَت الرسُل بما لا تُدرِكُهُ عقولُهم - وليسَ في قواعِدِهم ونَظَرِهم ومَنطِقِهم ما يَدُلُّ عليه - قابَلوهُ بالإنكار، وقالوا : قَد تعارَضَ العقلُ وما جئتُم به، وإذا تعارَضَ العقلُ وخبرُكم، فلا سبيلَ إلى تقديمِ أخباركم على العقلِ، لأنَّ ذلكَ يتضمَّنُ القدحَ فيه !

فهؤلاءِ هم الذين عارَضوا أولاً بينَ العقلِ والوحيِ، وهم الذين أسَّسوا هذه القاعدةَ ووضعوا هذا البناءَ، إذ كانَت علومُ الأنبياءِ وعقولُهم عندهم من جنسِ علومهم وعقولهم، وربَّما رجَّحوا علمَ الفيلسوفِ وعقلَه ! وبعضهم يُرَجِّحُ النَّبيَّ من وجهٍ والفيلسوف من وجهٍ !

فهؤلاءِ إذا عارَضوا بينَ العقلِ والنَّقلِ ثمَّ قدَّموا العقلَ على النَّقلِ، عملوا بمقتضى أصولهم وقواعدهم، أمَّا من عرفَ الرُّسُلَ وأَمْرَهم، وعلمَ أنَّ اللَّهَ أرسلَهم وأوحى إليهم من غَيبِهِ ما لم يُطلِع عليه سواهم، **وأنَّ نسبةَ عقولِ العالَمينَ وعلومِهم إليهم، أقلُّ بكثيرٍ من نسبَةِ عقولِ صبيانِ المكاتبِ إلى عقولِ العقلاءِ،** وأنَّ بينَ ما جاءوا به من عندِ اللَّه وبينَ ما عندَ هؤلاءِ، كما يُدْخِلُ الرجلُ أصبَعَهُ في اليمِّ، والأمرُ فوقَ ذلك .

الوجه الثالث والثلاثون :

وهو أنْ يُقالَ لهؤلاءِ المُعارضينَ بينَ العقلِ ونصوصِ الوحي :

أخبِرونا عن خَلقِ هذا النَّوعِ الإنسانيِّ من قبضَةِ ترابٍ !

وعن رجلٍ دعا على قومِهِ أنْ لا يَدعَ اللَّهُ منهم على الأرضِ ديَّاراً، فأرسلَ السَّماءَ عليهم، وأنبعَ الماءَ من تحتهم، حتى علا الماءُ فوقَ رؤوسِ شواهقِ الجبالِ علوّاً عظيماً، ثمَّ ابتلعَتهُ الأرضُ شيئاً فشيئاً حتى عادَت يَبَساً !

وعن رجلٍ دعا على قومِهِ - وهم أعظمُ النَّاسِ أجساماً وأشدُّهُم قوَّةً - فأُرسلت عليهم بدعوتِه ريحٌ عاصفٌ جعَلَت تحملهُم بينَ السَّماءِ والأرضِ، ثمَّ تدقُّ أعناقهم !

وعن نارٍ عظيمةٍ أُوقدَت بُرهَةً منَ الدَّهرِ، حتى كانَ الطَّيرُ يمرُّ عليها من عالٍ، فيقعُ مشويّاً، أُلقيَ فيها رجلٌ مكتوفاً، فصارَت عليه بَرداً وسلاماً، وعادَت روضةً خَضِراً وماءَ جارياً !

وعن رجلٍ ألقى عصا في يدِهِ، فعادَت ثُعباناً عظيماً ابتلعَ ما بحضرتِهِ من حِبالٍ وعصيٍّ لا يُحصيها إلّا اللَّه، ثمَّ عادَت عصا كما كانت !

وعن رسولٍ سألهُ قومُه آيةً، فأومأَ إلى القمرِ فانشقَّ فَلْقَتَيْنِ وهم يشاهدونهما، ثمَّ عادَ فالتأَمَ وقدِمَ السفرُ، فأُخبروا برؤيةِ ذلك عياناً !

... إلى أضعافِ أضعافِ ما ذكرنا، ممّا يشاهدُه النَّاسُ بأبصارهم عياناً .

فهل مُخالفةُ الأدلَّةِ القطعيَّةِ لما أخبرَت به الأنبياءُ عن اللَّهِ، أعظمُ مِن مخالفتِها لهذه الأمور ؟!

والشُّبَهُ العقليَّةُ التي تُذْكَرُ على استحالةِ هذه الأمور أكثرُ وأقوى مِنَ

الشُّبَهِ التي يذكرونَها في معارضَةِ نصوصِ الوحي، بل لا نسبةَ بينهما، فإذا تعارَضَت أدلَّةُ العقولِ - بزعمكم - وهذه الأمورَ، ماذا تصنعون ؟

أتقدِّمونها على أدلَّةِ العقولِ، فتدخلونَ في المؤمنينَ باللَّهِ ورسلهِ ؟

أم تُكذِّبونَ بذلك، وتقولون: العقلُ يُناقضُ ذلك ويُبطِلهُ ؟

ومعارضةُ العقلِ عندكم لهذه الآياتِ من جنسِ معارضتهِ لخبرِ الأنبياء، لا فرقَ بينهما البتَّةَ، بل الشُّبَهُ التي يُقيمُها أعداءُ الرُّسلِ مِنَ العقلِ على بطلانِ هذه الآياتِ، أقوى مِنَ الشُّبَهِ التي ذكرها الجهميَّةُ والنُّفاةُ على بطلانِ ما أخبرَت به الرُّسلُ، من صفاتِ اللَّهِ وعلوِّه على خلقهِ، واستوائهِ على عرشهِ، وكلامهِ وتكليمهِ، وقيامِ أفعالهِ به .

فَعُلِمَ أنَّ مَن قَدَّمَ ما يظنُّهُ مِنَ العقلِ على نصوصِ الوحي، لم يبقَ معه مِنَ الإيمانِ بالرُّسلِ عينٌ ولا أثرٌ، ولا حِسٌّ ولا خبرٌ .

وإذا كانَ هذا حالَهُم في الأمورِ التي قد وقعَت وشاهدها النَّاسُ بأبصارهم، فكيفَ حالُهم في الإيمان بأنَّ الشَّمسَ تطلعُ مِنْ مغرِبها، والنَّاسُ يَرونَها عياناً ؟

وكيفَ بحالهم مع ما أخبرَ به الصَّادقُ، ﷺ مِن ظهور دابّةٍ تنشقُّ عنها الأرضُ فتخرجُ تُكلِّمُ النَّاسَ وتُخاطبهم ؟

... إلى غيرِ ذلكَ ممَّا يُقيمونَ بعقولهم شُبَهاً **يسمُّونها أدلةً عقليَّةً** تُحيلُ ذلك .

فَمَن قدَّمَ العقلَ على الوحي، لم يُمكنهُ أن يجزمَ بصدقِ شيءٍ من ذلك .

واللَّه المستعانُ .

الـوجـه الـرابـع والـثـلاثـون :

أنَّ هؤلاءِ عكسوا شِرعَةَ اللَّهِ وحكمتَه، وضادُّوهُ في أمرهِ؛ فإنَّ اللَّهَ سبحانه جعلَ الوحيَ إماماً والعقلَ مُؤتَـمّاً به، وجعلهُ حاكماً والعقلَ محكوماً عليه، ورسولاً والعقلَ مُرسَلاً إليه، وميزاناً والعقلَ موزوناً به، وقائداً والعقلَ مُنقاداً له :

فصاحبُ الوحي مبعوثٌ، وصاحبُ العقلِ مبعوثٌ إليه، والآتي بالشَّرعِ مخصوصٌ بوحيٍ منَ اللَّهِ، وصاحبُ العقلِ مخصوصٌ يبحثُ عن رأيٍ وفكرةٍ !!

هذا يقولُ : أُمرتُ، ونُهيتُ، وأُوحيَ إليَّ، وقيلَ لي، وما أقولُ شيئاً مِن تلقاء نفسي؛ ولا مِن قِبَلِ عقلي، ولا مِن جهةِ فكري ونظري، **وذاكَ المتخلِّفُ** يقولُ : نظرتُ، ورأيتُ، وفكَّرتُ، وقدَّرتُ، واستحسنتُ، واستنتجتُ !

المتخلِّفُ يقولُ : معي آلةُ المنطقِ والكلياتُ الخمسِ والمقولاتُ العشرُ والمختلطاتُ والموجهاتُ(١) أهتَدي بها ! والرَّسولُ يقولُ : معي كتابُ اللَّهِ

(١) اصطلاحات منطقيةٌ فلسفيةٌ باردةٌ !

وكلامُهُ ووحيُهُ .

والمتخلِّفُ يقولُ : معي العقلُ ! والرَّسولُ يقول : معي نورُ خالقِ العقلِ به أهدي وأهتَدي .

والرَّسولُ يقول : قال اللَّهُ كذا، قال جبريلُ عن اللَّهِ كذا، **والمتخلِّفُ** يقول : قال أفلاطونُ، قال بقراطُ، قال أرسطو كذا، قال ابنُ سينا !!

فيُسمَعُ منَ الرَّسولِ ظاهرُ التَّنزيلِ وصحيحُ التأويلِ وشرعُ سنَّةٍ، وأمرٌ بمعروفٍ ونهيٌ عن منكرٍ، وخبرٌ عن اللَّهِ وأسمائهِ وصفاتِه وأفعالِه، وخبرٌ عن السَّماءِ والملائكةِ اليومِ الآخرِ .

ويُسمَعُ منَ الآخرِ الهُيولى والصُّورةُ والطَّبيعةُ والعَرَضُ والجنسُ والنَّوعُ والفَصلُ والخاصَّةُ والأيسُ والليسُ، وعكسُ النَّقيضِ والعكسُ المستوي[1] !!

... وما شاكَلَ هذا ممَّا لا يُسمعُ من مسلمٍ ولا يهوديٍّ ولا نصرانيٍّ ولا مجوسيٍّ، إلّا مَن رَضيَ لنفسهِ بما يرضى به هؤلاءِ **المتخلِّفونَ** لأنفسهم، ورغبَ فيما رغبُوا فيه .

وبالجملةِ، فهما طريقان مُتباينانِ، **فمَن أرادَ أنْ يتمعقَل بعقولِ هؤلاءِ، فلْيَعزِلْ نظرَهُ عن الوحيِ ويخلّي بينَه وبينَ أهلهِ**، ومَنْ أحبَّ أنْ يكونَ مِن أهلِ العقلِ والوَحيِ فَلْيَعتَصِم بالوحيِ ويستمسِك بِغَرْزِ مَن جاءَ به، ويُسَلِّم إليه أعظمَ مِن تسليمِ الصَّبيِّ لأستاذهِ ومعلِّمه بكثيرٍ، فإنَّ التَّبايُنَ الذي بينَ

(١) اصطلاحاتٌ - كسابقاتِها - منطقيةٌ فلسفيةٌ باردةٌ !

النَّبيِّ وبينَ صاحبِ المعقولِ أضعافُ أضعافِ التَّباين الذي بينَ الصَّبيِّ والأستاذِ .

ومنَ العجبِ، أنَّ هؤلاءِ المُقَدِّمين عقولَهم على الوحي، خاضعون لأئمَّتهم وسَلَفِهم، مُستسلِمونَ لهم في أمورٍ كثيرةٍ !! يقولونَ : هم أعلمُ بها منَّا، وعقولُهم أكملُ من عقولنا، فليسَ لنا أن نعترضَ عليهم !!!

فكيفَ يَعترضُ على الوحيِ بعقلِه مَن نسبَتـهُ إليه أدقُّ من نسبةِ عقلِ الطِّفلِ إلى عقلِهِ ؟

وجماعُ الأمرِ أنَّ قضايا المعقولِ مشتملةٌ على العلمِ والظَّنِّ والوَهَم، وقضايا الوحيِ كلُّها حقٌّ، فأينَ قضايا مأخوذةٌ عن عقلٍ قاصرٍ عاجزٍ عُرضَةٍ للخطإ، من قضايا مأخوذةٍ عن خالقِ العقولِ وواهِبها هي كلامُه وصفاتُه !؟

الوجه الخامس والثلاثون :

أنَّ العقلَ تحتَ حِجرِ الشَّرعِ فيما يطلبهُ ويأمرُ به، وفيما يحكُم به ويُخبرُ عنه، فهو محجورٌ عليه في الطَّلبِ والخبرِ .

وكما أنَّ مَن عارضَ أمرَ الرُّسل بعقلِه لم يُؤمِن بهم وبما جاءوا به، فكذلك مَن عارضَ خَبَرَهم بعقلِه !

ولا فرقَ بينَ الأمرين أصلاً .

يُوَضِّحُهُ أنَّ اللَّه سبحانه وتعالى حكى عن الكفَّارِ معارضةَ أمرهِ

بعقولهم، كما حكى عنهم مُعارضةَ خبرهِ بعقولهم :

أمَّا الأوَّل : ففي قوله تعالى :

﴿ الَّذينَ يأْكُلونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إلّا كَما يَقُومُ الَّذي يَتخبَّطُهُ الشَّيطَانُ مِنَ المَسِّ ذلكَ بأنَّهُم **قالُوا إنَّما البَيعُ مثلُ الرِّبَا** وأحَلَّ اللَّهُ البَيعَ وحرَّمَ الرِّبَا ﴾ .

فعارَضوا تحريمَهُ للرِّبا بعقولهم، التي سوَّت بين الرِّبا والبيع، فهذا معارضةُ النَّصِّ بالرَّأيِ .

وعارَضوا أمرَهُ بتحويلِ القِبلةِ بعقولهم، وقالوا : إنْ كانَت القِبلةُ الأُولى حقّاً فقد تركتَ الحقَّ، وإنْ كانت باطلاً فقد كنتَ على باطلٍ !

وإمامُ هؤلاءِ شيخُ الطَّريقةِ إبليسُ عدوُّ اللَّه، فإنَّهُ أوَّلُ مَن عارضَ أمرَ اللَّهِ بعقلِه[1]، وزعمَ أنَّ العقلَ يقتضي خلافَه .

وأمَّا الثَّاني : فهو معارضةُ خبرِه بالعقلِ، فكما حكى سبحانه عن مُنكري المَعادِ أنَّهم عارضوا ما أخبرَ به عنه بعقولهم، فقال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي العِظَامَ وهِيَ رَمِيمٌ ﴾ .

وأخبرَ سبحانهُ أنَّهم عارَضُوا ما أُخبرَ به منَ التَّوحيدِ **بعقولهم**، وعارَضوا أخبارَهُ عن النُّبوَّاتِ **بعقولهم**، وعارَضوا بعضَ الأمثالِ التي ضرَبها **بعقولهم**،

---

(١) فنخشى على مَن (ما يزالُ) مُسلماً مِن (العقلانيِّين) الجُدد، أن يُدعى يومَ القيامةِ (مأموماً) مَع قَبيلِ **إبليس**؛ لأنَّ اللَّهَ ربَّنا يقول : ﴿ يَومَ يُدعى كلُّ أُناسٍ بإمامهم ... ﴾ !! فالتَّوبةَ ... التَّوبةَ ... والرّجوعَ ... الرّجوع .

وعارَضوا أدلَّةَ نبوَّةِ رسولهِ **بمعارضةٍ عقليَّةٍ**، وهي قولُهم : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذا القُرآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ القَريَتَينِ عَظِيمٍ ﴾ .

وأنتَ إذا صُغتَ هذه المعارضَةَ صَوْغاً مُزَخرَفاً، وجدتَها من جنسِ معارضَةِ المعقولِ بالمنقولِ !

وعارضوا آياتِ نبوَّتهِ **بمعارضةٍ عقليَّةٍ** أخرى، وهي قولهم :

﴿ مَالِ هذا الرَّسولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ ويَمشِي في الأسواقِ لَولا أُنزِلَ إليهِ مَلَكٌ فَيَكونَ مَعَهُ نَذيراً ۝ أو يُلقَى إلَيهِ كَنزٌ أو تَكونُ لَهُ جنَّةٌ يأْكُلُ منها ﴾ .

أي : لو كان رسولاً لِخَالقِ السمواتِ والأرضِ، لَمَا أحوجَهُ أن يَمشي بينَنا في الأسواقِ في طلبِ المعيشَةِ، ولَأغناهُ عن أكلِ الطَّعامِ، ولأرسلَ معه ملكاً منَ الملائكَةِ، ولألقى إليه كنزاً يُغنيهِ عن طلبِ الكسبِ !!!

وبالجملةِ، فمعارضةُ أمرِ الرُّسلِ وخبرهم بالمعقولات، إنَّما هي طريقَةُ الكفَّارِ، فهم سَلَفٌ للخَلَفِ بعدهم، فبئسَ السَّلفُ وبئسَ الخَلَف .

ومَن تأمَّل معارضَةَ المشركين والكفَّار للرُّسل بالعقولِ، وجدها أقوى من معارضةِ الجهميَّةِ والنفاةِ لخبرهم عن اللَّه وصفاتهِ وعلوِّه على خلقهِ وتكليمهِ لملائكتهِ ورسلهِ بعقولهم، فإنْ كانَت تلكَ المعارضَةُ باطلةً فهذه أبطلُ، وإنْ صحَّت هذه المعارضَةُ فتلكَ أولى بالصحَّة منها !

وهذا لا محيدَ لهم عنه !

الوجه السادس والثلاثون :

أنَّهُ لو جازَ أن يكونَ في العقولِ ما يُناقِضُ خبرَ الرَّسولِ لم يُتصوَّر الإيمانُ به البتَّةَ؛ لوجهين :

أحدهما : أنَّهُ لا سبيلَ إلى العالِمِ بانتِفاءِ جميعِ المُعارضِ، وما عُلِّقَ على الممتنعِ فهو ممتنعٌ .

الثَّاني : أنَّ تصديقَهم والإيمانَ بهم يكونُ موقوفاً على الشَّرطِ، والإيمانُ لا يصحُّ تعليقهُ بالشَّرطِ، فلو قالَ : آمَنتُ بالرَّسولِ إنْ أذِنَ لي أبي، أو : إنْ أعطيتموني كذا، أو : إنْ جَعَلَ لي الأمرَ من بعدِه ... ونحوُ ذلك، لم يكن مؤمناً بالاتِّفاقِ !

وهكذا إذا قال : آمنتُ بما أخبرَ به إلّا أن يعارضَهُ دليلٌ عقليٌّ، وهذا - حقيقةً - قولُ هؤلاءِ، فإنَّ هذا لم يؤمن به باتِّفاق الأُمَّةِ، **وهذا كما أنَّهُ كفرٌ في الشَّرعِ، فهو فاسدٌ في العقلِ** .

فالواجبُ على الخلقِ الإيمانُ بالرَّسولِ إيماناً مطلقاً جازماً غيرَ مُعلَّقٍ على شرطٍ .

ومَن قال : أُصدِّق بما صدَّق عقلي، وأردُّ ما ردَّه عقلي، أو عقلُ مَن هو أعقلُ منّي أو مثلي ! **فهو كافرٌ باتِّفاقِ الأُمَّةِ فاسدُ العقلِ** .

الوجه السابع والثلاثون :

أنَّ هذه المُعارضَةَ ميراثٌ مِنَ الَّذينَ ذمَّهم اللَّهُ في كتابهِ بجدالهم في

آياتِه بغيرِ سلطانٍ وبغيرِ علمٍ، وأخبرَ أنَّ مصدرَ تلكَ المجادلةِ كِبرٌ واستكبارٌ عن قَبولِ الحقِّ ممَّن يرونَ أنَّهم أعلمُ منهم، كما قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَآءَتهُم رُسُلُهُم بِالبَيِّناتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِنَ العِلمِ ﴾ .

وهذا شأنُ النُّفوسِ الجاهلةِ الظَّالمةِ، إذا كان عندها شيءٌ من علمٍ قد تميَّزت به عمَّن هو أجهلُ منها، وحصلَ لها به نوعُ رياسةٍ ومالٌ، فإذا جاءَها مَن هو أعلمُ منها بحيثُ تُمحى رسومُ علومها ومعارفها في علمهِ ومعرفتهِ، عارَضَتْهُ بما عندها منَ العلمِ وطعَنَت فيما عندَهُ بأنواعِ المطاعنِ، قال تعالى : ﴿ كَذلكَ يُضِلُّ اللّهُ مَن هُوَ مُسرِفٌ مُرتابٌ ٭ الَّذينَ يُجَادِلونَ في آياتِ اللَّهِ بِغَيرِ سُلطَانٍ أَتاهُم كَبُرَ مَقتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذينَ آمَنُوا كَذلكَ يَطبَعُ اللَّهُ على كُلِّ قلبِ مُتكبِّرٍ جبَّارٍ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ الَّذينَ يُجَدِلونَ في آياتِ اللَّهِ بِغَيرِ سُلطَانٍ أَتاهُم إنْ في صُدُورِهِم إلّا كِبرٌ مَّا هُم بِبَالِغيهِ ﴾ .

والسلطانُ هو الكتابُ المُنَزَّلُ من السماءِ .

وهذا كثيرٌ في القرآنِ يذمُّ به سبحانه الذين عارَضوا كُتُبَه وَرُسُلَه بما عندهم منَ الرَّأيِ والمعقولِ والبدعِ والكلامِ الباطلِ .

فمَن عارضَ الوحيَ بآراءِ الرِّجالِ كان قولُه مشتقّاً من أقوالِ هؤلاءِ الضُّلّال، قال مالكٌ : أَوَكُلَّما جاءَنا رجلٌ أجدلُ مِن رجلٍ، تركنا ما جاءَ به جبريلُ إلى النَّبيِّ ﷺ لجدلهِ[1].

(١) انظر ما سبق (ص:١٢) .

ومَن وقفَ على أصولِ هؤلاءِ المعارضينَ ومصدرها تبيَّنَ له أنَّها نشأَت مِن أصلين :

مِن كِبرٍ عن اتِّباعِ الحقِّ .

وهوىً مُعْمٍ للبصيرةِ .

وصادَمَتهُ شُبُهاتٌ كالليلِ المظلمِ ! **فكيفَ لا يُعارِضُ مَن هذا وصفُه خبرَ الأنبياءِ بعقلِهِ وعقلِ مَن يُحَسِّنُ به الظَّنَّ ؟!**

ثم دخلت تلكَ الشبهاتُ في قلوبِ قومٍ لهم دينٌ وعندهم إيمانٌ وخيرٌ فعجزوا عن دفعها، فاتَّخذوها ديناً وظنُّوها تحقيقاً لما بعثَ اللَّهُ به رسوله، فحارَبوا عليها، واستحلُّوا ممَّن خالفهم فيها ما حرمهُ اللَّهُ ورسوله !

وهم بينَ جاهلٍ مقلِّدٍ، ومجتهدٍ مخطىءٍ حَسَنِ القصدِ، وظالمٍ معتدٍ متعصِّبٍ، **والقيامةُ موعدُ الجميعِ، والأمرُ يؤمئذٍ للَّهِ !!**

الوجه الثامن والثلاثون :

أن يقالَ : كلُّ ما عارضَ السَّمعَ منَ العقليَّاتِ ففسادُه معلومٌ بالعقلِ، وإنْ لم يعارضِ السَّمعَ، فلسنا مُتوقِّفينَ في إبطالهِ والعلمِ بفسادِه على كونهِ عارضَ السَّمعَ، بل هو باطلٌ في نفسهِ .

وفي مُعارضةِ السَّمعِ له دليلٌ سمعيٌّ على بطلانهِ؛ فقد اتَّفقَ على فسادِهِ وبطلانهِ دليلُ العقلِ والسَّمعِ، وما كانَ هكذا لم يصلح أنْ يُعارَضَ به عقلٌ ولا سمعٌ .

وتفصيلُ هذه الجملةِ، ببيانِ شُبهةِ المخالفينَ للسَّمعِ، وبيانِ فسادِها ومخالفتها لصريحِ العقلِ .

وهذا الأمرُ - بحمدِ اللَّه - لم يزل أنصارُ الرَّسولِ يقومونَ به ويتكفَّلونَ ببيانهِ، وهم فيه درجاتٌ عندَ اللَّهِ على منازلهم منَ العلمِ والإيمانِ والبيانِ .

ولا ترى مسألةً واحدةً عُورِضَ بها الرَّسولُ إلّا وقَد ردَّها أنصارهُ وحزبُه وبيَّنوا فسادَها وسخافَةَ عقلِ أربابها المعارضينَ بها في كلِّ نوعٍ من أنواعِ العلمِ .

وقد أجرى اللَّهُ سُنَّتَهُ وعادتَهُ، أن يكشفَ عن عورةِ المعارضِ ويَفضَحَهُ ويَخذُلَهُ في عقله، حتى يقولَ ما يَضحَكُ منه الإنسانُ، كما خذلَ المعارضَ بكلامهِ حتى أضحكَ عليه النَّاسَ فيما عارَضهُ به .

وهذا من تَمامِ أدلَّةِ النُّبوَّةِ وبراهينِ صحَّةِ الوحي : أنْ تجدَ المُعارضَ له يأتي بما يَضحَكُ منه العقلاء، فلعلَّ قائلاً يقولُ : ما جاءَت به الرسلُ قد يكونُ له معارضٌ صحيحٌ ! فإذا وقفَ على المُعارِضِ وسُخفهِ وتحقَّقَ بطلانَه، زادَهُ قوَّةً في إيمانهِ ويقينهِ، وصارَ ذلكَ بمثابةِ رجلٍ ادَّعى أنَّ معه طِيباً ليسَ مع أحدٍ مثلُه، ولا مثلُ ريحهِ ! فعارضهُ آخرُ بأنَّ معه مثلَهُ أو أفضلَ منه، فلمَّا أخرجهُ، إذ هو أنتَنُ شيءٍ وأخبثُهُ ريحاً، **ولكنْ هناك عقولٌ جُعَلِيّةٌ[1] نشأت في النَّتنِ والحُشوشِ فلا تألف غيرَ ما نشأت فيه !**

(١) هي دُوَيْبَّةٌ سوداءُ تَعيشُ على القاذورات !!

الوجه التاسع والثلاثون:

أنَّ المُعارضَةَ بين العَقلِ ونُصوصِ الوَحيِ، لا تتأتَّى على قواعدِ المسلمين المؤمنين بالنبوَّةِ حقّاً، ولا على أُصولِ أحدٍ من أهلِ المِلَل المُصدِّقين بحقيقةِ النّبوَّة .

وليست هذه المعارضةُ من الإيمان بالنبوَّة في شيءٍ، وإنَّما تتأتَّى هذه المُعارضَةُ مِمَّن يُقرُّ بالنّبوَّة عندهم، وهو الاعترافُ بموجودٍ حكيمٍ له طالِعٌ مخصوصٌ يَقتَضي طالِعُهُ أن يكونَ مَتبوعاً !! فإذا أخبرَهُم بما لا تُدركهُ عقولُهم عارَضُوا خَبَرَهُ بعقولهم، وقدّموها على خَبَرِهِ !

فهؤلاء هُم الذين عارَضُوا بين العقلِ ونصوصِ الأنبياءِ، فعارَضوا نصوصَ الأنبياءِ في بابِ الإيمانِ باللَّه، وملائكتِه، وكُتبِهِ، ورُسُلِه، واليومِ الآخرِ؛ في هذه الأُصول الخمسِ بعقولهم؛ فلم يُصدِّقوا بشيءٍ منها على طريقةِ الرُّسل .

ثمَّ سَرَتْ مُعارَضَتُهم في المنتسبين إلى الرُّسل، فتقاسَموها تقاسُمَ الوارثِ لِتَرِكَةِ مُورِّثهم، فكُلُّ طائفةٍ كان الوحيُ على خلافِ مذهبهم وقَولِ مَن قلَّدوه؛ لجأُوا إلى هذهِ المُعارضةِ، واعتَصموا بها دونَ نُصوصِ الوَحيِ !

ومَعلومٌ أنَّ هذا يُناقضُ الإيمانَ بالنبوَّة، وإنْ تناقَضَ القائلُ بهِ، فغايَتُهُ أنْ يُثبِتَ كونَ النبيِّ رسُولاً للعمليَّاتِ دون العِلميَّات، أو في بعضِ العِلميَّات التي أخبرَ بها دونَ البعضِ !

وهذا أسوأُ حالاً ممَّن جعلَهُ رسولاً إلى بعضِ النَّاسِ دونَ بعضٍ؛ فإنَّ القائلَ بهذا يجعلُه رسولاً في العِلميَّات والعَمَليّات، ولا يُعارضُ بينَ خَبرِه وبينَ العقلِ، وإنْ تناقضَ في جَحدِهِ عُمومَ رسالتهِ بالنِّسبةِ إلى كلِّ مُكلَّفٍ، فهذا جَحَدَ عُمومَ رسالتِه إلى المدعُوِّين، وذاك جَحَد عُمومَ رسالتهِ في المَدعُوِّ إليه المُخبَرِ به !

ولم يُؤمن في الحقيقةِ برسالتِه لا هذا ولا هذا :

فإنَّهُ يقال لهذا : إنْ كانَ رسولَ اللَّهِ إلى هؤلاءِ حقّاً فهو رسولُه إلى الآخَرين قطعاً؛ لأنَّه أخبرَ بذلك، ومن ضَرورةِ تَصديقهِ الإيمانُ بعمومِ رسالتِه .

ويُقالُ للآخرِ : إنْ كان رسولَ اللَّهِ في العَمَليّات وأنَّها حقٌّ من عندِ اللَّهِ؛ فهو رسولُه في العِلميَّات، فإنَّه أخبرَ عنه بهذا وهذا .

الـوجـه الأربـعـون :

أنَّ هؤلاء المُعارضين للوَحيِ بعُقولهم **ارتَكبُوا أربعَ عظائم** :

إحداها : رَدُّهم لِنُصوصِ الأنبياء - صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليهم - .

الثَّانية : إساءَةُ الظَّنِّ بالنَّقلِ، وجَعْلُهُ مُنافياً للعقلِ، ومُناقضاً له .

الثَّالثة : جِنايَتهُم على العقلِ بردِّهم ما يُوافق النُّصوصَ مِن المَعقول؛ فإنَّ موافَقَة العَقلِ للنُّصوصِ التي زَعَموا أنَّ العقلَ يردُّها أظهرُ للعقلِ من معارَضتهِ لها !

الرَّابعة : تَكفيرُهم - أو تبديعُهم وتضليلُهم - لمن خالَفَهُم في أُصولهم التي اختَرعوها، وأقوالِهم التي ابتدَعوها؛ مَع أنَّها مُخالفةٌ للعقلِ والنَّقلِ !

فصوَّبوا رَأيَ مَن تمسَّك بالقولِ المخالفِ للعقلِ والنَّقلِ، وخطَّأُوا مَن تمسَّك بما يُوافقُهما، **وراجَ ذلك على مَن لم يجعَلِ اللَّه له نوراً، ولم يُشرِق على قلبِه نورُ النبوَّةِ** .

الوجه الحادي والأربعون :

أنَّ مَن عارَضَ بين الوَحيِ والعقلِ فقد قال بتكافؤ الأدلَّة؛ لأنَّ العقلَ الصَّحيحَ لا يُكذِّب، والوحيُ أصدقُ منه، وهما دليلانِ صادِقان[1]، فإذا تعارَضا تكافآ؛ فإن لم يُقدِّم أحدَهما بقي في الحَيرةِ والشَّكِّ، وإن قَدَّمَ أحدَهما على الآخرِ أبطلَ مُوجِبَ الدَّليلِ الصَّحيح، وأخرَجَهُ عن كونه دليلاً؛ فيبقى حائراً بين أمرين لا بدَّ له مِن أحدِهما :

إمَّا أنَّ يُسيءَ الظَّنَّ بالوَحيِ، **أو** بالعقلِ، والعَقلُ عنده أصلُ الوَحي ! فلا يُمكنهُ أن يُسيءَ الظَّنَّ به، **فيَسطو على الوَحي**؛ تارةً بالتَّحريفِ، والتَّأويل، وتارةً بالتَّخييلِ، وتارةً بالدَّفعِ والتَّكذيبِ إن أمكنَ - **وذلك في نُصوصِ السُّنَّة** -، وتارةً يدّعي ذلك في نُصوصِ القُرآنِ، كما يدّعيه غُلاةُ الرَّافضة وكثيرٌ من القرامطَةِ، وأشباهُهم !

---

(١) عنده !!

وهذا كلُّه إنَّما نشأ من ظنونهم الفاسدة[1]، أنَّ العقلَ الصَّحيحَ يُعارضُ الوَحيَ الصَّريح !

وأمَّا أهلُ العلم والإيمان، أهلُ السَّمعِ والنَّقل؛ فَعِندَهم أنَّ فَرضَ هذه المسألةِ مُحالٌ، وأنَّ فَرضَها كَفرضِ مسألةِ : إذا تعارضَ العقلُ وأدلَّةَ ثبوتِ النبوَّةِ والرِّسالة ! وإذا تعارضَ العَقلُ وأدلَّةَ ثبوتِ الخالقِ وتوحيدِهِ !

والمعارضةُ بين العقلِ والوَحيِ كالمُعارضةِ بين العقلِ وإثباتِ الصَّانعِ وتوحيدِه ورسالةِ رُسلِهِ، ولهذا طرَّدُوا مَنعَ هذه القاعدةِ في الأُصلِ، وقالوا : البابُ كلُّه واحدٌ .

الوجه الثاني والأربعون :

إنَّ هؤلاءِ في مُعارضتِهِم للوحيِ سَلَكوا طريقاً سَحَروا بها عُقولَ ضُعفاءِ النَّاس وبصائرَهم، فشُبِّهَت عليهم، وخُيِّلَ إليهم أنَّها حقٌّ[2]؛ فأصابهم في ذلك مثلُ ما أصابَ السَّحرةَ حين عارَضوا عصى موسى، بما خُيِّلَ إلى أبصارِ النَّاظرين أنَّهُ حقٌّ !

فإنَّ هؤلاء عَمَدوا إلى ألفاظٍ مجملةٍ تحتَها معانٍ مُشتبهةٌ، تحتملُ في لُغاتِ الأُمم معانيَ متعدِّدةً، وأدخلوا فيها مِن المعاني غيرَ المفهوم منها في لُغاتِ

---

(١) وَهُم (!) يُسَمُّونَها قطعيّاتٍ ويقينيّاتٍ !!!

(٢) لذلك لا يتَّبعهم إلّا ضُعفاءُ العقول شفهاءُ الأحلام !! وهؤلاء (!) يحسبون أنفسهم أهلَ الثقافة وأصحابَ الفِكر !!

الأُمم، ثمَّ ركَّبوها وألَّفوها تأليفاً طويلاً بَنَوا بَعضَه على بعضٍ ! ففكَّروا فيه وقدَّروا[١] ! وأطالوا التَّفكيرَ والتَّقديرَ ثم عظّموا قولهم وهوَّلوه في نُفوسِ مَن لم يَفهَمهُ !

ولا رَيبَ أنَّ فيه دقَّةً وغُموضاً، لما فيه من الألفاظِ المُجمَلَةِ، والمعاني المُشتَبِهَةِ؛ فإذا دخَل معهم الطَّالبُ وَسمعَ منهم ما تَنفرُ عنه فِطرَتُهُ، **فأخذَ يعترضُ عليهم، قالوا له : أنتَ لا تفهمُ هذا ! و : هذا لا يَصلُحُ لك !** و : هذا أمرٌ قَد صَقَلَتْهُ الأذهانُ على تطاولِ الأزمانِ ! وتلقَّتْهُ العقولُ بالقَبولِ والتَّسليمِ ! وفَزِعَتْ إليه عند التَّخاصُمِ والتَّحاكُمِ !

فيبقى ما في النُّفوسِ من الحَمِيَّةِ والإلفَةِ يَحمِلُها على تسليمِ تلك الأمورِ قبلَ تَحقيقِها، وعلى تَركِ الاعتراضِ عليها، **خَشيَةَ أن يَنسِبوهُ إلى نَقصِ العلمِ والعقلِ،** فَيَأخُذَها مُسَلَّمةً !

فإذا جاءَت لوازِمُها لم يَجِد بُدّاً مِن التزامها، ويرى أنَّ التزامَ تلكَ اللوازمِ أهونُ عليه من القَدحِ في تلك القواعدِ وإبطالِها !!!

فهذا أصلُ ضلالِ مَن ضلَّ من أهلِ النَّظرِ والبَحثِ في المعقولاتِ .

وأمَّا الأعمى المُقلِّد[٢] فليس معه أكثرُ مِن : هكذا قال العُقلاء !

وهذا القَدْرُ الذي وقعَ مِن ضلال هؤلاء، لم يَقصِدهُ عقلاؤهم ابتداءً،

---

(١) فَقُتِلوا كيفَ قَدَّروا !!

(٢) وعامَّتُهم - جَهَلةً وأشباهَ مُتعلِّمين - كذلك !!

بل كان قَصدُهُم تحصيلَ العُلومِ والمعارفِ، ولكن أخطَأُوا بطَلَبِها من غَيرِ طريقها، فضَلُّوا وأضلُّوا !!

وقد سُئِلَ شيخُنا[1] رضي اللّه عنه عن بعضِ رؤساءِ هؤلاء ممَّن له علمٌ وعقلٌ وسلوكٌ وقصدٌ، ثمَّ أخطأ الصَّوابَ ؟ فقال : « طَلَبَ الأمورَ العَليَّةَ من غيرِ الطُّرق النبويَّةِ، فقادَتهُ قَسراً إلى المناهج الفَلسفيَّة » !

وما أحسنَ ما قال؛ فإنَّ مَن طَلَبَ أمراً عالياً من غير طريقِهِ لم يَحصُل إلّا على ضدِّه .

فالواجبُ على مَن يُريدُ كَشفَ ضلالِ هؤلاءِ وأمثالِهم، أنْ لا يُوافِقَهم على لفظٍ مُجْمَلٍ حتى يتبيَّن معناه، ويعرفَ مَقصودَه، فيكون الكلامُ في معنىً معقولٍ يتوارَدُ النَّفيُ والإثباتُ فيه على مَحلٍّ واحدٍ، لا في لفظٍ مجملٍ مُشتبهِ المعنى .

وهذا نافعٌ في الشَّرعِ والعقلِ والدِّين والدُّنيا .

الوجه الثالث والأربعون :

أنَّ اللّهَ سبحانَه نهى المؤمنين أن يتقدَّموا بين يَدي رسولِه، وأن يَرفَعوا أصواتَهم فوقَ صوتِه، وأن يجهَروا له بالقولِ كَجَهرِ بَعضِهم لبعضٍ، وحذَّرهم من حُبوطِ أعمالهم بذلك، فقال :

﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تُقدِّموا بَيْنَ يَدَي اللَّهِ وَرسولِه واتَّقوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ

(١) وهو شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّه تعالى، رُغم أنوف شانئيه !

سميعٌ عليمٌ ٥ يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَرفَعُوا أصواتَكُم فوقَ صَوتِ النَّبيِّ ﴾ .

فإذا كان سُبحانه قد نهى عن التقدُّم بين يَديه، **فأيُّ تقدُّمٍ أبلغُ من تقديمِ عقلِه على ما جاءَ به !**

قال غيرُ واحدٍ مَن السَّلف : ولا تقولوا حتى يقولَ، ولا تَفعَلوا حتى يأمُر(١).

ومعلومٌ قَطعاً أنَّ مَن قدَّم عَقلَه أو عَقلَ غيرِهِ على ما جاءَ به، فهو أعصى النَّاسِ لهذا النَّبيِّ ﷺ، وأشدُّهم تقدُّماً بين يديهِ .

وإذا كانَ سبحانَه قد نهاهم أنْ يَرفَعوا أصواتَهم فوقَ صوتِهِ، فكيفِ بِرَفعِ مَعقولاتِهِم فوقَ كلامِهِ، وما جاءَ به !؟

ومِنَ المعلومِ قطعاً أنَّهُ لم يكُن يَفعَلُ هذا في عهده إلّا الكفّار والمنافقون، فهم الذين حكى اللَّهُ سبحانه عنهم معارضةَ ما جاءَ به بعقولهم وآرائهم، وصارت تلك المُعارضةُ ميراثاً في **أشباههم !**

وقد ذكر سبحانه الأمثالَ العقليَّةَ التي عارضَ المشركون بها الوَحيَ لتكونَ عبرَةً للمؤمنين ومثلاً للمُعارضين :

﴿ لِيَهْلِكَ مَن هَلَكَ عَن بَيِّنةٍ ويَحيَى مَن حَيَّ عَن بَيِّنةٍ وإنَّ اللَّه لَسميعٌ عَليمٌ ﴾ .

---

(١) قارن بـ « جامع البيان » (١١٦/٢٦)، و « الدر المنثور» (٥٤٧/٧)، و « معالم التنزيل » (٣٣٤/٧) .

الوجه الرابع والأربعون :

إنَّ كُلَّ مَن عارضَ بين الوَحي والعقلِ، وَرَدَّ نُصوصَ الكتابِ والسُّنَّة بالرَّأي - **الذي يُسمِّيه عَقلاً** - لا بدَّ أن يَنقُضَ تلك النُّصوصَ المُخالفةَ لِعَقلِه ويُعاديَها، وَيَودَّ أنَّها لم تكُن جاءَت، وإذا سَمِعها وجَد لها على قَلبِه مِن الثِّقلِ والكراهةِ بحسبِ حالِه، واشمأزَّ لها قلبُه، واللَّهُ يعلمُ ذلك من قلوبهم، وهم يَعلمونَهُ أيضاً، حتى حَمَلَ جَهْماً[1] الإنكارُ والبُغضُ لقوله سبحانه :

﴿ الرَّحمنُ على العَرشِ استَوى ﴾ على أنْ قال : لو أمكنَني كَشطُها من المُصحَفِ كَشَطتُها !

وحَمَلَ آخرَ بُغضُ قولِهِ : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ موسى تَكليماً ﴾ على أنْ حرَّفها وقرأها بالنَّصبِ : (وكلَّمَ اللَّهَ موسى تكليماً) أي : أنَّ موسى هو الذي كلَّم اللَّهَ وخاطبَهُ ! واللَّهُ لم يُكلِّمه ! فقال له أبو عَمرو ابنُ العلاء : فكيفَ تَصنَعُ بقَولِهِ : ﴿ وَلَمَّا جاءَ موسى لِميقاتِنا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ ؟!

فَبُهِتَ المُعطِّل[2] !

وجرى بيني وبين بَعضِ رؤساءِ هؤلاء مُناظرةٌ في مسألة الكلام، فقال: فنحنُ وسائرُ الأُمَّةِ نقولُ : القرآنُ كلامُ اللَّه، لا يُنازِعُ في هذه الإضافةِ أحَدٌ، ولكن لا يلزَمُ منها أنْ يكونُ اللَّهُ بنفسِهِ متكلِّماً، ولا أنَّهُ يتكلَّمُ، فَمِن أين لكم

---

(١) هو جَهْمُ بن صفوان، مُقدَّمُ ضلالتهم، وَرَأْسُ بدعتهم !!

(٢) وهم هكذا، دائماً مَبهوتون، ولأنفسهم - وأذنابهم - مُخادِعون !!

ذلك ؟!

فقال له بعضُ مَن كان معي من أصحابِنا : قد قال النَّبيُّ ﷺ : « إذا تكلَّم اللَّهُ بالوَحي ... »[1]، وقالت عائشةُ : « وَلَشَأني كان أحقَر مِن أن يتكلَّم اللَّهُ فيَّ بوحيٍ يُتلى »[2].

فرأيتُ الجهميَّ قد عبسَ وبَسرَ، وكَلَحَ وزَوى وَجهَهُ عنه؛ كالذي شمَّ رائحةً كريهةً أعرَضَ عنها بوجهِه، أو ذاقَ طعاماً كريهاً مُرّاً مذاقُه !!

وهذا أمرٌ لم يزل عليه كلُّ مُبطلٍ إذا واجَهْتَهُ بالحقِّ المُخالِفِ له وصَدَمْتَه به .

وقلّ من يتصبَّر[3] منهم عندَ الصَّدمة الأولى؛ ولهذا قال بعضُ السَّلف: ما ابتَدعَ أحدٌ بدعةً إلّا خرجت حلاوةُ الحديثِ من قلبِه .

وقال بِشرٌ المَريسيُّ[4] : إذا احتَجُّوا عليكم بالقرآن فغالِطوهُم بالتَّأويل ! وإذا احتَجُّوا بالأخبارِ فادفَعوها بالتَّكذيب !

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٣٨)، وابن خُزيمة (٩٥-٩٦)، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (ص:٢٠) عن ابن مسعود بسندٍ صحيحٍ .

(٢) رواه البخاري (٧٥٠٠)، ومسلم (٢٧٧٠) عن عائشة .

(٣) وقع في « الصواعق » (١٠٣٨/٣) : « يتبصّر » !

(٤) مِن كُبراءِ الجهميَّة .

ومثلُهُ اليومَ كثيرٌ ... لكن بأسماءٍ - ما زالت - إسلاميَّة !!

الوجه الخامس والأربعون :

أنَّ تجويزَ مُعارضةِ العقلِ للوَحيِ يُوجبُ وَصْفَ الوَحيِ بضدِّ ما وَصَفَهُ اللَّهُ به؛ فإنَّ اللَّهَ سبحانَهُ وَصَفَهُ بكونِهِ هُدىً، وأخبرَ أنَّهُ يَهدي للَّتي هي أقومُ الطُّرقِ وأقربُها إلى الحقِّ؛ فإنَّ الطَّريقَ المستقيمَ هو أقربُ خطٍّ موصلٍ بين نُقطتين، وكلَّما تَعوَّجَ بَعُدَ .

وأخبرَ سبحانه أنَّهُ شِفاءٌ لما في الصدور؛ وهذا يتضمَّنُ أنَّهُ يشفي ما فيها من الجَهلِ والشَّكِّ والحيرَةِ والرِّيَبِ، كما أنَّ الهُدى يتضمَّن أنَّهُ مُوصلٌ إلى المقصودِ .

فالهُدى يُوصلُها إلى الحقِّ المقصودِ من أقربِ الطُّرقِ، والشفاءُ يُزيلُ عنها أمراضَها المانعةَ لها مِن مَعرفةِ الحقِّ وطَلَبِهِ .

ومِن المُحالِ أن تكونَ هذه صفةَ كلامٍ مُخالفٍ للعقلِ، ومُعارضٍ له .

وكذلك أخبر أنَّهُ نورٌ كما قال تعالى :

﴿ فَالَّذينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ ونَصَرُوهُ واتَّبَعوا النُّورَ الَّذي أُنزِلَ مَعَهُ أُولئكَ هُمُ المُفلِحونَ ﴾ .

وقال : ﴿ وَكذلكَ أَوحَينا إليكَ رُوحاً مِن أمرِنا ما كُنتَ تَدري ما الكِتابُ وَلا الإيمانُ ولكنْ جَعَلناهُ نُوراً نَهدي بهِ مَن نشاءُ مِن عِبادِنا ﴾ .

فهو نورُ البصائرِ من العمى، كما هو شفاءُ الصُّدورِ من الجهلِ والشَّكِّ .

ومُحالٌ أن تتنوَّر البصائرُ بما يخالفُ صريحَ العقل، فإنَّما يخالفُ العقلَ مُوجِبُ الظُّلمةِ .

وأخبرَ أنَّهُ حقٌّ، والعقلُ الصَّريحُ لا يُخالفُ الحقَّ، فقال تعالى :

﴿ إنَّا أنزَلنا إلَيكَ الكِتابَ بالحَقِّ ﴾ .

وقال : ﴿ لَقَد جاءَكَ الحَقُّ مِن ربِّكَ فَلا تَكونَنَّ مِنَ المُمْتَرينَ ﴾ .

وحينئذٍ؛ فكونهُ حقّاً يَدُلُّ على أنَّ ما خالَفَه ممَّا يُسمَّى معقولاً باطلٌ، فإنْ كان ما خالَفَهُ حقّاً لزم أن يكونَ هو باطلاً، **وإنْ كان هو الحقَّ فما خالَفَهُ باطلٌ قطعاً**[1].

وأخبرَ أنَّهُ أصدقُ الكلام فقال :

﴿ ومَن أَصدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾ ، ﴿ وَمَن أَصدَقُ مِنَ اللَّهِ حديثاً ﴾ .

ولو خالفَ العقلَ لم يكُن كذلك، وكان كلامُ هؤلاءِ الضَّالِّين المُضلِّين أصدقَ منه .

وأخبرَ أنَّ القلوبَ تطمئنُّ به، أي : تسكُنُ إليه من قَلَقِ الجهلِ، والرَّيبِ، والشَّكِّ، كما يطمئنُّ القلبُ إلى الصِّدقِ، ويرتابُ بالكذبِ فقال تعالى :

﴿ الَّذينَ آمَنوا وتَطمئنُّ قُلوبُهم بِذكرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكرِ اللَّهِ تَطمئنُّ

(١) لا فَرقَ في ذلك بين سُنَّة أو قرآن، فكلاهما وَحيٌ؛ يقول اللَّه سبحانه : ﴿ وأَنْزَلْنا إلَيكَ الذِّكرَ لِتُبَيِّنَ للنَّاس ما نُزِّلَ إليهم ﴾ .

القُلوبُ ﴾ .

ولو كان في العقلِ الصَّريحِ ما يُخالفهُ لم تطمئنَّ به قلوبُ العُقلاءِ .

والعاقلُ اللَّبيبُ إذا تدبَّر القرآنَ، وتدبَّر كلامَ هؤلاءِ المُعارضينَ تبيَّنَ له أنَّ الرِّيبةَ كلَّها في كلامِهم، والطّمأنينةَ في كلامِ اللَّهِ ورسولِهِ .

الوجه السادس والأربعون :

أنَّ هذه المعقولاتِ التي عارَضُوا بها الوَحيَ لها مَعقولاتٌ تُعارِضُها هي أقوى منها، ومُقدِّماتُها أصحُّ من مُقدِّماتها، فيَجبُ تقديمُها عليها لو قُدِّرَ تعارُضهما، ولا يُمكنُ هؤلاءِ أن يَدفَعُوا كونَ النُّصوصِ من جانبِ هذه المعقولاتِ !

وحينئذٍ؛ **فمعقولٌ تشهدُ له النُّصوصُ أولى بالصِّحَّةِ والقَبولِ من مَعقولٍ تَدفعُهُ النّصوصُ !**

فنحنُ ندفعُ معقولاتِهم بهذه المعقولاتِ تارةً، وبالنُّصوصِ تارةً، وبهما تارةً .

ولا يُمكنُهم القَدحُ في هذه المعقولاتِ إلّا بمُقدِّمات يردُّها النَّصُّ وهذا العقلُ، فكيفَ تُرَدُّ هذه المعقولاتُ والنُّصوصُ بتلك !

وهذا قاطعٌ لمن تدبَّرهُ .

واعتَبِرْ ذلك بالمقولاتِ التي أقامَها المُعطِّلةُ على نَفي عُلُوِّ اللَّه على خلقِه،

ومُبايَنَتِه للعالمِ، والمَعقولاتِ التي أقامها أهلُ الإثباتِ على ضدِّ قَولهم؛ يتبيَّنُ لك ما بَينهما من التفاوُت، وتَسلَمُ نُصوصُ الوَحيِ عن المُعارِض .

الوجه السابع والأربعون :

أنَّ مَن عَرَفَ بُطلانَ هذه المعقولاتِ التي يُعارِضُ هؤلاءِ بها السَّمعَ امتنعَ عندَه أن يَحصُلَ بها المُعارضةُ؛ **لامتناعِ ثُبوتِ المُعارضةِ بين الحقِّ والباطل .**

وَمَن اعتَقَدَ صحَّتَها؛ فاعتقادُ صِحَّتِها عندَه ملزومٌ لبُطلانِ السَّمعِ، فَيَلزَمُ من صحَّتها بُطلانُه، وتمتنعُ المُعارضةُ أيضاً، فالمُعارضةُ ممتنعةٌ على تقديرِ صحَّتها وَفسادِها .

الوجه الثامن والأربعون :

أنْ يُقالَ لمن جوَّزَ مجيءَ الرَّسولِ بما يُخالفُ صريحَ العقلِ : ما تقولُ إذا سَمِعتَ كلامَه قبلَ أن تعلمَ هل في العَقلِ ما يُخالفهُ أم لا ؟

هل تُبادرُ إلى رَدِّه وإنكارِه ؟

أم إلى قَبولِه واعتقادِه ؟

أم تتوقَّف فيه ولا تُصدِّقُه ولا تُكَذِّبهُ، ولا تَقبَلُه ولا تَردُّه ؟

أم تُعلِّقُ تَصديقَهُ والإقرارَ به على الشَّرطِ، وتقولُ : أنا أعتقدُ مُوجِبَه إن لم يكُن في العقلِ ما يَردُّهُ ؟

فلا بُدَّ لك من واحدٍ من هذه الأمور الأربعة :

فالأوَّلُ والثَّالثُ والرَّابعُ : مناقضٌ للإيمانِ بالرَّسولِ مُناقضةً صريحةً .

والثَّاني : لا سبيلَ لك إليه؛ لأنَّك قد جوَّزتَ أن يكونَ في صريحِ العقلِ ما يُناقضُ ما أخبرَ به، فكيفَ تَجزِمُ مع ذلك بصحَّته ؟!

فالقِسمُ الإيمانيُّ قَد سَدَدْتَ طريقَهُ على نَفسِكَ، والأقسامُ الثَّلاثةُ مستلزمةٌ لِعَدَمِ الإيمانِ !!

وهذا إنَّما نشأ من تجويزِ أنْ يكونَ في العقلِ الصَّريحِ ما يُناقضُ ما أخبرَ به[1] .

الوجه التاسع والأربعون :

أنَّ كلَّ مَن لم يُقِرَّ بما جاءَ به الرَّسولُ إلّا بعدَ أن يقومَ على صحَّته عنده دليلٌ منفَصلٌ من عَقلٍ، أو كشفٍ، أو منامٍ، أو إلهامٍ !! لم يكُن مؤمناً به قطعاً، وكان من جنسِ الّذينَ قال اللّهُ فيهم :

﴿ وإذا جاءَتْهُم آيَةٌ قالوا لَن نُؤمِنَ حتّى نُؤتى مِثلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ ﴾ .

بل قد يكونُ هؤلاء خَيراً منهم من وجهٍ، فإنَّهم علَّقوا الإيمانَ بأن يُؤتَوا سَمعاً مثلَ ما أُوتيَهُ الرُّسلُ، وهؤلاء علَّقوا الإيمانَ على قيامِ دليلٍ عقليٍّ على

(١) وهذا - أيضاً - قاطعٌ لمن تدبَّرهُ .

صحَّةِ ما أخبَروا به، وإذا كان مَن فَعَلَ هذا ليسَ بمؤمنٍ بالرُّسل؛ فكيفَ مَن عارَضَ ما جاؤا به بمعقولهِ ثمَّ قدَّمه عليه ؟!

الوجه الخمسون :

أنَّ هذه المعارضةَ بين الوحيِ والعقلِ نتيجةُ جهلَين عظيمين؛ جهلٍ بالوحيِ، وجهلٍ بالعقلِ :

أمَّا الجهلُ بالوحيِ : فإن المعارضَ لم يفهم مَضمونَه وما دلَّ عليه، بل فهم منهَ خلافَ الحقِّ الذي دلَّ عليه وأُريدَ به، ثمَّ عارضَ ما دلَّ عليه بالرَّأي والمعقولِ .

ونحنُ نَنزِلُ معه دَرجةً ونُبيِّنُ أنَّ المعقولَ الذي ذكرَه لا يَصلُحُ لمُعارَضةِ المعنى الباطلِ الذي فَهِمَهُ من الوحي، فَضلاً عن المعنى الصَّحيحِ الذي دلَّ عليه الوحيُ؛ **فإنَّهُ يستحيلُ أن يُعارَضَ مُعارضةً صحيحةً البتَّة، بل هو الحقُّ الذي ليسَ بعدَه إلّا الضَّلال** .

واللَّهُ تعالى هو الحقُّ، وكلامُه حقٌّ، ورسولُه حقٌّ، ودينُه حقٌّ، ووحيُه حقٌّ، وما خالَف ذلك فهو الباطلُ المَحضُ الذي لا يقومُ على صحَّتهِ دليلٌ، بل الأدلَّةُ الصَّحيحةُ التي تنتهي مُقدِّمتُها إلى الضَّروريَّات تدلُّ على بُطلانه .

وأمَّا الجهلُ بالعقلِ : فإنَّهُ لا يُتصوَّرُ أنْ يُعارضَ العقلُ الصَّحيحُ للوحيِ أبداً، **ولكنَّ الجاهلَ يظُنُّ أنَّ تلك الشُّبهةَ عقليَّةٌ ! وهي جهليَّةٌ خياليَّةٌ** من جِنسِ شُبَهِ السُّوفِسْطائيَّة .

فالحاصلُ أنَّهُ إنْ عارَضَ ما فَهِمَهُ من النَّصِّ بما هو الباطلُ كان جاهلاً بالوَحيِ ومدلولِه، وإنْ عارَضَ مدلولَه وحقيقَتَه التي دلَّ عليها فهو جاهلٌ بالعقل .

فلا يُتَصوَّر أنْ يجتمعَ لهذا المُعارِضِ علمٌ بالوَحيِ والعقلِ أصلاً، بل إمَّا أنْ يكونَ جاهلاً بهما - **وهو الأغلبُ على هؤلاء** - أو بأحدهما !

ولسنا ندفعُ مَعرفتَهم ببعضِ العقليَّات المُشتركَةِ بين المسلمين، واليهودِ، والنَّصارى، والمجوس، وعُبَّاد الأصنام، بل ولا ندفعُ تبريزَهم فيها وحِذْقَهم بها، وإنَّما نُبيِّن بالبراهين الواضحةِ أنَّهم مِن **أجهلِ النَّاسِ بالعقليَّات** المُتعلِّقةِ بأسماءِ الرَّبِّ وصفاتِه وأفعالِه[1]، كما هم جُهَّالٌ بوَحيِه، وبما جاءَت به رُسُلُه .

وقد نَفى اللَّهُ سبحانه السَّمعَ والعَقلَ عمَّن أعرضَ عن رسُلِه، فكيفَ بمن عارضَ ما جاءُوا به ؟

وأخبرَ سبحانَه أنَّهُ لا بُدَّ أن يَظهرَ لهم **في مَعادِهِم** أنَّهم لم يكونوا من أهلِ السَّمعِ ولا من أهلِ العقلِ .

---

(١) لذا؛ فإنَّهم - لجهلهم - عطَّلوا اللَّهَ سبحانَه عن صفاتِه، بشبهاتٍ عقليَّةٍ جهليَّةٍ واهنةٍ واهيةٍ !

ولم أُقِم كتابي هذا لبحثِ مسألة صفات الباري جلَّ وعلا - على أهميّتها -، وإنَّما لنقضِ أساس فكرتهم (العقلانيَّة) التي إذا هُدِمَت هُدمَ معها أصولُهم الكلِّيَّة كلُّها .

وانظر كتاب « المعتزلة وأصولهم الخمسة » (٨٣-١٤٨) لعوَّاد المُعتق .

الوجه الحادي والخمسون :

أن يُقال (للعقلانيِّين) : إنَّكم أسأتُم القولَ في العقلِ غايَةَ الإساءَةِ ! وقَدَحتُم فيه أعظَمَ القَدحِ؛ فإنَّ اللَّهَ سبحانَه ركَّب العقولَ في عبادِه، ليَعرِفوا بها صِدقَهُ وصِدقَ رُسلِهِ، ويَعرِفوه بها، ويَعرِفوا كمالَه، وصفاتِهِ، وعَظَمَتَهُ، وجلالَه، وربوبيَّته، وتوحيدَه، وأنَّهُ الإلهُ الحقُّ، وما سواهُ باطلُ .

فهذا هو الذي أعطاهُم العقلَ لأجلِهِ بالذَّاتِ والقَصدِ الأوَل، وهداهُم به إلى مصالحِ مَعاشهم التي تكونُ عَوناً لهم على ما خُلقوا لأجلِهِ وَأُعطوا العقولَ له .

فأعظَمُ ثمرةِ العقلِ معرفتُهُ لخالقهِ، وفاطرِه، ومعرفةُ صفاتِ كمالِهِ، ونعوتِ جلاله وأفعالِه، وصِدقِ رُسُلِهِ، والخضوعِ والذُّلِّ والتعبُّدِ له .

فإذا أقرَرتُم على العَقلِ بأنَّهُ لا يُدرِكُ ذلك، ولا يُصدِّق ذلك به، بل يُعارِضُهُ ويُكذِّبهُ، ويَرُدُّه، فقد نَسَبتُموهُ إلى أقبحِ الجهلِ، وأعظمِ شهادةِ الزُّور، وما كان هكذا فلا تُقبَل له شهادةٌ في شيءٍ، فَضلاً عن تَقديمِ شهادَتهِ على ما شَهِدَ اللَّهُ به لنفسِه، وشَهِدَتْ له به رُسُلُه من أوَّلهم إلى آخرهم .

الوجه الثاني والخمسون :

وهو أنَّ اللَّهَ سُبحانَهُ أنكرَ على من لَم يَكتَفِ بكتابِه فقال :

﴿ أَوَلَم يَكْفِهِم أنَّا أنزَلنا عَلَيكَ الكِتابَ يُتلى عَلَيهِم إنَّ في ذلكَ لَرَحمَةً وذِكرى لِقَومٍ يُؤمنونَ ﴾ .

ومِن المُحالِ أن يكونَ الكتابُ الَّذي يُخالفهُ صريحُ العَقلِ كافياً، وإنّما يكون كافياً لمن قدَّمه على كلِّ معقولٍ ورأيٍ وقياسٍ وذوقٍ، وحقيقةٍ وسياسةٍ .

فهذا الكتابُ في حقِّه كافٍ له، كما أنَّهُ يكونُ رحمةً وذكرى له دونَ غيرِهِ .

وأمَّا مَن أعرضَ عنه أو عارَضَه **بآراءِ الرِّجالِ** فليسَ بِكافٍ له، ولا هو في حقِّه هُدىً ولا رحمةٌ، بل هو مِن الَّذينَ آمَنوا بالباطلِ وكَفَروا باللَّهِ .

الوجه الثالث والخمسون :

إنَّ من تأمَّل أقوالَ المُعارضينَ للوحيِ بعُقولهم وآرائهم، وجَدَها قد جَمَعَت أمرين، كلٌّ منهما يَدلُّ على بُطلانها :

أحدهما : اختلافُها في نَفسِها، واضطرابُها، وتهافُتها؛ وهذا يدلُّ على أنَّها ليسَت من عندِ اللَّه، كما قال تعالى :

﴿ أَفَلا يَتَدبَّرونَ القُرآنَ وَلَو كانَ مِن عندِ غيرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فيهِ اختلافاً كَثيراً ﴾ .

فَيَكفيكَ مِن فسادِ القولِ اختلافُهُ واضطرابُهُ وتناقضهُ !

الثّاني : أنَّ مَصدَرها الخَرْصُ والظَّنُّ والتَّخمينُ، ليست صادرةً عن وَحيٍ عُلِمَت عصمَتُهُ، ولا عن فِطرَةٍ **وعَقلٍ اشتركَ العُقلاءُ فيما أثبَته ونَفاهُ.**

وقَد أخبرَ سُبحانَهُ عن حقيقةِ أقوالِ المُخالفين لكتابِه وسُنَّة رسولِه بهذين الأمرين في قوله :

﴿ وَالذَّارياتِ ذَرواً ٥ فَالحامِلاتِ وِقراً ٥ فالجارِياتِ يُسراً ٥ فالمُقسِّماتِ أمراً ٥ إنَّما تُوعَدونَ لَصَادِقٌ ٥ وإنَّ الدِّينَ لَواقعٌ ٥ والسَّماءِ ذاتِ الحُبُكِ ٥ **إنَّكُم لَفي قَولٍ مُختلفٌ ٥ يُؤفَكُ عَنهُ مَن أُفِكَ ٥ قُتِلَ الخَرَّاصونَ ٥ الذينَ هُم في غَمرَةٍ ساهونَ** ﴾ .

فأقسمَ - سبحانه - بذلك على أنَّ الرَّادِّينَ لما بعثَ به رسولَهُ، المُعارضينَ له بعُقولهم في قولٍ مختلفٍ، **ولهذا نَجدهُم دائماً في قولٍ مختلفٍ، لا يَثبُتُ لهم قَدَمٌ على شيءٍ يُعوِّلونَ عليه !**

فتأمَّلْ أيَّ مسألةٍ أرَدتَ من مسائلهم ودلائلهم، تجِدْهم مُختَلفين فيها غايَةَ الاختلافِ، يقولُ هذا قولاً وينقُضُه الآخرُ ! فيجيءُ الثَّالثُ فيقولُ قولاً غيرَ ذَيْنِكَ القولين، وينقُضهما ويُبْطِلُ أدلَّتهما !

ولا تجدُ لهم مسألةً واحدةً إلّا وقد اضطرَبوا فيها حُكماً ودليلاً، فهم أعظمُ النَّاسِ اختلافاً ! حتى تجِدَ الواحدَ منهم يقولُ القولَ، **ويدَّعي أنَّهُ قطعيٌّ** !! ثمَّ يقولُ خلافَه، ويُبطله **ويدَّعي أنَّهُ قطعيٌّ** !!

ثمَّ أخبرَ سبحانه أنَّ ذلك القولَ المُختلفَ يؤفَكُ عنه مَن أُفِكَ، أي : يُصرَفُ بِشُبَهٍ عن الحقِّ مَن صُرِفَ، فلمَّا كان انصرافُهُ عن الحقِّ بشُبَهٍ، صارَ كأنَّهُ مُنفَصِلٌ عنه، وإفكُهُ صادرٌ عنه .

ثمَّ قال تعالى : ﴿ قُتِلَ الخَرَّاصونَ ﴾ .

وأصلُ الخَرْصِ القولُ بلا علمٍ، بل بالظَّنِّ والتَّخمينِ والقَذفِ بالكلامِ من غيرِ بُرهانٍ على صحَّته، ومنه سُمِّي الكاذبُ خارصاً، وصاحبُ الظَّنِّ والتَّخمين خارِصاً .

وهذا الوصفُ مُنطَبِقٌ على هؤلاء أتمَّ انطباقٍ، فليسَ مَعَهُم إلّا الخَرْصُ واتِّباعُ الظَّنِّ، كما قال تعالى في وَصفِ سَلَفِهِم المعارضين لشرعِهِ :

﴿إنْ يَتَّبِعونَ إلّا الظَّنَّ وإنْ هُم إلّا يَخرُصُونَ ﴾ .

وهذا بخلافِ مُتَّبِعِ الوَحيِ؛ فإنَّهُ يتَّبِعُ قولاً يُصدِّقُ بعضُهُ بعضاً، ويَشهَدُ بعضهُ لبعضٍ، لا اختلافَ فيه ولا اضطرابَ، مُتَّصلاً بربِّ العالمين قولُهُ ووحيهُ الذي نزَّلهُ على رسولِه، فمصدرُهُ منه سبحانَهُ، ومَظهَرُهُ على لسانِ رسولِه، فعليهِ سبحانَه البيانُ، وعلى رسولِهِ البلاغُ، وعلينا التَّسليمُ .

وقد فعلَ سبحانَه ما عليه، وفعل رسوله ما عَليه، **فماذا نشاءُ بعدَ ذلك إلّا أن نأتيَ بما علينا !**

الوجه الرابع والخمسون :

أنَّهُ لو كان ظاهِرُ الكتابِ[1] مخالفاً لصريحِ المعقولِ لكان في الصُّدورِ أعظمُ حَرجٍ منه وضيقٍ، وهذا خلافُ المشهودِ بالباطنِ لكلِّ ذي عقلٍ سليمٍ؛ فإنّهُ كلَّما كان الرَّجلُ أتمَّ عقلاً كان الحَرجُ بالكتابِ أبعدَ منه، قال تعالى

(١) وكذا السُّنَّة؛ فهما مِن مشكاةٍ واحدةٍ .

لرسولِهِ :

﴿ كِتابٌ أُنزِلَ إليكَ فَلا يَكُن في صَدرِكَ حَرَجٌ منهُ ﴾ .

واللَّهُ تعالى رَفعَ الحرجَ عن الصُّدورِ بكتابهِ، وكانَت قبلَ إنزالِ الكتابِ في أعظمِ الحرجِ والضِّيق، فلمَّا أنزلَ كتابَه ارتفعَ به عنها ذلك الحَرَجُ، وبقيَ الحَرَجُ والضِّيقُ على مَن يُؤمن به، كما قال تعالى :

﴿ فَمَن يُرِد اللَّهُ أن يَهدِيَهُ يَشرَحْ صَدرَهُ للإسلامِ ومَن يُرِد أَن يُضِلَّهُ يَجعَل صَدرَهُ ضيِّقاً حَرَجاً ﴾ .

وَمَن آمَنَ بهِ مِن وجهٍ دونَ وجهٍ ارتفعَ عنه الحرجُ والضِّيقُ مِنَ الوَجهِ الذي آمنَ به، دون ذلك الوَجهِ .

فمَن زعمَ أنَّهُ غيرُ كافٍ في معرفةِ الحقِّ، وأنَّ العبادَ يحتاجونَ معه إلى مَعقولاتٍ وآراءٍ ومقاييسَ وقواعدَ منطقيَّةٍ ومباحثَ عقليَّةٍ ! ففي صَدرهِ منه أعظمُ حرجٍ .

وأعظمُ حرجاً منه مَن اعتقدَ أنَّ فيه ما يُناقضُ العقلَ الصَّريحَ، ويشهدُ العقلُ بخلافهِ !

وكذلك مَن زعمَ انَّ آياتهِ لا يُستفاد منها علمٌ ولا يقينٌ، ففي صدرهِ منه مِن الحرجِ ما اللَّهُ به عليمٌ .

وَمَن زعمَ انَّ أجلَّ ما فيه وأشرفَهُ وأفضلَه - وهو قسمُ التَّوحيدِ المتضمِّنُ للأسماءِ والصِّفاتِ - مجازاتٌ واستعاراتٌ وتشبيهاتٌ لا حقائقُ : ففي

صَدرِهِ منه أعظمُ حرجٍ !

فكُلُّ هذه الطَّوائف في صدورهم منه حَرجٌ ورَيبٌ، وليسَ في حقِّهم هُدىً، ولا شِفاءٌ، ولا رحمةٌ، ولا هو كافٍ لهم بشادتهم على أنفسهم، وشهادةِ اللَّهِ وملائكتهِ والشُّهداءِ من عبادهِ عليهم .

ο ο ο ο ο

وَبـــعـــدُ :

فإنَّ واحدةً مِن هذه الحُجَج المتكاثرةِ تَكفي لنَقضِ ذلك (القانون الكُلِّيّ) المدَّعى؛ الذي يرُدُّ به أولئكَ (العقلانيُّون) وأشياعهُم ظاهِرَ القرآنِ، وصريحَ السُّنَّة، وكذلك تهدمُ كلَّ ما تفرَّغ عنه وانبَنى عليه .

ولا يُعطِّلُ على أيٍّ مِن هذه الأدلَّةِ المنثورةِ بحُجَج الحقِّ تلاعبٌ لفظيٌّ من (مُتفاصِح) يعبَثُ بوجوهِ الكلام، ويُدلِّسُ بالألفاظِ والمَرامي بأن يقولَ فيه مُلبِّساً :

(نحنُ لا ننصبُ المعارضةَ بين الرَّسولِ وبين العقلِ، ولكنَّنا ننصبها بين ما يُنسَبُ إلى الرَّسول مِن أحاديث - وليسَت له - وبين العقل) !!!

فأقولُ :

هذا كلامٌ مُتهاوٍ ... يَنقُضُ بعضُه بعضاً، ويُفسِدُ أوَّلُهُ آخِرَهُ !!

وبيانُ ذلك :

إنَّ حقيقةَ هذا الكلامِ (الحَلَزونيّ) ومآلَهُ إبطالُ أصلِ مَذهبهم، ونَقضُ قاعدةِ قانونهم؛ لأنَّ الأحاديثَ المرويَّة عن النَّبيِّ ﷺ - في ضوءِ علم الحديثِ وقواعدِهِ - قسمان :

أولاً : ممّا صحّ عنه، ورواه الثقاتُ الأثباتُ .

ثانياً : ممّا لم يصحّ عنه، ورواه الضُّعفاءُ والمجروحون .

فهل (هُم) - في ضوءِ هذا التّقرير - ينصبون المُعارضةَ العقليّةَ مع ما لم يصحّ عنه ﷺ ! أم مَع ما صحّ عنه ؟!

إنْ كان الأوّل : فهو خارجٌ عن أصلِ البحثِ؛ لأنَّ عدمَ صحّتها - وبالتّالي ردّها - مُغْنٍ لنا عن نَصْبِ المُعارضة العقليّةِ لها .

وإنْ كان الثّاني : فما هي الضّوابطُ التي تجعلُ قسماً مِن هذا الذي (صحّ عنه) ﷺ مقبولاً ! بينما قسمٌ آخرُ ممّا (صحّ عنه) ﷺ - قد يكونُ أكثرَ مِن سابقهِ - مردودٌ ؟!

ليسَ لهم مفرٌّ مِن أن يَتَكَبْكَبُوا؛ جاعلينَ في ذلك هو (العقل)، وهذا سيُؤدّي بهم (قطعاً) إلى ردِّ أحاديثَ صحيحةٍ - في نفسِ الأمرِ - عن النّبيِّ ﷺ بمجرّد عقولهم .

فهو عَودٌ - بيقينٍ - إلى نَصبِ المُعارضةِ بين (العقل) وبين الرّسول .

فإنْ قال (مُتفاصحٌ) آخَرُ - : نحنُ نتّهم الرُّواةَ، ونُوَهّنُ - على ضوءِ ذا - رواياتِهم !

فأقولُ : وهذا - أيضاً - عائدٌ إلى سابقهِ؛ بمعنى : أنَّ هذا الاتّهامَ لم يُبْنَ على حُجَجٍ علميّةٍ حديثيّةٍ بيّنةٍ، جاريةٍ على نَسَقِ أهل الحديثِ

وَقواعدِهم، وإنَّما بُنيَ - هذا الاتِّهامُ - على ذلك التَّعليلِ العقليِّ الفاسدِ الذي قصَّرَ عن استيعابِ رواياتهم وفَهمِها ... وبالتَّالي كان (منه) اتِّهامهُم، ثم رَدُّ رواياتِهم وأخبارِهم، ولو كانت صحيحةً في نفسِ الأمرِ؛ - سواءٌ أَعَلِمُوا ذلك أم جهلوه - !!

وهذا صنيعٌ فاسدٌ جدّاً؛ يَفتحُ البابَ على مصراعيهِ لِرَفْضِ السُّنَّة وَرَدِّها مِن أساسها؛ فإنَّ علمَ الحديثِ لم يَصِل إلينا - أصلاً - إلّا بأسانيد هؤلاء الرُّواةِ الأثباتِ .

فما الذي جعلَكم تُذعِنونَ لِقَبولِ أصلِ نقلهم ورواياتهم، ثمَّ تردُّون تَفصيلَ ذلك؛ برَدِّ بعضِ ما لم (تعقله) (عقولُكم) مِن مرويَّاتهم ؟!

... إلّا أن تكونوا - غيرَ مؤمنين أصلاً - بالسُّنَّة النبويَّة المطهَّرة ...

وحينئذٍ سقطَ الخطابُ !!

وهذا كافٍ - بمنَّةِ اللّهِ - لمن أنصفَ .

وأمَّا المُبطلُ : فلن يرجعَ إلى الحقِّ ولو جِئتَهُ بألفِ آيةٍ ! وإنَّما سيزعَقُ وينعقُ، ويُزخرفُ الكلامَ ويُنمِّقُهُ؛ « **فإيّاكَ والاغترارَ بذلك، فإنَّ أكثرَ المعاني المُشوَّهة، تُسْتَرُ بالعباراتِ المُمَوَّهة** »[1].

واللَّهُ المُستعان على ما يَصفون .

---

(١) « العواصم والقواصم » (١٧٩/٤) للعلّامة محمد بن إبراهيم الوزير .

الفصل السَّادس

العقلانيُّون ... والسُّنَّة

مَدخَلٌ :

مِمَّا لا بُدَّ مِن اليقين بِهِ، والجزمِ بحقيقتِه - **بعد تِلْكُم الجولةِ القاضِيَةِ** - « أنَّ المُسارَعةَ بِرَدِّ كُلِّ حديثٍ يُشكِلُ علينا فهمُه - إن كان صحيحاً ثابتاً - **مُجازفةٌ** لا يجترىءُ عليها الرَّاسخون في العلم .

إنَّهم يُحسِّنونَ الظنَّ بسلَفِ الأُمَّةِ، فإذا ثبتَ أنَّهم تَلقَّوْا حديثاً بالقَبولِ، ولم يُنكره إمامٌ مُعتبرٌ، فلا بدَّ أنَّهم لم يَرَوْا فيه مَطعناً مِن شذوذٍ أو علَّةٍ قادحةٍ .

والواجبُ على العالمِ المُنصفِ أن يُبقيَ على الحديثِ، ويبحثَ عن معنىً معقولٍ، أو تأويلٍ[1] مناسبٍ له .

وهذا هو الفَرق بين المعتزلةِ وأهلِ السُّنَّة في هذا المجال :

(١) بمعنى (التفسير والبيان) ! وأمَّا المعنى الحادثُ له وهو (تحريفُ اللفظ) فهو مرفوضٌ مردودٌ؛ وانظر في تفصيل ذلك « الإمام ابن تيميَّة وقضيَّة التَّأويل » للجُلَيْنِد .

فالمعتزلةُ [وأفراخهُم] يُبادرونَ بِرَدِّ كلِّ ما يُعارضُ مُسلَّماتِهم المعرفيَّة والدِّينيَّة مِن مُشكِل الحديث .

وأهلُ السُّنَّة يُعمِلون عقولَهم[1] في التَّأويل[2]، والجمعِ بين المُختلف، والتَّوفيقِ بين **المُتعارضِ في ظاهِرِه** .

ومن أجلِ هذا ألَّف الإمامُ أبو محمَّد بن قُتيبَةَ كتابَه المعروف : « تأويل مُختلف الحديث »؛ ردّاً على الزَّوابع التي أثارَها المعتزلةُ حولَ بعضِ الأحاديث، التي زعموا أنَّها مُعارضةٌ للقرآنِ (!)، أو للعقلِ (!)، أو يُكذِّبُها العَيان (!)، أو تُناقضُها أحاديثُ أُخرى !! »[3].

وهذه الزَّوابعُ المُفتعلةُ المُستنكرةُ لا تَعدوا أن يُقالَ فيها - جميعاً - : إنَّها (زوبعةٌ في فنجان) !! لأنَّها ذائبةٌ ... ذاهبةٌ !

وعليهِ، نقولُ : إنَّ « [4] مِن سوء الفهمِ الأساسيِّ للإسلامِ أن نظنَّه - وهو دينُ العقلِ[5] - يُخضِعُ تعاليمَه للاختيار الشَّخصيِّ !!

وتلك دعوى نشأت من الخطإِ الشَّائعِ في فهم الفلسفةِ العقليَّةِ .

هنالك شُقَّةٌ واسعةٌ - على ما اعترفَتْ به أيضاً الفلسفةُ في جميع

---

(١) ذات الضوابط الشرعيَّة المُحكمة .

(٢) بمعنى (التفسير والبيان) ! - كما سبق - ...

(٣) « كيف نتعامل مع السُّنَّة النبويَّة ؟ » (ص:٤٥) للشيخ يوسف القرضاوي !

(٤) مِن بدايةِ هذا القوس إلى نهايةِ (ص:١٧٣) نقلٌ من كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » (ص:٩٩-١١٠) .

(٥) المُنضَبِط بأحكام الشرع .

الأعصُرِ - بين العقلِ وبين الفلسفةِ العقليَّةِ كما يفهمها عادةً بعضُهم اليومَ .

إنَّ لِعَملِ العقلِ فيما يتعلَّق بالتَّعاليمِ الدِّينيَّة صِفَةَ الوازِع، وواجبُه أن يُرى أنَّهُ لا يُفرَضُ على العقلِ إلّا ما يحتملُه العقلُ بسهولة، ومن غيرِ لجُوءٍ إلى الخِدَعِ .

إنَّ العقلَ يعرفُ حدودَه الخاصَّةَ به، ولكنَّ الفلسفةَ العقليَّةَ تتخطَّى المعقولَ في ادِّعائها حَصرَ العالَم بجميعِ خفاياهُ في نطاقها الفَرديِّ الضيِّق، وهي لا تكادُ تُسلِّمُ في الأُمورِ الدِّينيَّة بأنَّهُ من المُمكن وجودُ أشياءَ لا يُطيقُها الفهمُ الإنسانيُّ في زمنٍ ما أو في كلِّ زمنٍ، مع أنَّها في الوقتِ نفسِه تُخالفُ المنطقَ إلى حدٍّ أنَّها تُسلِّمُ بهذا الإمكانِ للعلم !

إنَّنا اليوم لانحتاجُ إلى فيلَسوفٍ مِثل « كَنت »[1]، لِيُبَرهِن لنا على أنَّ الفهم الإنسانيَّ محدودٌ تماماً بما ينطوي عليه من وجوهِ الإمكان .

إنَّ عقلنا لا يستطيعُ بما رُكِّبَ في طبيعتِه، أن يُحيطَ بفِكرةِ « الكُلِّيَّة » .

إنَّنا نستطيع أن نفهمَ من كلِّ شيءٍ تفاصيلَه فَقَط، إنَّنا لا نَدري ما اللَّانهايةُ، ولا ما الأَزَلُ، حتى إنَّنا لا نعلمُ ما الحياةُ ؟

أمَّا في قضايا الدِّينِ المبنيَّةِ على أُسُسٍ مُطلقةٍ، فإنَّنا نحتاجُ ضَرورةً إلى هادٍ يتَّصِفُ عقلُهُ بشيءٍ فوقَ ما يتَّصفُ به التَّفكير المادِّيُّ، وفوقَ ما تتَّصِفُ

---

(١) توفِّي سنة (١٨٠٤م)، له كتابٌ مشهورٌ جدّاً اسمهُ « نقد العقل المحَض » .

به الفلسفةُ العقليّةُ الذَّاتيّةُ العامّةُ فينا، إنَّنا نحتاجُ إلى مَن أشرقَ عليه نورُ اللَّه، أو بكلمةٍ واحدةٍ : إلى نبيٍّ .

فإذا كنَّا نعتقدُ أنَّ القرآنَ الكريمَ كلامُ اللَّه، وأن مُحمَّداً رسولُ اللَّه، فإنَّنا نُصبحُ حينئذٍ مُلزمين أدبيّاً وعقليّاً بأن نتَّبعَ هُدى الرَّسولِ اتِّباعاً **أعمى** .

على أنَّ التعبير (**أعمى**) لا يعني أنَّنا يجبُ أن نَطرَحَ جميعَ قُوى العقلِ، بل بالعكسِ يجبُ علينا أن نستغلَّ تلك القُوى في أحسنِ وجوهِ مَقدِرَتِنا واستعدادِنا، يجبُ علينا أن نُجرِّبَ الكشفَ عن المعنى اللَّازمِ لتلك الأوامرِ التي جاءَ بها النَّبيُّ، على أنَّ الواجبَ يحمِلنا في كلِّ حالٍ أن نُطيعَ تلك الأوامرِ، سواءٌ أكُنَّا قادرين على فَهمها أم لم نكُن .

وأُحبُّ أن أضرِبَ هنا مثلاً : جُنديّاً أمرَهُ قائدُهُ أن يَحتلَّ مركزاً حَربيّاً ما، إنَّ الجُنديَّ الصَّحيحَ يَسمعُ هذا الأمرَ ويُنفِّذُهُ في الحالِ، فإذا استطاعَ الجُنديُّ في هذه الأثناءِ أن يفهمَ بنفسِهِ الغايَةَ الحربيّة القصوى التي تخيَّلها قائدُهُ، كان ذلك من حُسن حظِّه وحُسن حظِّ الجيشِ، لكنْ إذا لم ينكشِف له، فليسَ مِن شأنهِ أن يترُكَ تنفيذَ ذلك الأمرِ أو أن يُؤجِّلَهُ[1].

---

(١) وهناكَ مثلٌ آخر (عقلي) لا يسع (العقلانيّين) أمامه إلّا التّسليم؛ إنْ كانوا مُنصفين! فهم (كذا) **لا يُسلِّمونَ للوَحيَين، بقَدْرِ تسليمهم لعقولهم القاصرة ! فأقولُ** :

إذا أُصيبَ واحدٌ من هؤلاء (العقلانيّين) بمَرضٍ ما ! فإنَّه سرعانَ ما يُبادر إلى طبيبٍ ! ولكنْ : هَل يذهبُ إلى أيِّ طبيبٍ ؟

لا؛ وإنَّما يبحثُ عن الطَّبيب الماهر، والنَّطَاسيِّ الحاذق، الذي له من الشَّهادات ... والمعرفة ... والخبرة ... إلخ .

فإذا ذهبَ إليه، واشتكاهُ مَرَضه ومُصابَه : =

ونحنُ المسلمين نعتقدُ أنَّ نبيّنا أحسنُ قائدٍ عَرفهُ البَشر، ونحنُ نعتقدُ بطبيعةِ الحالِ أنَّهُ كان يَعرِفُ أمرَ الدِّين بناحيَتيهِ : الرّوحيَّةِ والاجتماعيَّةِ أكثرَ ممَّا استطعنا نحنُ أن نعرفه، فإذا أمَرَنا بشيءٍ أو نهانا عنه، فَلأنَّه كان أمراً « مقدَّراً » يَرى هو أنَّه لا غِنى عنه، لصلاحِ النَّاسِ الروحيِّ والاجتماعيِّ .

وقد يكونُ هذا الأمرُ ظاهراً بوضوحٍ، وقد يخفى كثيراً - أو قليلاً - عن عين الرجلِ العاديِّ القليلِ المِرانة .

ثمَّ إنَّنا أحياناً نستطيع أن نفهم أبعدَ الأهدافِ في أوامرِ الرَّسولِ، وأحياناً لا نفهمُ إلّا القصدَ السَّطحيَّ منها، ومهما كان من الأمرِ فالواجبُ علينا أن نعملَ بأوامر الرَّسول، على أن تكونُ صحَّتُها قد ثبتَت من طُرُقٍ معلومةٍ »[1].

= - وَضَعَ نفسَه بين يَديهِ، وتحتَ تَصرُّفه، دونما حِراكٍ، وبتسليمٍ تامٍّ، حتى لو وَصَلَ (بمشرطِهِ) إلى عنقهِ ... و (بسكّينه) إلى شرايينهِ !!

- فإنْ (أنهضَهُ) ! ومِن سريرِه (أجلسَه) ! وكتبَ له (وصفَةً) طبِّيَّةً ! أخَذَها بتسليمٍ - أيضاً - !!! دون مُجادلةٍ حول تركيبة الدواء ... أو خصائصه الكيميائيّة !!

فإن ذكرَ له انَّ الدواءَ يُشرَبُ ثلاثَ مرّات يوميّاً ... سلَّمَ !!

وإن أمرَهُ أن يَشرَبه قبل الطَّعام - مثلاً - ... رَضِيَ !!

... **سبحان الله** !! أحكام الطبيب - الذي هو بشرٌ احتمالُ خطئِهِ كاحتمالِ صوابِهِ - مُسلَّمةٌ، مَرْضِيٌّ عنها، مأخوذةٌ دونَ مُناقشةٍ أو حتى ... تفكيرٍ ... أو عَقلٍ !!

بينما أحكامُ الله الموحى بها إلى رسولِ الله ﷺ - وهي المعصومةُ بعصمته ﷺ - تُناقَشُ ... وتُبحَثُ ... ويُتوثَّقُ فيها ... بل تُرَدُّ وتُرفَضُ !!

فما هي الفروق العقليّة بين كِلا النّوعين من الأحكام ؟!

وأيُّهما أحرى - عقلاً - بالتَّسليم !! **هكذا هي طرائقُ (العقلانيّين) الجهلةِ !!!**

(١) انتهى النَّقلُ - بنوعٍ من التَّصرُّف - من كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » (ص:٩٩-١١٠) تأليف المستشرق النمساوي ليوبولدفايس، الذي اهتدى إلى الإسلام، وسمَّى =

ولم يلتفت (العقلانيُّون) - على اختلاف عصورهم ومراتبهم - في مناهجهم المنحرفةِ إلى أيٍّ من هذا القواعدِ والطُّرقِ والضَّوابطِ، فكان موقفُهم من السُّنَّة النَّبويَّة (الصَّحيحة) موقفاً مُضِلّاً !

(فهم يُشكِّكون في الأحاديثِ التي تَصطَدِمُ بمبادئهم ويُكذِّبونها، وإن عَلَتْ دَرَجتُها في الصحَّة، أو يؤوِّلونَها تأويلاً باطلاً، بل ويتجاوَزونَ هذا إلى تجريحِ راويها - لا أعني التَّابعيَّ أو تابعي التَّابعيِّ - بل الصَّحابيِّ الذي رواه عن الرَّسولِ ﷺ ! يفعلون هذا إذا ما كان مُصادماً لمبدإٍ من مبادئهم، بينما يستشهدون بالأحاديث الضَّعيفة، بل الموضوعة، ويَعَضُّونَ عليها بالنَّواجذِ لنُصرَةِ مذهبِهم الاعتزاليِّ !

ولا أدري أينَ هذا العقلُ الذي اتَّخذوهُ قائداً - كما يقولون - ؟

ألا يستطيعون به أن يُدرِكوا ضعفَ هذا الحديثِ حينما يَجِدونَ فيه من ركاكةِ الأسلوب وضَعفِ المعنى ما يُبعدهُ عن البلاغةِ النبويَّة وأن يُدركوا به صحَّةَ هذا الحديث لِما يُوجَدُ به مِن قَبَسٍ مِن نورِ النبوَّةِ، وحِكَمٍ من ينابيع الوَحي، ممَّا يجعلُ القلبَ السَّليمَ يطمئنُّ إليه، **بَلْهَ الاستنادَ إلى أقوالِ أئمَّة المُحدِّثين في سندِهِ ومَتنِهِ تَصحيحاً وتَضعيفاً .**

بل إنَّ طريقتَهم هذه تَدُلُّ - وأكادُ أن أقولَ : يقيناً - على أنَّ مِقياسَ أَخْذِهم الحديثَ وَرَدِّهُ لم يكن سائراً على منهجهم - الذي يزعمونَ - بل كان منهجُهُ منهجَ الهَوى .

= نفسَه (محمَّد أسَد) .

ولستُ أقولُ هذا اعتباطاً وعصبيَّةً ! وإنَّما أقوله استناداً إلى كثرةِ ما رأيتُه من رَدِّهم لأحاديثَ صحيحةٍ متَّفقٍ على صحَّتها، وتمسُّكهم بأحاديث لا أقولُ : ضعيفةٍ ! بل جزمَ أئمَّةُ الحديثِ بوضع كثيرِها !!

أفلم يكُن في منهجهم بصيصٌ من نورٍ يجلو لهم تلك الحقائقَ في الظُّلماتِ التي انقادُوا إليها ...

وحتى لا يُقال : تلك تُهمةٌ لم تَذكُر دليلَها أُشيرُ هنا إلى بعض الأحاديث الصحيحة التي أنكروها أو شكَّكوا في صحَّتها وأوَّلوها تأويلاً باطلاً !

فمن الأحاديثِ التي أنكروها أو تأوَّلوها : أحاديثُ رُؤيةِ اللَّه سبحانه للمؤمنين يومَ القيامة؛ لا لِضَعفٍ في سَنَدها، بل لمُخالَفتِها لمذهبهم في إنكارِ الرُّؤيةِ ! مع أنَّها متواترةٌ، ورواها أصحابُ « الصحاح » و « المسانيد » و « السُّنن »[1]، منها حديثُ جَريرِ بن عبداللَّه البَجَلي رضي اللَّه عنه قال : - « كنَّا جُلوساً مع النَّبيِّ ﷺ فنظرَ إلى القمرِ ليلةَ أربعَ عشرةَ، فقال : « إنَّكم سَتَرَونَ ربَّكم عَياناً، كما تَرونَ هذا، لا تَضَامُّون في رؤيَتِهِ »[2].

وقد روى أحاديثَ الرؤيةِ نحوُ ثلاثين صحابيّاً[3]، ومع هذا كُلِّه لم تَلْقَ

---

(١) انظر « شرح العقيدة الطحاوية » (ص:٢٠٩) .

(٢) متفق عليه .

بل لقد صنَّف الإمامُ الدَّارقطني كتاباً كبيراً اسمهُ « كتابُ الرؤية » جمع فيه المرويّات الواردة عن الصَّحابة في هذه المسألة العقائديَّة المهمَّة .

(٣) « شرح العقيدة الطحاوية » (ص:٢١٠) .

القَبولَ لدى المعتزلة، مع علمهم بها واطّلاعهم عليها؛ فالقاضي عبدُالجبَّار المُعتَزلي يقول عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ للَّذينَ أحسَنُوا الحُسنى وزِيادةٌ ﴾: « أليسَ المرادُ بها الرؤيةَ على ما **رُوِيَ في الخبرِ** ؟ وجوابنا أنَّ المرادَ بالزِّيادةِ التَّفضيلُ في الثَّواب، فتكونُ الزيادةُ من جنسِ المَزيدِ عليه، وهذا مرويٌّ، وهو الظَّاهرُ، فلا معنى لِتَعَلُّقِهم بذلك ! وكيفَ يَصِحُّ ذلك لهم وعندهم أنَّ الرؤيةَ أعظمُ من كلِّ الثوابِ، فكيفَ تُجعَل زيادةً على الحُسنى ؟ »[1] !!!

ومنها حديثُ « ما من بَني آدمَ مولودٍ إلّا يَمَسُّه الشيطانُ حين يولَدُ فَيَستَهِلُّ صارخاً مِن مسِّ الشيطانِ غيرَ مريمَ وابنها »، وقد رواه البخاريُّ ومسلمٌ وأحمدُ رضي اللَّه عنهم[2]، ومع هذا يقولُ الزَّمخشريُّ[3] عنه : « وما يُروى من الحديثِ : « ما من مولودٍ يولدُ إلّا والشيطانُ يَمَسُّه حين يولَد فيستهلُّ صارخاً من مَسِّ الشيطان إيَّاه إلّا مريمَ وابنَها » **فاللَّهُ أعلمُ بصحَّته** ! فإنْ صحَّ فمعناه أنَّ كلَّ مولودٍ يطمعُ الشيطان في إغوائِهِ إلّا مريمَ وابنَها، فإنَّهما كانا مَعصومَين، وكذلك مَن كان في صفتهما ... واستهلالُهُ صارخاً من مَسِّه تخييلٌ وتصويرٌ لطَمَعِهِ فيه ... وأمَّا حقيقةُ المسِّ والنَّخْسِ كما يتوَهَّم **أهلُ الحَشوْ** فكلّا » !

فشكَّكَ في صحَّةِ الحديثِ أوّلاً، ثمّ أوَّله تأويلاً باطلاً، وحَمَلهُ على أنَّهُ

---

(١) « تنزيه القرآن عن المطاعن » (ص:١٧٧) للقاضي عبدالجبّار !! وهو كلامٌ ساقطٌ .

(٢) والحديث في « الصحيحين » من حديث أبي هريرة، وفي آخره : قال أبو هريرة : اقرأوا إنْ شئتم : ﴿ وإنِّي أُعيذُها بكَ وذريَّتها مِن الشَّيطان الرَّجيم ﴾ [آل عمران:٣٦] .

(٣) في « تفسير الكشاف » (٤٢٦/١) .

تخييلٌ وتصويرٌ، وعمَّم الاستثناءَ على المعصومين، مع قَصْرِه في الحديثِ على مَريمَ وابنِها، عليهما السَّلام !! [ثمَّ طَعَن في المُسَلِّمين به !!] .

فانظر إلى تناقضهِ واضطرابه !

وتجاوَز المعتزلةُ (وأشياعهُم) هذا إلى تكذيبِ الصَّحابة وتَجريحِهم، بل تَجاوَزوهُ إلى سبِّهم - رضي اللّه عنهم - إذا كان ما رَوَوْهُ يُخالفُ أصولَهم، فقال النَّظَّامُ المُعتزليُّ في حقِّ عبداللّه ابن مسعودٍ رضي اللَّه عنه : « وَزَعَمَ أنَّ القمرَ انشقَّ، وانَّهُ رآه، وهذا من **الكذبِ** الذي لا خفاءَ به[1] » !

وقال - أيضاً - في حقِّ سَمُرَة بن جُندُب رضي اللَّه عنه : « ما نَصنعُ بَسَمُرَةَ قبَّحَ اللَّهُ سَمُرَة »[2] !!!)[3].

فماذا نقولُ في هؤلاء النَّاسِ ؟! الذين جَمَعوا بين (الجهلِ) و (العقلِ) ؟! وقَرَنوُا بين زَعمِ (المنهجيَّة) و (الاضطراب) !!

وهم في ذلك كلِّه لا يُوقِّرونَ سنَّةً، ولا يُبجِّلونَ أثراً :

وعليه؛ فإنَّ « للعقلانيِّين مِن سُنَّة رسول اللَّه ﷺ موقِفاً رديئاً، قائماً على : الاجتراءِ والتَّطاوُلِ عليها، وعدمِ المبالاةِ بالقواعدِ التي قعّدها أهلُ

(١) « تأويل مختلف الحديث » (ص:٢١) لابن قُتيبة .

(٢) « تاريخ بغداد » (ص:١٧٦/١٢) للخطيب البغدادي .

وغزاليُّ العصر الحاضر سار على هذا المِنوال ذاته، فاجترأ على عددٍ من الصحابة، ولاكَهم بفيه، وكواهم بِلَذْعَةِ لسانِه، من غير وازِعٍ ولا رادعٍ؛ فانظر كتابه « **شموم داعية** » (ص:١١٨)، وكتابه في نقد « السنَّة النَّبويَّة ... » (ص:٢٧) و (١٢٣) !!!

(٣) « منهج المدرسة العقلية » (٦٢-٦٤) بتصرّف .

الحديثِ، والتزمَ بها المُجتهدون من الأُمَّةِ ...

وهم يكادون يكونونَ قرآنيِّين[1] لشدَّةِ تجرُّئهم على السُّنَّة، وشدَّة تعويلهم على النَّصِّ القرآنيِّ وحدَه .

وتاريخُ الفرِق الإسلاميَّةِ يَذكُرُ بوضوحٍ أنَّ المعتزلة هم أوَّلُ مَن فعلَ ذلك، وعلى وَجهِ التَّحديد كان إبراهيمُ بنُ سيَّار النَّظَّام بالذات هو الذي أرادَ ذلك .

فهُم - إذَن - يخترِقونَ الضوابطَ الحديثيَّة التي قامَ عليها الجهابذةُ، والتي استقرَّت منذُ بَدءِ الاهتمامِ بجمعِ السُّنَّة وتَدوينِها، بل هم كثيراً ما يردُّونَ الصحيحَ ويقبَلونَ الضَّعيف !!

بل لا تقومُ لهم قائمةٌ - أصلاً - إلّا بنقضِ القواعدِ، وهَدمِ الأُسُسِ .

واختَرعوا قاعدَتين جديدَتين لعلمِ المصطلح؛ أُولاهما (علَّة الشُّذوذ العقلي) !! لِرَدِّ الصَّحيح، وقاعدة (نور النبوَّة) ! لِقَبولِ الحديث الضَّعيف .

والشُّذوذُ العقليُّ عندهم هو ردُّ الحديثِ الصَّحيح الذي لا يُوافقُ العقلَ !! أمَّا قاعدةُ (نور النبوَّة) فأعني بها أن يكونَ الحديثُ (مَضروباً) قد تَرَكهُ العلماءُ المختصُّون ورَفَضُوه ! لكنَّ هؤلاء يقبَلونَه لأنَّ عليه (نورَ النبوَّة) !! »[2].

---

(١) انظر موقف المعتزلة من السُّنَّة، ومدى صلة ذلك بالقرآنيِّين، في كتاب : « القرآنيُّون وشبهاتهم حول السُّنَّة » (ص:٨٨-٩٨) تأليف : خادم حسين إلهي .

(٢) « العقلانيَّة : هداية أم غواية ؟ » (ص:١١٩) .

بل (اخترعَ) لهم حُسين أحمد أمين قاعدةً غارقةً في الضَّلال لردِّ السُّنَّة النبويَّة المشرَّفة، وهي (**ردُّ كلِّ ما يمجُّه التَّفكير السَّليمُ**)[1] !!!

وهي قاعدةٌ **ممجوجةٌ** يردُّها - ابتداءً - التفكيرُ المُستقيم .

وإنْ أطلَقَ هذه القاعدةَ عَلمانيٌّ مُتطاولٌ، لكنَّها مُستخدمةٌ ومقبولةٌ - من الناحية العمليَّة - عند كلِّ واحدٍ من مُنتَسبي هذه (المدرسة العقلانيَّة) حتى لو كان ممَّن يُوصف بأنَّهُ مِن : (الدُّعاة) أو (الرُّموز الإسلاميِّين) !!

وهذه القاعدةُ - في حقيقتها - **نَسفٌ للدِّين** كلِّه؛ كتاباً وسُنَّةً، لأنَّها تعني إخضاعَ السُّنَّة للنظرةِ الماديَّة السَّطحيَّة، وبالتَّالي قَبولُ ما يُستساغُ عقلاً ! وَرَدّ ما (**يمجُّهُ التَّفكيرُ السَّليم**) ! على حدِّ زعمهِ الفاسدِ !

وهذا - كما قلت - « هدمٌ للسُّنَّة، وتقويضٌ لمعالِمها تحتَ مُسمَّى (العقلنةِ) وإعمال الدِّماغ في نُصوصِ الشَّرعِ الثَّوابتِ .

بل إنَّ التَّعامُلَ مع النُّصوص بهذه الطَّريقةِ يُؤدِّي في النِّهايةِ إلى إنكارِ القُرآن الكريمِ نفسِه، فقد تحدَّث القرآنُ عن كثيرٍ من الخوارقِ والمغيَّبات التي لو أخضَعناها لهذه **النَّظرةِ الغبيَّةِ** لَرَدَدنا القرآنَ الكريمَ نفسَه .

وهذا الخطأُ الجذريُّ المنهجيُّ الذي يتعصَّبُ - بجهلٍ بالغٍ - لمصدرٍ مُعيَّنٍ من مصادر المعرفةِ البشريَّةِ - العقل -، ويُحاولُ أن يُسلِّطهُ على المصادر الأُخرى، استجابةً للنَّزعةِ الحِسِّيَّة - أو (العقليَّة المجرَّدة) - هو الذي

---

(١) « دليل المسلم الحزين » (ص: ٧٠)، و « مجلَّة الدوحة » القَطَرية عدد كانون ثاني سنة ١٩٨٣ .

انتهى بالكثيرين إلى نَبذِ السُّنَّة النبويَّة كلِّها، بل إلى الانتقالِ إلى القرآنِ الكريم نفسِه في مُحاولةِ تفسيرِه تفسيراً تعسُّفيّاً مُصطنعاً بُغيةَ إخضاعِهِ لمنطقِ العقلِ ونتائجِ التَّجاربِ (المَعْمَليَّةِ)، ولم يتيسَّر ذلك لأحدٍ إلّا بإنكارِ غيبيَّات الدِّين .

إنَّنا لا بدَّ لنا أن نُسلِّم - ابتداءً - أنَّ هناكَ حيِّزاً - ليس في العقائد وحدَها أو القرآن وحدَه، بل في السُّنَّة أيضاً - لا يَقتربُ منه العقلُ، وأنَّ هُناكَ آفاقاً يَعمَل فيها العَقلُ بِمقدارٍ، وآفاقاً أُخرى هي للعقلِ وحدَه دونَ مُنازعةٍ من نصٍّ شرعيٍّ، اللهمَّ إلّا بعضَ القواعدِ العامَّةِ التي تُحدِّد إطاراً كُلِّيّاً للصُّورةِ دونَ تَدخُّلٍ في أجزائها وتَفصيلاتها »[١].

بل إنَّنا نقول[٢] مُلزِمين لهؤلاءِ (العقلانيِّين) الجَهَلَةِ :

« لماذا لا نُخضعُ القرآنَ الكريمَ أيضاً لسُلطانِ العقلِ، وهو يشاركُ السُّنَّة في مخالفةِ العلمِ التَّجريبيِّ - **كما يدَّعي العقلانيُّون وأشياعُهم** - في عَددٍ من الآيات - وقد طالَبَ بعضُ أساتذةِ الفلسفةِ مؤخَّراً بشيءٍ من هذا القَبيل - ؟! وإذا لم نُخضع القرآن الكريم لمَنطقِ العقلِ - مثل السُّنَّة - فكيف نُحافظُ على ثقة[٣] (النَّاشئة) فيه ؟

---

(١) « العقلانيَّة » (ص:٥٠) - بتصرّف يسير .

(٢) « أساطير المعاصرين » (ص:١٣٣) للدكتور أحمد عبدالرَّحمن - بتصرّف يسير .

(٣) إذ هذه - نفسُها - هي علَّةُ (العقلانيِّين) في كلامهم على السُّنَّة، وتشكيكهم بنصوصها، و (ردودهم) عليها !؟

وهي حجَّةٌ داحضةٌ، فعلماؤنا لم يتركوا منفذاً من ذلك إلّا وأغلقوه بقواعد العلم وأصوله .

إنَّ للتعامل مع النُّصوص - والنُّصوصُ الحديثيَّةُ خاصَّة لأنَّها خاضعةٌ **في طُرق تلقِّيها** لبعضِ المعاييرِ الاجتهاديَّة - أدباً ينبغي أن يتحلَّى به صغارُنا وكبارُنا :

فقبلَ أن أُعالجَ أيَّ حديثٍ ينبغي أن أستَوثقَ أوَّلاً من ثبوته وصحَّة إسناده، من خلال آراءِ « المُختصِّين » من أهل الذِّكر الذين قَبِلَتهُم الأُمَّةُ كلُّها، واتَّفَقَت على تَعديلهم وتَوثيقِ أحكامهم، ومن خلالِ القواعدِ المتَّفقِ عليها - أصولاً - منذ دُوِّنَت علومُ الحديث .

وليسَ مَعنى ذلك أنَّنا نجعلُ أحكامَهم مُقدَّسةً - كما زَعمَ ذلك غيرُ واحدٍ من العقلانيِّين - بل إنَّ قيمتَها الفعليّةَ أَتَت مِن تقبُّل الأُمَّة لهذه الأحكامِ والأُصولِ التي بُنيَت عليها على مَدارِ هذه الحِقبةِ الزّمانيَّة المتطاولةِ، ومِن تقبُّل واستفادةِ أعلامِ الأُمَّة وكبارِ الأئمَّة لها - وهُم مَن هُم عقلاً وعلماً وورَعاً وقَبولاً - كالأئمَّة الأربعةِ، وكبار رجالاتِ الحديث كالبخاريِّ، ومسلم، وابن حجرٍ، والقَسطلانيِّ، والبَغويِّ، والذَّهبيِّ، وابن كَثيرٍ، وابن تيميّة، وابنِ القيِّم، رضيَ اللَّهُ عنهم جميعاً .

وَعلينا - كذلك - أن ننظُرَ في المتنِ وفحواهُ وصحّته - بعد ثبوت السَّند - **وَفقاً للمقاييسِ العلميَّة الصّحيحة المقرَّرةِ** - أيضاً - عند علماءِ الأُمَّة رحمهم اللّه .

« ونشيرُ هنا إلى أنَّ بعضَ المعاصرين - من (العقلانيِّين) وأذنابهم - فَجّرُوا - جَرياً على أكاذيب المناهج الاستشراقيّة - أكذوبةً باردةً، وصدَّقوها

- مثلَ وليمةِ جُحا - وصدَّقها مَعهم صِغارُ العقولِ سُفهاءُ الأحلام !

وفحوى هذه الأُكذوبة، أنَّ أهلَ الحديثِ رَكَّزوا على القالبِ أو الوعاء - أي : الإسناد - وأهملوا المَضمونَ ... أي : المتنَ !!

وعندي أنَّ هذا لا يقولهُ إلّا غافلٌ، أو مُستغفلٌ للنَّاس، أو **جاهلٌ**[1] :

فالاهتمامُ بالمتنِ لم يكُن - بأيِّ حالٍ - دونَ الاهتمامِ بالسَّندِ عندَ السَّلفِ والخَلَفِ من العارفين بعلوم الحديث، المختصِّين بها :

وإلّا فلماذا كَتبُوا عن الحديثِ الشَّاذِّ ؟

ولماذا كَتبُوا الكُتبَ عن العِلَلِ[2] ؟

ولماذا أَلَّفوا في النَّاسخِ والمنسوخِ ؟

ولماذا كَتبُوا في مُختلفِ الحديثِ ومُشكِلِ الآثارِ ؟!

ولماذا كَتبُوا في الغريبِ ؟!

أليسَ هذا كُلُّه اهتماماً بالمَضمونِ، أي : المَتن ! »[3].

ولقد قام عَددٌ مِن الدارسين المعاصرين من طلّاب العلمِ بتفنيدِ هذه الشبهةِ المتهاوية، وأَلَّفوا في ذلك تصانيفَ مستقلَّةً، من ذلك كتابُ « اهتمام **المحدِّثين** بنقدِ الحديثِ سنداً ومتناً، ودَحض مزاعم المستشرقين وأتباعهم »

---

(١) وهذه هي حقيقةُ (عقول) هؤلاء !! أنَّهم جَهَلةٌ، غارقون في جهلهم !!

(٢) وقد قسَّموا الكلامَ على هذا - وما قبلَه - إلى نوعين : سنداً، ومتناً .

(٣) « العقلانيَّة » (ص:٥٢-٥٣) .

للدكتور محمد لقمان السَّلفيّ، ويقعُ الكتابُ في نحو سِتِّ مئة صفحة، وكتابُ « مقاييس نقد مُتون السُّنَّة » للدكتور مُسفِر غَرم اللّه الدُّمَيني، وحجمُه كمثلِ سابقِهِ .

وهناك كتاباتٌ أُخرى في البابِ نفسِه، للدكتور محمود الطحَّان، والدكتور نجم خلف، وغيرهم كثير .

فهل يقول بعد ذلك كلِّه مُستشرقٌ أو (**مُتَمَعْقِلٌ**) : إنَّ الأُمَّة - متمثِّلةً بمُحدِّثيها - قد أهملت دراسةَ متون المرويَّات !!

... حتى جاءَ هؤلاء النَّفر (يَركبون) عقولَهم ! ليَسُدُّوا (النَّقصَ) الذي أهمَلتهُ الأُمَّةُ حيناً من الدَّهر ؟!

سبحانَك ربِّي هذا بُهتانٌ عظيمٌ !

ثمَّ بعد هذه الجولة الشَّاملة التي بيَّنَت حقيقةَ موقفِ (هؤلاءِ) من السُّنَّة، انظر - بالتالي - إلى هذا الهجومِ الغاضبِ، الشَّديدِ العاصفِ، من (الأزهريِّ) محمَّد الغزالي على دُعاةِ السُّنَّةِ وأهلِ الحديث، الذين أرَّقُوا - بفضلٍ من اللّهِ ومنَّةٍ - مضاجعَ أهلِ الأهواء والبدعِ، وأصحابِ الرَّأي والجَهلِ؛ - من العقلانيِّين ومَن شايعهم - بردُودهم عليهم، وتحذيراتهم منهم؛ فيقولُ - عفا اللّه عنه - بهَيَجانٍ ظاهر وكلامٍ ثائر في كتابِهِ « دُستور الوحدة الثَّقافيَّة ... » (ص:١٩٦) مُخاطباً أولئك خصوصاً :

« إنَّكم تنطَلقونَ كالزَّنابير الهائجةِ تلسَعونَ هذا وذاك **بِاسْمِ الحديثِ**

النَّبويِّ والدِّفاع عن السُّنَّة ! ونحن نعرفُ أنَّ آباءَكم (!) قتلوا عليّاً باسْمِ الدِّفاع عن الوَحدةِ الإسلاميَّة (!) وقتلوا عثمان باسْم الدِّفاع عن النَّزاهةِ الإسلاميَّة (!) وقتلوا عمر باسْم الدِّفاع عن العدالة الإسلاميَّة !! فيا أولاد الأفاعي إلى متى تَتستَّرونَ[1] بالإسلام (!) لضربِ الرِّجال الذين يَعيشون له (!) ويجاهدونَ لنُصرَتهِ ؟ ولحسابِ مَن تُكِنُّون هذه الضَّغائنَ عليهم وتَسْعَوْنَ جاهدينَ للإيقاع بهم وتحريشِ السُّلطات عليهم ؟ » !!!

... هذا كلامُهُ هنا وفي هذا الموضع !! بينما هو يقول في الكتاب نفسه، وقبل هذا الموضع بنحو ستين صفحة (ص:١٣٣) :

« إنَّ اختلافَ وجهاتِ النَّظر في التشريعات الفرعيَّة **حقيقةٌ إنسانيَّةٌ** وإسلاميةٌ لا محيصَ عنها، ونشوءُ مدارسَ كبرى وصُغرى على محاورَ قانونيةٍ مختلفةٍ أمرٌ لا غضاضة فيه، ولا شرَّ منه » !!

فما باله - هداهُ اللَّه - يخالفُ (بشماله !!) ما سطَّره بيمينه[2] ؟!

---

(١) علّق الأخ الشيخ سلمان العودة في كتابه « حوار هادىء » (ص:٨٢) على هذه الكلمة بقوله:

« مَن هُم الذين يتستَّرون لضَربِ الرِّجالِ ؟ مَن هؤلاء الرِّجال الذي ضربهم أولئك **الَّذينَ ينتسبونَ إلى الحديثِ النَّبويِّ والسُّنَّةِ النبويَّة** ؟ هل يقصد الشيخ الغزالي نفسه بهذا الكلام ؟ أو لا ؟ فليذكر لنا واحداً من ضحاياهم !

إنَّنا لا نعلمُ أنَّ **حملة السُّنَّة والحديث** عملاء، إنَّما نعرف أنَّهم يتعرَّضون هم للمضايقات في كثير من الأمصار، وعلى العكس من ذلك غيرُهم، يتمتَّعون بالسمعة، وإتاحة أجهزة الإعلام لهم للحديث كيفما يشاؤون، ويتقلَّبون في المناصب، ويطرحون الفتاوى على النَّاس » .

(٢) وهو (!) يقولُ في الكتاب نفسه (ص:٢٣١) : « إنَّ الإسراعَ في اتِّهام النَّاس، =

ولكنَّ مُخالفتَهُ هذه ليسَتْ على كلٍّ (المدارس) - صغرى أو كبرى - !! ولكن - **فقط** - على أهل الحديث وأصحاب السُّنَّة !!

حتى النَّصارى منهم؛ فهم عنده مقبولون !! فهو يصفُ (الأنبا شنودة) (!) بِـ (الأخ العزيز، الرَّئيس الدِّيني لإخواننا الأقباط)[1] !!

ويُساوي - في كتابه « حصاد الغرور » (ص:١٦٨) - مِن حيثُ الإخوَّةُ بين (إخواننا المسلمين ... وإخواننا المسيحيِّين) !!

وأمَّا كلامُهُ عن الرَّوافض، ومُلايَنتُهُ لهم، ومُلاطفتُهُ إيَّاهم ... فحَدِّث ولا حَرج !!

إذن؛ فكلامُه على أهل الحديث وأصحاب السُّنَّة يعكس موقفاً (منهجيّاً) **من السُّنَّة ذاتِها**، بنى عليه فكرَه، وأسَّسَ عليه (عَقلَهُ) !!!

إذ إنَّ « التَّهاونَ في أمرِ السُّنَّةِ النبويَّة قد وصلَ مَع الغزاليِّ إلى مدىً يُشيرُ فيه إلى (تعجُّبِهِ) من وجودِ بَعضِ الأحاديث - **حتى اليومَ** - في كُتبِ السُّنَّةِ رغمَ مُخالفةِ صحابيٍّ أو آخَر لدلالتِها، ممَّا يعني أنَّ الأمرَ لو كان بيدِه (!) لَحَذفَ هذه الأحاديثَ من كتبِ السُّنَّة ! وهي بادرةٌ تُثيرُ القَلَقَ مِن تصوُّرِ وَفَهمِ (الطَّائفةِ) التي يتحدَّث الشيخُ (بلسانها) بالنِّسبةِ للحديثِ الشَّريف، وما يُمكنُ أن يقعَ للسُّنَّة لو آلَ الأمرُ إليهم، أو كانت لهم به

= وتلويث سُمعتهم ليس ديناً، والحِكمةُ في معالجة الأخطاء مطلوبةٌ » !!!

(١) « حوار هادىء ... » (ص:٧٧) .

قُوَّةٌ »[1]، لا قدَّر اللَّه !!

« والحقيقةُ أنَّ استهتار الغزالي في تناولِه للسُّنَّة، وحديثِه عنها، يمتدُّ حتى تعبيراتِه التي يصوغُ بها فَهْمَه للمَوقفِ من الحديث ! هذه التَّعبيراتُ التي أجزِمُ بأنَّها جاءَت - في كثيرٍ من الأحيان - مُجانبةً للصَّواب، ومجافيةً للذَّوقِ العلميِّ !

خُذ مثلاً على ذلك قولَه في مَوقفِ الفُقهاءِ من السُّنَّة :

« كان أئمَّةُ الفقهِ الإسلاميِّ يُقرِّرونَ الأحكامَ وَفقَ اجتهادٍ رَحْبٍ، **يعتمدُ على القرآنِ أوَّلاً**[2]، فإذا وَجَدوا في **رُكام المَرويَّات** ما يتَّسقُ معه قَبِلوه، وإلّا فالقُرآنُ أولى بالاتِّباع »[3].

وأرجو أن يُعيدَ القارىءُ النَّظرَ طَويلاً في تَعبير (**رُكام المَرويَّات**)، ثمَّ يسأل نَفسَهُ : هل مثلُ ذلك التَّعبير ممَّا يليقُ التلفُّظُ به عن سُنَّةِ أشرَفِ المُرسلين ؟!

إنَّ تعبير (رُكام) لم يَعُد لَفظاً يَسيراً ! أو مُفردةً لغويَّةً جامدةً ! وإنَّما أصبح (اصطلاحاً) فِكريّاً يَختزلُ إيماءاتٍ وإيحاءاتٍ، تُعطي معنى (الدُّونِيَّة) وما يُزدَرى به، وما لا يُعبأُ به، وما يُستهانُ فيه، وما قلَّت قيمتُهُ أو

(١) « أزمة الحوار الديني » (ص:٤٥) جمال سلطان .

(٢) وهذا هو المنهجُ المَنكُوس الذي اعتمدَ عليه (القرآنيُّون) و (العلمانيُّون المُبَطِّنون) في هَدم السُّنَّة، ونَقضِ عُراها !!

ولكن ... ﴿ إنَّ ربَّك لَبالمِرصاد ﴾ ...

(٣) « السُّنَّة النبويَّة بين أهل الفقه وأهل الحديث » (ص:١٨) !

عُدِمَت .

إنَّ تعبيرَ (الرُّكام) لا يَصلُحُ بحالٍ أن يُعبَّر به عن السُّنَّة النَّبويَّة الشَّريفة .

هذا إذا تجاوَزنا الالتفاتَ إلى (التَّوهين الموضوعيِّ) مِن مَكانةِ السُّنَّة في التَّشريعِ الإسلاميِّ، عندما نَسَبَ إلى « الفُقهاء » - ولا أدري مَن هُم في نَظرِهِ ! - أنَّهم يَعتمدونَ على القرآن أوَّلاً، ثمَّ يبحثونَ عمَّا يتَّسِقُ مَعه من الحديث !!

فأينَ مِن هذا قواعدُ الجمعِ بين النُّصوص ؟

وأين مِن ذلك قواعدُ تقييدِ المُطلق، وتخصيصِ العامِّ، وبيانِ المُجمَل ؟

بل أينَ مِن ذلك حديثُ رسولِ اللَّه ﷺ : « ألا وإنَّ ما حرَّمَ رسولُ اللَّه مِثلَ ما حرَّمَ اللَّهُ »[1].

ولَقَد سبقَ في مواضِعَ متعدِّدةٍ من هذا الكتاب ذِكرُ صُوَرٍ - أُخرى - عن هذا الغزاليِّ[2] وغيرِه ممَّن لم يَرفَعوا بالسُّنَّة رأساً ... فتعامَلوا معها بسفاهةِ

---

(١) « أزمة الحوار الديني » (ص:٤٧-٤٨) بتصرُّف .

والحديثُ اخرجه الترمذي (٢٨٠١)، وابن ماجه (١٢)، والدارمي (٥٩٢)، وأحمد (١٣٢/٤) وغيرهم بسند صحيح .

(٢) والكلامُ حول الغزاليِّ وموقفهِ من السُّنَّة مُتَشَعِّب الأطراف؛ فهو - هداه اللَّه - يقرِّر في مقدِّمة « فقه السِّيرة » (ص:٩-١٣) أنَّه قد يردُّ الحديثَ الصحيحَ، أو يقبلُ الحديثَ الضَّعيفَ لاعتباراتٍ ذهنيَّةٍ مَحضَةٍ !!

وهذا منهجٌ يلزمُ منه - لزوماً لا انفكاك منه - هَدمُ قواعدِ المحدِّثين، وإفسادُ أصولهم !! =

شديدةٍ، وصفاقةٍ مديدةٍ، تَدلُّ على ضيقٍ في العَطَن، وانحسارٍ في النَّظر، وبُعدٍ عن الجادَّةِ، وانحرافٍ في المنهج .

فلا نُطيلُ - أكثرَ - في كَشفِ مواقفهم، وفَضحِ انحرافاتهم، وهَتكِ أستارهم !

فاحفَظْ وُقِيتَ فَتَحتَ رِجلِكَ هُوَّةٌ
كم قَد هَوى فيها مِن الإنسان !

ورحمَ اللَّه مَن قال - مع الاعتذار من التَّحويرِ !! - :

وللحديثِ رجالٌ يُعرَفونَ بهِ
وَ (للتَّساويد) نُسَّاخٌ وكُتَّابُ

وانظر - رحمك اللَّه - إلى هذه النصيحةِ الذَّهبيَّة الغالية، من الإمام الحافظ المُحدِّث شمس الدِّين الذَّهبيِّ الذي توفِّي قبل ميلاد (عقول) هؤلاء (القوم) بقرونٍ؛ يقولُ -رحمه اللَّه - **مُوجِّهاً** مَن ينتهجونَ نَهجَ السُّنَّة والحديث، **ومُحذِّراً** ممَّن ينتحلون مَنهجَهم، ويَلبسون لَبوسَهُم :

« فحقٌّ على المُحدِّث أن يتورَّعَ فيما يُؤدِّيه، وأن يسألَ أهلَ المعرفةِ والوَرعِ؛ ليُعينوهُ على إيضاحِ مَرويَّاته .

= فانظر ردّاً لهذا الباطل - زيادةً على ما سبق - في كتاب « زوابع في وجه السُّنَّة » (ص:١٧٧-١٩٠) للأخ صلاح الدين مقبول أحمد، وفي كتاب « مرويَّات غزوة بدر » (ص:٤٧-٥٢) لأحمد العُليمي باوزير .

ولا سَبيلَ إلى أن يَصيرَ العارفُ الذي يُزَكِّي نَقَلَةَ الأخبار، ويُجرِّحُهم جِهبذاً، إلّا بإدمانِ الطَّلبِ، والفحصِ عن هذا الشأنِ، وكَثرةِ المُذاكرة، والسَّهر، والتيقُّظ، والفهم، **مع التَّقوى، والدِّين المتين، والإنصاف**[1]، والتردُّد إلى مجالسِ **العلماء**[2]، والتَّحرِّي والإتقان ...

... وإلّا تَفعَل :

فَدَع عَنكَ الكتابةَ لَستَ منها

وَلو سَوَّدْتَ وَجْهَكَ بِالمِدادِ

قال اللَّه تعالى عزَّ وجلّ : ﴿ فَاسْأَلُوا أهلَ الذِّكرِ إنْ كُنتُم لا تَعلَمون ﴾ .

فإنْ آنستَ **يا هذا** مِن نَفسِكَ فهماً، وصِدقاً، وديناً، وَورعاً؛ **وإلّا فَلا تَتَعَنَّ !**

وإنْ غَلَبَ عليك الهوى والعصبيَّةُ، لِرَأْيٍ ولمذهب؛ فباللَّهِ لا تَتعَب[3] !!

وإنْ عَرَفتَ أنَّك **مُخلِّطٌ، مُخبِّطٌ**، مُهملٌ لحُدودِ اللَّهِ، **فأرِحنا مِنكَ** !!!
فَبعدَ قليلٍ **ينكشفُ البَهرَجُ**، ويَنكَبُّ الزَّغَلُ !!

﴿ وَلا يَحيقُ المكرُ السَّيِّئُ إلّا بأهلِهِ ﴾ ... » .

---

(١) أين هؤلاء (العقلانيّون)من هذه الصِّفات العَلِيَّة !؟

(٢) لا المُتعالِمين الأغمار !!

(٣) هذه (**لكُم**) يا مَن ضاقَت صدُورُكم بالحقِّ وأهلِ الحقِّ !

الفصل السَّابع

السَّلَف .. والعقلُ والنقلُ

إنَّ مِن سماتِ العقل الإسلاميِّ الصَّريح أنَّه « يرفضُ كلَّ عنصرٍ غريبٍ عليه، ولو كان هذا العُنصُر اصطلاحاً تعبيريّاً مِن الاصطلاحاتِ التي تَقتَضيها أزياءُ التَّفكيرِ الأجنبيَّةُ، فَكُلُّ اصطلاحٍ له تاريخٌ مُعيَّنٌ، وله إيحاءاتٌ معيَّنةٌ مُستمدَّةٌ من ذلك التَّاريخ، ولا يُمكنُ تجريدُهُ من هذه المُلابَساتِ والزَّجُّ به في مجالٍ جديدٍ »[1] .

ولكنَّ هذه السِّمةَ الرَّفيعةَ لا يجوزُ أنْ تُؤخَذ مُلقاةً على عواهِنها، إنَّما الواجبُ فهمُها في ضَوءِ التَّزكيةِ الربَّانيَّةِ، والثَّناءِ النَّبويِّ على الجيلِ الأوَّلِ من هذه الأُمَّة؛ وهو جيلُ القُدوةِ والأُسوةِ؛ جيلُ القرونِ الثَّلاثةِ الأولى المشهودِ لها بالخيريَّة[2]، على لسانِ خير البريَّة .

وممَّا هو مُسلَّمٌ - يقيناً - أنَّ هذه الخيريَّة ليست خيريَّة زمانٍ

---

(١) « خصائص التصوُّر الإسلامي » (ص:١٠٧) سيّد قطب .

(٢) وهو قولُ النَّبيِّ ﷺ : « خيرُ النَّاس قرني ثمَّ الذين يلونهم، ثمَّ الذين يلونهم ... » . وهو **حديثٌ مُتواترٌ**، انظر له « نظم المتناثر » (رقم:٢٤٠) .

أجوفَ ...

... وليست هي - أيضاً - خيريَّة مكانٍ مُجرَّدٍ ...

... وليست هي - ثالثاً - خيريَّةَ لونٍ ... أو جنسٍ ... أو جسمٍ !!

إنَّما هي خيريَّةُ الفَهم والتَّصوُّر ... خيريَّةُ المنهج والطَّريق ... خيريَّةُ السُّلوك والسَّبيل ...

وهذا ما قالَهُ اللَّه سبحانَه في كتابه - شهادةً لهم غرَّاءَ عاليةً - :

﴿ وَمَن يُشاقِقِ الرَّسولَ مِن بعدِ ما تبيَّنَ له الهُدى ويتَّبعْ **غيرَ سَبيلِ المؤمنين** نُولِّه ما توَلَّى ونُصْلِهِ جهنَّمَ وساءَت مَصيراً ﴾ .

بل الإيمانُ المَقبولُ مِن المؤمنينَ لا يكونُ كذلك - حقّاً - إلّا إذا كان وَفْقَ إيمانهم ومَثلَه، يقولُ عزَّ شأنهُ :

﴿ فإنْ آمَنُوا **بمثلِ ما آمَنتُم بهِ** فقد اهتَدوا ﴾ .

... مِن أجلِ ذا كان الواجبُ اتِّباعَهم، والسَّيرَ على سَنَنِهم، وانتهاجَ نَهْجِهِم[1]؛ وفي ذلك يقولُ سبحانَه :

﴿ والسَّابقونَ الأوَّلونَ مِنَ المُهاجرينَ والأنصار **والَّذينَ اتَّبعوهُم بإحسانٍ** رَضِيَ اللَّهُ عنهُم وَرَضُوا عنهُ وأعدَّ لهُم جنَّاتٍ تجري تَحتَها الأنهارُ خالِدينَ فيها أبداً ذلك الفوزُ العظيمُ ﴾ .

---

(١) رُغمَ أنفِ التُّرابيِّ **وشيعتهِ** ! وانظر ما سبق (ص:٧٠) .

وقالَ جلَّ وعلا : ﴿ والسَّابقونَ السَّابِقونَ أُولئكَ المُقرَّبون ﴾ .

« وَقد عَلِمَ أهلُ العلمِ **والعَقلِ** أنَّ السَّابقَ أفضلُ من المسبوق، والتَابعَ دون المتبوعِ، وأنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ لم يُفضِّل النَّاسَ بعضَهم على بعضٍ بوثاقةِ الأجسام، ولا بصباحَةِ الوجهِ، ولا بُحسنِ الزِّيِّ، وكثرةِ الأموالِ !

ولو كانوا بذلك مُتفاضلين؛ لما كانوا عندَه مَمدوحين؛ لأنَّ ذلك ليس هو بهم، ولا مِن فِعلهِم .

فَعَلِمنا انَّ العُلُوَّ في الدَّرجاتِ، والتَّفاضُلَ في المنازل، إنَّما هو بفضلِ الإيمان، وقُوَّةِ اليقين، والمُسابقةِ إليه بالأعمالِ الزَّاكية، والنيّات الصَّادقة، مِن القلوبِ الطَّاهرة »[1].

ولقد ضربَ (العقلانيُّون) صَفْحاً عن كلِّ هذه البيِّنات - وغيرها كثير - جاعلينَ العودةَ إلى هَديِ السَّلف، والرُّجوعَ إلى سمتِ السَّلف : **خَطراً وَبيلاً، وشرّاً عظيماً !!**

يقول محمَّد عمارة (!) في كتابه « تحديّات لها تاريخ » (ص:٢٠٣) واصفاً (منهجيَّةَ) تيَّارِهِ (العقلانيِّ) بأنَّها : « لا تدعو للعودةِ إلى مُجتمع السَّلف ... لأنَّها تُدرِكُ استحالةَ ذلك ! فضلاً عن خَطرهِ ... وضرَرهِ » !!

بل (يتفاصَحُ)[2] حسين أحمد أمين - بصفاقةٍ ورقَّةِ دينٍ - واصِفاً

---

(١) « الإبانة عن شريعة الفرقة النَّاجية » (٨٣٦/٢) ابن بطَّة .

(٢) ويُمكن للصاد أن تُصبحَ عنده - وأمثالِه - ضاداً !!

جيلَ هذه الأُمَّةِ الأوَّلَ بأنَّهُ : « السَّلفُ الذي يُنعَت بالصَّالح »[1] !!

وما نَبَزاتُ (الغزالي) بعَددٍ من الصَّحابةِ وغيرهم عنك وببعيدةٍ[2] !!

وهذا - مَع ما قَبلَه - ناتجٌ عن جِنايةِ العقلِ واستعلائه الباطل (بالباطلِ)، وَعَدمِ وَضعهِ موضعَه الصحيح .

ولقد استوعبَ السَّلفُ الصَّالحُ هذا الأصلَ استيعاباً متيناً؛ عَرَفُوا مِن خلالِهِ يقيناً « أنَّ الدِّين إنَّما هو الانقيادُ والتَّسليمُ، دون الرَّدِّ إلى ما يُوجبُهُ العقلُ، لأنَّ العقلَ ما يُؤدِّي إلى قَبولِ السُّنَّة، وأمَّا ما يُؤدِّي إلى إبطالها فهو **جهلٌ، لا عَقلٌ** »[3].

فانظر إلى تَطبيقهم - رضي اللَّه عنهم - لهذا الأصلِ العظيمِ، وكيف أنَّهُ قد انشرحَت صدورُهم به، واطمأنَّت (عقولُهم) إليه :

○ فقد روى الشيخان - البخاريُّ ومسلمٌ - عن عبداللَّه بن مُغفَّل، قال : نهى النَّبيُّ ﷺ عن الخَذْفِ[4]، وقال : « إنَّها لا تصطادُ صَيداً، ولا تَنكأُ عَدوّاً، ولكنَّها تفقأُ العينَ، وتَكسرُ السنَّ » .

فقال رجلٌ لعبداللَّه بن مُغفَّل : **وما بأسُ هذا ؟**

---

(١) كما نقله عنه صاحبُ كتاب « العقلانيَّة .. » (ص:٨١) .

(٢) انظر ما سبق (ص:١٧٧)، وترى بياناً لذلك، ونقضاً له في كتاب « كشف موقف الغزالي من السنة وأهلَها » (ص:١٧-٢٠) لفضيلة الشيخ ربيع بن هادي .

(٣) « الحُجَّة في بيان المحجَّة » (٢/٥٠٩) للأصبهاني .

(٤) هو رَميُ الحصاةِ أو النَّواةِ بين الإبهامِ والسبَّابة .

فقال : إنّي أُحَدِّثُكَ عن النَّبيِّ ﷺ وتقولُ هذا ! واللَّهِ لا أكلِّمكَ أبداً !

فانظر إلى هذا المُعترض (بعقله) ! كيف عامَلَه الصّحابيُّ ؟! وبماذا قابلَهُ ؟!

مع أنَّ (اعتراضَه) جاءَ **مُؤدّباً** (!) وليس فيه (وقاحةُ) **عقلانيِّي القرن العشرين** !! الذين (**يقطع**) الواحدُ منهم بردِّ حديثٍ رواه البخاريُّ ومسلمٌ لكونه لم (يفهمهُ) ولم (يستوعبهُ) ! **لقصورِ عقلِهِ، وفداحةِ جَهلِهِ** !!

« فاعتَبِروا يا أُولي الابصارِ ! فشتَّانَ بين هؤلاءِ العُقلاء السَّادةِ الأبرارِ الأخيار؛ الَّذين مُلئت قلوبُهم بالغَيرَةِ على إيمانهم، والشُّحِّ على أديانهم، وبين زمانٍ أصبَحنا فيه وناسٌ - نحن منهم وبين ظهرانَيهم - »[1] يردُّون السُّنَنَ بمحضِ العقولِ، ويُبطلونها بفارغِ الأوهام !!

وهذه المقابلةُ بين (المُعترِضِ) بعقلِهِ، و (المُستسلم) بإيمانِهِ ويقينه تُبَيِّنُ بجلاءٍ ووضوحٍ لكلِّ مُنصفٍ ومُهتدٍ أنَّ « **العقلَ نوعان** : عقلٌ أُعين بالتَّوفيق، وعَقلٌ كِيدَ بالخِذلان :

فالعقلُ الذي أُعينَ بالتَّوفيق يَدعُو صاحبَه إلى مُوافقةِ أمرِ الأمرِ المُفتَرَضِ الطَّاعةُ، والانقيادِ لحكمِهِ، والتَّسليمِ لما جاءَ عنه، وتَركِ الالتفاتِ إلى ما خالفَ أمرَه، أو وافقَ نَهيَهُ؛ **غيرَ طالبٍ لذلك علَّةً**[2] **غيرَ ثُبوتِ الأمر والنَّهي**،

---

(١) « الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية » (١/٢٥٩-٢٦٠) لابن بطّة .

(٢) **وهذا - أخي طالبَ الحقِّ - هو المنهجُ الصحيحُ في تلقِّي أوامر الشرع؛ كتاباً =**

فيسعدُ باتِّباعِ الأمرِ واجتنابِ النَّهي .

والعقلُ الذي كِيدَ : يَطلُب بتعمُّقهِ الوصولَ إلى علمِ ما استأثرَ اللَّهُ بعلمهِ، وحَجَبَ أسرارَ الخَلقِ في فهمِهِ، حكمةً منه بالغةً؛ ليَعرِفوا عَجزَهم عن دَرْكِ غَيبِهِ ويُسلِّموا لأمرِهِ طائعين، ويقولوا كما قالت الملائكةُ : ﴿ لا عِلمَ لنا إلّا ما علَّمتنا ﴾[١].

فتفرّقت بهؤلاءِ القومِ - الذين ادَّعوا أنَّ **العقلَ** يَهديهم إلى الصَّواب - السُّبلُ والأهواءُ، وتلاعب بهم الشيطانُ؛ فزيَّنَ الباطلَ في قلوبهم، فلم يَصِلوا إلى بَردِ اليقين، وصدُّوا عن الصِّراطِ المستقيم .

وإذا تأمَّلتَ تعمُّقَهم في التَّأويلات المُخالفةِ لظاهرِ الكتابِ والسُّنَّة، وعُدولَهم عنهما إلى **زُخرفِ** القول والغُرورِ **لتقويةِ باطِلِهم**، وتقريبهِ إلى **القلوبِ الضَّعيفةِ** لاحَ لك الحَقُّ، وبان الصِّدقُ .

فلا تلتفت إلى ما أسَّسوهُ، ولا تُبالِ بما زخرَفوهُ، والْزَمْ نصَّ الكتابِ، وظاهرَ الحديثِ الصَّحيح - اللذين هما أصولُ الشرعيَّات - **تَقِفْ** على الهَديِ المستقيم »[٢].

ه ثم لْيَنظُرْ أولئكَ (العقلانيُّون) إلى هذا الخبرِ المرويِّ في

= وشنَّةً، دونَ التطلُّع والتشوُّفِ إلى ما يسمَّى عِلَل الأحكام، أو حِكَم المشروعيَّة ! فهما - في غالبِ الأمرِ - من الأمور العقليَّة الخالصة، التي كثيراً ما يكونُ خطؤها هو الغالبَ صوابَها !!

(١) البقرة : ٣٢ .

(٢) « الحجّة في بيان المحجّة ... » (٢/٢٩٥) للأصبهاني .

« الصَّحيحين »[1] عن مُعاذةَ؛ أنَّها سألت عائشةَ رضي اللَّه عنها : ما بالُ الحائضِ تَقضي الصَّومَ ولا تَقضي الصَّلاة ؟!!

فقالت عائشةُ : **أحَروريَّةٌ[2] أنتِ ؟!**

قالت : **لستُ بِحَروريَّةٍ؛ ولكنّي أسألُ !**

فقالت : كان يُصيبُنا ذلك مع رسولِ اللَّه ﷺ؛ **فنُؤمَرُ** بقضاءِ الصَّومِ، **ولا نُؤمَرُ** بقضاءِ الصَّلاةِ .

أقولُ : فبالعقلِ المَحضِ : ما هو الفَرقُ بين الأمرين ؟!

﴿ نبِّئُوني بِعِلمٍ إنْ كُنتُم صادِقين ﴾ .

... لكنّ الجوابَ الفصلَ هو ما وَرَدَ على لسانِ **أمِّ المؤمنين** - رضي اللَّه عنها - وأنَّهُ عائدٌ - **حَسْبُ** - إلى « نُؤمَر ... » و ... « لا نُؤمَر ... » .

ثم هل هذا الجوابُ المنهجيُّ المنضبطُ مُتعلِّقٌ بهذه المسألة فقط ؟! أم هو **نَمَطٌ علميٌّ فكريٌّ تطبيقيٌّ** يندرجُ تحتَه كلُّ ما **يَتوهَّمُ** العقلُ خلافَهُ ! أو يُشكِل عليهِ لقصورِه وسذاجتِه ؟!

ليس مِن شَكٍّ أنَّه منهجٌ منضبطٌ لا غُبارَ عليه، ولا شكَّ فيه ...

وإلّا فَلْيُخبِرنا مَن (ما زال) مُسلِماً مِن (العقلانيّين) :

---

(١) انظر « إرواء الغليل » (رقم:٢٠٠) وتعليق شيخنا عليه .

(٢) هي فرقةٌ من الخوارجِ ضلَّت بأمورٍ، منها تحكيمُ عقولها على الشَّرع !!

ما هو التَّوجيهُ العقليُّ (**القطعيُّ**) في الفرق بين الجَنابةِ أو البولِ !

فالأوَّل - على طهارته - يُوجبُ غُسلاً، والثَّاني - على نجاسته - لا يُوجبُ أكثرَ مِن وضوءٍ !! مع أنَّهما من مخرجٍ واحدٍ ؟!!

وما هو التوجيهُ العقليُّ (**اليقينيُّ**) بين صلاتي المغرب والعشاء !! فكلتاهما في الليل، لكنّ الأُولى : ثلاثيَّةٌ، والثَّانية رُباعيَّةٌ !؟

بل ما هو الفرقُ (**العقلانيُّ**) بين الصَّلواتِ الخمسِ - في اليوم والليلةِ - ثنتان منها سريَّةُ القراءَةِ، وثلاثٌ جهريةُ القراءَةِ !

بل لماذا - **عقلاً** - الصَّلواتُ خمسٌ !! وليسوا أربعاً .. أو ستّاً ؟!

بل ما هو التَّعليلُ (**العقليُّ**) للتوجّه إلى القِبلةِ أثناءَ الصَّلاةِ ؟!

وما هو التَّعليلُ (**العقليُّ**) لتحويلِ القِبلةِ في فجرِ الإسلام من بيتِ المقدس إلى الكعبة المشرَّفة ؟

بل لماذا الطَّوافُ في الكَعبةِ ؟!
وما هي الحكمةُ مِنهُ ؟!
ولماذا نَطوفُ به سبعاً ؟!
وما هي القيمةُ (العقليَّة) للحَجَر الأسود ؟!

والتَّيمُّم : لماذا هو على الوجه والكفَّين (فقط) ؟! « ولو كان بالرَّأي [أو العقل]؛ لكان على أعضاءِ الوضوءِ، أو على جميعِ البَدَن »[1] !

(١) « الحُجَّة في بيان المحجَّة .. » (٢/٥٠٥) .

أقولُ :

لا يَسَعُ (العاقلَ) - بحقٍّ - إلّا أن يَتلوَ بإيمانٍ خاشعٍ، وخُشوعٍ مُؤمنٍ قولَ اللّهِ سبحانه :

﴿ مَا كانَ لِمُؤمنٍ وَلا مؤمنةٍ إذا قَضى اللّهُ ورسولُه أمراً أنْ يكونَ لهُم الخِيَرةُ مِن أمرهم ﴾ .

وقولَه سبحانه وتعالى :

﴿ يا أيُّها الّذينَ آمَنوا لا تُقدِّموا بينَ يَدَيِ اللّهِ ورَسولِه واتَّقوا اللّهَ ﴾ .

... ثمَّ ... لْيُبادر هذا (العاقلُ) إلى التَّنفيذِ باستسلامٍ لأمرِ اللّه، وأمر رسوله ﷺ .. دونما تَسريبٍ لأوهامه (العقليَّة)، ومِن غيرِ اتِّباعٍ لأهوائِهِ (العقلانيَّة) !!

وإلّا ...

فما هو الضَّابطُ في أجوبتكم الإيجابيَّةِ على السُّؤالاتِ السَّابقةِ بالرِّضا والتَّسليم - إنْ كُنتُم مُسلمين - !! ثم **ردُّكم** - في الوقت نفسه - مواضعَ أُخرى من السُّنَّة والحديثِ بحُجَّةِ عَدمِ (القناعة) أو مُخالفة (العقل) !!

فإنْ (أصرَرتُم) على التَّفريق بيَنهما ! فهو تَفريقٌ بلا حُجَّةٍ أو دليلٍ !!

وهذا خروجٌ عن قواعد العلم و (**العقل**) !

فإنْ ردَّ عقلانيٌّ - سواكم - شيئاً من هذا الذي سلَّمتم بهِ !

هل تُقرُّون ردَّه أم تخالفونَه ؟!

إنْ أقرَرتموه : ناقضتُم أنفسكم !

وإنْ خالفتموه : كان ذلك - أيضاً - سبيلَ مُناقضةٍ ! إذ كيف تُخالفون مَن يُساويكم في أصلِ المخالفةِ لشيءٍ تقبلون بعضَه وتردُّون بَعضَه !!

فليس أمامكم - **وَفقَ العقلَ الصَّريح** - إلّا أحدُ أمرين :

إمّا أنْ تَرُدُّوا تلك الأُمورَ كلَّها؛ سواءٌ أوافَقَتْها (عقولُكم) أم خالَفَتْها ؟!

وهذا كُفرٌ أكبرُ، وردَّةٌ عن الدِّين !!

وإمّا أن تُسلِّموا بها جميعاً؛ دونَ مُغايَرَةٍ، ومِن غيرِ تَفريقٍ - بيقين - !

وهذا هو سبيلُ المؤمنين !

لذا؛ فإنَّ « الصحابةَ - رضي اللّه عنهم - كانوا يستشكلونَ بعضَ النُّصوصِ فيُوردون إشكالاتهم على النَّبيِّ ﷺ فيُجيبُهم عنها، وكانوا يَسألونَه عن الجمعِ بين النُّصوص التي **يُوهمُ ظاهرُها التَّعارضَ** .

ولم يكُن أحدٌ منهم يُورِدُ عليه معقولاً يُعارِضُ النَّصَّ البتَّة، ولا عُرِف فيهم أحدٌ - وهُم أكملُ الأُمم عقولاً - عارضَ نصّاً بعقله يوماً من الدَّهر، وإنَّما حكى اللّهُ سبحانه ذلك عن الكفَّار »[1].

---

(١) « الصواعق المرسلة » (١٠٥٣/٣) .

قد كانوا - رضي اللَّه عنهم - شديدي التَّسليم بالسُّنَّة، ولو خالفَتْها عقولُهُم، وكانوا - أيضاً - شديدي الإنكار على مَن ردَّ السُّنن، أو قلَّل مِن أمرِها، بل على مَن نَصَبَ أدنى نَوعِ مُعارضةٍ بين السُّنن والعُقول .

« فكانت نُصوصُ رسولِ اللَّه ﷺ أجلَّ في صدورِهم وأعظمَ في قلوبهم من أن يُعارِضوها بقولِ أحدٍ من النَّاس كائناً مَن كان .

ولا يَثبتُ قَدَمُ الإيمانِ إلّا على ذلك، **وفتحُ بابِ هذه المُعارضةِ الباطلةِ سدٌّ لبابِ الإيمان** »[1].

والآثارُ في تسليمِ الصَّحابة - رضي اللَّه عنهم - للنُّصوصِ النبويَّة، واستبلامِهم لأحكامها، أكثرُ مِن أن تُحصى؛ أُورِدُ منها - زيادةً على ما سبق - نُبَذاً، لعلَّها تكونُ سبيلَ هدايةٍ يرجعُ به الغاوونَ، ويؤوبُ إليه الضالُّون، ويَعرِفُ - مِن خلالِهِ - المُهتدي حقيقةَ ما يقولُه العقلانيُّون :

الأوّل : ما رواه أبو داود (رقم:١٤٧) عن عليٍّ رضي اللَّه عنه، قال : **لو كان الدِّين بالرَّأي**[2]؛ لكان أسفلَ الخُفِّ أولى بالمَسحِ مِن أعلاه، وقد رأيتُ رسولَ اللَّه ﷺ يمسحُ على ظاهرِ خُفَّيهِ » .

وسندُهُ صحيحٌ؛ كما قال الحافظُ ابنُ حجر في « التَّلخيص الحبير » (١٦٠/١)، ووافقه شيخُنا الألباني في « صحيح أبي داود » (٣٣/١) .

---

(١) « الصواعق المرسلة » (١٠٦٥/٣) .

(٢) وفي « الحجّة في بيان المحجّة ... » (٥٠٥/٢) : « **بالعقل** »، وكلاهما بمعنىً .

الثَّاني : ما رواه البخاريُّ (١٦٠٥)، ومسلمٌ (١٢٧٠) عن عُمر رضي اللَّه عنه، أنَّهُ قال لمَّا قبَّل الحجرَ الأسودَ : « إنِّي لأعلمُ أنَّك حجرٌ لا تَضُرُّ ولا تنفعُ، ولولا أنِّي رأيتُ رسولَ اللَّه ﷺ يُقبِّلُكَ ما قبَّلتُك » .

الثَّالث : ما رواهُ مسلمٌ (٤٤٢)(١٣٥) عن ابن عُمر قال : سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقول : « لا تَمنَعوا نساءَكم المساجدَ إذا استأذَنَّكم » .

قال سالمُ بن عبداللَّه[1] :

فقال بلالُ بن عبداللَّه : واللَّهِ لَنمنَعَهُنَّ !!

قال سالمٌ : فأقبلَ عليه عبداللَّه؛ فسبَّهُ سبّاً سيِّئاً، ما سَمعتُهُ سبَّه مثلَه، وقال : أُخبرك عن رسولِ اللَّه ﷺ، وتقولُ : واللَّهِ لَنمنَعَهُنَّ ؟!

الرَّابع : ما رواهُ البخاريُّ (٦١١٧)، ومسلم (٦٠) عن عِمران بن حُصَين أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قال : « الحياءُ خيرٌ كُلُّه » .

فقال بُشَير بن كَعب : إنَّ فيه ضَعفاً !! وإنَّ منه لَعَجْزاً !!

فقال عِمران : **أُحدِّثُك عن رسولِ اللَّه ﷺ، وتجيءُ بالمعاريض**[2] ؟! لا أُحدِّثُك بحديثٍ ما عَرفتُك[3] .

فقالوا : يا أبا نُجيد ! إنَّهُ طيِّبُ الهوى ... وإنَّهُ ... وإنَّهُ ...

---

(١) وهو ابنُ ابنِ عُمر، وراوي الحديث عنه .

(٢) وفي روايةٍ : « وتُعارِضُ فيه ؟! » .

(٣) قال ابنُ القيِّم في « الصواعق » (٣/١٠٦٠) : « **ظنّ أن المُعارضَ زنديقٌ** » .

فلم يزالوا بهِ حتى سكَن[1].

الخامس : ما رواه أحمد (١/٣٣٧)، والخطيب في « الفقيه والمتفقّه » (١/٣٦٠) وغيرهم - بسند صحيح - عن عُروةَ بن الزبير، أنَّهُ قال لابن عبَّاسٍ : أضْلَلتَ النَّاس !

قال : وما ذاك يا عُرَيَّةُ !؟

قال : تأمرُ بالعُمرةِ في هؤلاءِ العَشْرِ، وليست فيهنّ عُمرة !

فقال : أَوَلا تَسأَلُ أُمَّك عن ذلك ؟

فقال عُروة : فإنَّ أبا بكرٍ وعُمر لم يَفعَلا ذلك !

فقال ابنُ عبّاسٍ : هذا الذي أهلَكَكُم، واللَّهِ ما أرى إلّا سَيُعَذِّبُكم؛ إنِّي أُحدِّثُكم عن النَّبيِّ ﷺ، وتُجيبونَ بأبي بكرٍ وعُمر !!

قال ابنُ القيِّم[2] - رحمه اللَّه - :

« فَرَحِمَ اللَّهُ ابنَ عبّاسٍ ! كيف لو رأى أقواماً يُعارضونَ قولَ اللَّهِ ورَسولِه بقولِ أرسطو، وأفلاطون، وابن سينا، والفارابي، وجَهم بن صَفوان، وبِشر المَريسيِّ، وأبي الهُذَيل العلّاف، وأضرابهم » .

قلتُ : رَحِمَ اللَّهُ ابنَ القيِّم ! كيف لو رأى (**عقلانيِّي القرن**

---

(١) هذا لفظُ ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (رقم:٨٨) .
وقارن بِـ « النُكت الظِّراف » (٨/١٩٩) للحافظ ابن حجَر .

(٢) في « الصواعق المرسلة » (٣/١٠٦٣) .

العشرين)، الأغمارَ الجَهَلَة، الَّذينَ يُعارضونَ السُّنَّة - بأنواعِ ما وردَ فيها كافَّةً - بمحضِ عقولهم القاصرة، وبمجرَّد أوهامهم الفاسدة، وبآرائهم الكاسِدَة !!

وهم في ذلك كُلِّه أقلُّ مِن أنْ (يعقلوا) كلامَ أَرِسْطو، وَجَهْم، والنَّظَّام ... وبقيَّة (عصابتهم) الضالَّة ... فَضلاً عن أنْ يكونوا أمثالَهم حتّى في ضلالاتهم !!!

فلعلَّ فيما سبقَ زاجراً لهم، وكاشفاً لحقيقتهم، وناقضاً لأهوائهم .

واللَّهُ الهادي إلى سواءِ السَّبيلِ .

o o o o o

الخاتمة

نسألُ اللّهَ حُسنَها

... ها نحنُ أُولاءِ - بحمدٍ مِن اللّه ومنَّةٍ - نَمشي بثباتٍ (**يقينيٍّ**) واستعلاءٍ (**قطعيٍّ**) ... فوقَ (أشلاءِ) المنهجِ (العقلانيِّ) الوافدِ؛ **بطَرَفيهِ** : **المُلحِد الكافِر ... والضَّالِّ** (المُنتَسبِ) أهلُه إلى الإسلام !! - **وما زالوا**(1)- !!!

ونَدوسُ بحُجَجِ الحقِّ (المُتَبَخْتِرَةِ) (رُكامَ) باطلِهِ الآفِكِ الآفِلِ ...

ونَرتفعُ بإباءٍ إيمانيٍّ تامٍّ فوقَ كلِّ الشُّبهاتِ (المُتَلَجلِجَةِ) التي (اختَرَعها) إبليسُ - **رائدُ المدرسةِ العقلانيَّةِ الأوَّلُ** - لهم، وورَّثها (أتباعَه)، فتلقَّفَها (أفراخُه) !!

وتلخيصاً لمقاصدِ ما قرَّرناه - قبلُ -، وتأصيلاً لقواعدِهِ ومُفرداتهِ؛ أقولُ:

---

(1) وهذا عجبٌ ... فسبحانَ اللّه ! اللهمَّ نسألُك الثَّباتَ .

« إنَّ اللَّه تعالى أسَّس دينَه وَبَناهُ على الاتِّباع، **وجعلَ إدراكهُ وقَبولَهُ بالعقلِ**؛ فَمِنَ الدِّين معقولٌ، وغيرُ معقولٍ[1]، **والاتِّباعُ في جميعِهِ واجبٌ** .

ومن أهلِ السُّنَّة مَن قال بلفظٍ آخرَ؛ قال : إنَّ اللَّهَ تعالى هُو الَّذي يُعرِّفُ العبدَ ذاتَه، فَيَعرِفُ اللَّهَ باللَّهِ لا بغيرِهِ، لقولِهِ عزّ وجلّ : ﴿ إنَّك لا تهدي مَن أحبَبتَ ولكنَّ **اللَّهَ يَهدي** مَن يشاء ﴾، ولم يَقُل : ولكنَّ العقلَ يَهدي من يشاء ! وقال تعالى : ﴿ وَيَهدي مَن يشاءُ إلى صِراطٍ مُستقيمٍ ﴾ .

والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ .

وقد ثبتَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : « واللَّهِ لولا اللَّهُ ما اهتَدَينا، ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا »[2].

فهذه الدلائلُ دلَّت أنَّ اللَّهَ تعالى هو المُعرِّفُ، إلّا أنَّهُ إنَّما يُعرِّفُ العبدَ نَفسَهُ مع وُجودِ **العَقلِ؛ لأنَّهُ سببُ الإدراكِ التَّمييزِ**، لا مع عَدمه، لأنَّ اللَّه تعالى قال : ﴿ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقَومٍ يَعقِلونَ ﴾، وقال : ﴿ إنَّ في ذلك لَذِكرى لِمَن كانَ لهُ قلبٌ ﴾، وقال سبحانه وتعالى مُخبِراً عن أصحابِ النَّارِ : ﴿ وَقالُوا لو كُنَّا نَسمَعُ أو نَعقِلُ ما كُنَّا في أصحابِ السَّعير ﴾ .

واللَّهُ يُعطي العبدَ المعرفةَ بهدايتِهِ، إلّا أنَّه لا يحصُلُ ذلك مع فَقْدِ العَقلِ؛ وهذا كما أنَّ العبدَ لا يعرفُ اللَّهَ بجسمِهِ، ولا بشخصِهِ، ولا برُوحِهِ، ولا يعرفهُ معَ عَدم جسمه، وشَخْصِه، وروحِه، كذلك لا يُعرَفُ اللَّهُ بالعقلِ، ولا

(١) أي : منه معقولُ الحكمة، ومنه غيرُ معقولها، لا أنَّه يُصادمُ العقولَ .

(٢) رواه البخاري (٢٨٣٧) عن البراء بن عازبٍ .

يُعرَفُ مع عَدمِ العقل .

ونظيرُ هذا أيضاً : أنَّ الولدَ لا يكونُ مع فَقدِ الوَطْءَ، ولا يكونُ - فقط - بالوَطْءِ، بل يكونُ بإنشاءِ اللَّهِ وخلقهِ .

وكذلك لا يكونُ الزَّرعُ إلّا في أرضٍ، وبَذْرٍ، وماءٍ، ولا يكونُ - فقط - بذلك، بل يكونُ بُقدرَةِ اللَّه وإنباتهِ؛ قال اللَّهُ تعالى : ﴿ أَفَرَأَيتُم ما تَحرُثونَ أَأَنتُم تَزرعونَهُ أم نَحنُ الزَّارعون ﴾؛ معناه : أأنتم تُنبِتونَه أم نحنُ المُنْبِتُون ؟! .

وأمثالُ هذا كثيرةٌ، والمُوفّق يَكتفي باليسير، والمَخذول لا يَشفيهِ الكثيرُ .

وقد قال بعضُ أهلِ المعرفة : إنَّما أُعطينا العقلَ لإقامةِ العبوديَّة، لا لإدراك الربوبيَّة، فمن شَغلَ ما أُعطيَ لإقامةِ العُبوديّة بإدراك الربوبيَّة، فاتَتهُ العبوديَّة، ولم يُدرك الربوبيَّة .

ومعنى قولنا : إنَّما أعطينا العقلَ لإقامةِ العبوديَّة، هو أنَّهُ آلةُ التَّمييزِ بين القبيحِ والحَسَن [1]، والسُّنَّة والبدعةِ، والرِّياءِ والإخلاصِ، ولولاه لم يكُن تكليفٌ ولا تَوَجُّهَ أمرٌ ولا نهيٌ، فإذا استعمله على قَدْرِه، ولم يُجاوِزْ بهِ حدَّهُ أدّاه ذلك إلى العبادةِ الخالصَةِ، والثَّباتِ على السُّنَّة واستعمالِ المُستحسَناتِ، وتَركِ المُستقبحات .

---

(١) بالتفصيل سابق الذِّكر؛ مِن أنَّه - أيضاً - لا يستقلُّ بذلك .

وقال بعضُهُم : العقلُ مُدبِّرٌ يُدبِّرُ لصاحبهِ أمرَ دنياه وعُقباه، فأوَّلُ تدبيرهِ الإشارةُ إلى المدبِّر الصَّانع، ثمَّ إلى معرفةِ النَّفسِ، ثم يشيرُ إلى صاحبهِ بالخُضوعِ والطَّاعةِ للَّه، والتَّسليم لأمرهِ، والمُوافقةِ له .

وهذا معنى قولهم : العاقلُ مَن عَقِلَ عن اللَّهِ أمرَهُ ونَهيَهُ .

وقال بعضهُم : العقلُ حُجَّةُ اللَّهِ على جميعِ الخلقِ، لأنَّهُ سببُ التَّكليفِ، إلّا أنَّ صاحبَهُ لا يَستَغني عن التَّوفيقِ في كلِّ وقت، ونفسُ العقلِ بالتَّوفيقِ كانَ، والعاقلُ مُحتاجٌ في كلِّ وقتٍ إلى توفيقٍ جديدٍ، تفضُّلاً من اللَّه تعالى، ولو لم يكُن كذلك، لكانَ العُقلاءُ مُستغنين عن اللَّهِ بالعقلِ، فيرتفعُ عنهم الخوفُ والرجاءُ، ويَصيرونَ آمنينَ من الخِذلان، وهذا تجاوزٌ عن درجةِ العبوديَّةِ وبُعْدٌ عنها، ومُحالٌ من الأمرِ؛ إذ ليس من الحِكمةِ أن يُنزِلَ اللَّهُ أحداً غيرَ منزلته، فإذا أغنى عبيدَه عن نفسهِ فقد أنزلهم غيرَ منزلتهم، وجاوزَ بهم حدودَهم، ولو كان هذا هكذا لاستوى الخَلقُ والخالقُ في معنىً من معاني الربوبيَّة، واللَّهُ تعالى ﴿ لَيسَ كَمِثلِهِ شَيءٌ ﴾ في جميعِ المعاني .

وقال بعضهُم : العقلُ على ثلاثةِ أوجهٍ :

عَقلٌ مولودٌ مَطبوعٌ، وهو عَقلُ ابنِ آدمَ الذي فُضِّلَ على أهلِ الأرضِ، وهو مَحَلُّ التَّكليفِ والأمرِ والنَّهي، وبه يكونُ التَّدبيرُ والتَّمييزُ .

والعقلُ الثَّاني : عقلُ التَّأييد، الذي يكونُ مع الإيمانِ معاً، وهو عقلُ الأنبياءِ والصدِّيقين، وذلك تفضُّلٌ من اللَّه تعالى .

والعقلُ الثَّالث : هو عَقلُ التَّجارِبِ، والعِبَرِ، وذلك ما يأخذُهُ النَّاسُ بعضهُم من بعضٍ، ومِن هذا قولُ مَن قال : مُلاقاةُ النَّاسِ تلقيحُ العقولِ .

وقال بعضُ أهلِ المعرفةِ : مِقدارُ العقلِ في المعرفةِ كمِقدارِ الإبرةِ عند ديباجٍ أو خزٍّ؛ فإنَّهُ لا يُمكنُ لُبسُ ديباجٍ أو خزٍّ إلّا أن يُخاطَ بالإبرةِ، فإذا خِيطَ بالإبرةِ فلا حاجَةَ لها إلى الإبرةِ .

كذلك تُضبَطُ المعرفةُ بالعقلِ، لا أنَّ المعرفةَ تحصُلُ من العقلِ أو تثبتُ به .

واعلَم أنَّ فَصلَ ما بَينَنا [معشرَ أهلِ السُّنَّة] وبينَ المُبتَدعين هو مسألةُ العقل :

فإنَّهم أسّسوا دينَهم على المعقولِ، وجَعَلوا الاتِّباعَ والمأثورَ تَبَعاً للمعقولِ .

وأمَّا أهلُ السُّنَّة؛ قالوا : **الأصلُ في الدِّين الاتِّباعُ، والمعقولُ تَبَعٌ**، ولو كان أساسُ الدِّين على المعقولِ لاستغنى الخَلْقُ عن الوَحي، وعن الأنبياءِ، وَلَبَطَلَ معنى الأمرِ والنَّهي، ولقالَ مَن شاءَ ما شاءَ .

ولو كان الدِّينُ بُنيَ على المعقولِ لجازَ للمُؤمنين أنْ لا يَقبَلوا شيئاً حتى يَعقِلوا !!

ونحنُ إذا تدبَّرْنا عامَّةَ ما جاءَ في أمرِ الدِّين من ذكرِ صفاتِ اللَّهِ، وما تعبَّدَ النَّاسَ به من اعتقادِهِ، وكذلك ما ظهرَ بين المسلمين، وتداوَلوه بينهم،

ونَقلوهُ عن سَلَفِهم، إلى أن أسنَدوهُ إلى رسولِ اللَّه ﷺ مِن ذكرِ عذابِ القبرِ، وسؤال مُنكرٍ ونكيرٍ، والحَوضِ، والميزانِ، والصِّراطِ، وصفاتِ الجنَّةِ، وصفاتِ النَّارِ، وتخليدِ الفَريقين فيهما، أمورٌ[1] لا نُدْرِكُ حقائقَها بعقولنا، وإنَّما وَرَدَ الأمرُ بقَبولِها، والإيمانِ بها .

فإذا سَمعنا شيئاً من أُمورِ الدِّين، وعَقِلناهُ، وفَهِمناهُ، فللَّهِ الحمدُ في ذلك والشُّكرُ، ومنه التَّوفيقُ، وما لم يُمكنُنا إدراكُهُ وفهمُهُ، ولم تَبلُغْه عقولُنا آمنّا به، وصدَّقناهُ، واعتَقَدنا أنَّ هذا من قِبَلِ ربوبيَّتِهِ وقُدرَتِهِ، واكتفينا في ذلك بعلمِهِ ومشيئتِهِ .

وقال اللَّهُ تعالى في مثلِ هذا : ﴿ يَسألونَكَ عن الرُّوحِ قُل الرُّوحُ مِن أمرِ ربِّي وما أُوتيتُم مِنَ العِلم إلّا قليلاً ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَلا يُحيطونَ بشيءٍ مِن عِلمِه إلّا بما شاءَ ﴾ .

ثمَّ نقولُ لهذا القائلِ الذي يقول : بُنيَ دينُنا على العقلِ، وأُمرنا باتِّباعهِ :

أخبِرْنا إذا أتاكَ أمرٌ من اللَّهِ يُخالفُ عَقلَكَ فبأيِّهما تأخذُ ؟ بالَّذي تعقِلُ، أو بالذي تُؤمَرُ ؟

---

(١) ولو سألتَ - حفِظكَ اللَّهُ مِن شرِّ الشيطان وشِرْكِهِ - خمسةَ أشخاصٍ من (عقلانيّي اليوم) عن هذه القضايا المعدودةِ هنا؛ لخرجوا عليك مُختلفين ... كلٌّ منهم يقولُ قولاً فيه إيمانٌ بأمرٍ قد يُنكرهُ (صاحبهُ) ! ... ومع ذلك (يقولون) : هذا قطعيٌّ ... وذاك ظنّيٌّ !!
عجباً لهم ... لا عُقولَ عندهم ... ويتبجَّحونَ بالعقلانيّة !!
نعم؛ إنّها عقلانيّة الجهل ... والتّعالم ... والتّطاول !!

فإن قالَ : بالذي أعقِلُ، فقد أخطأَ، وترَكَ سبيلَ الإسلامِ !

وإنْ قالَ : آخُذُ بالذي جاءَ من عندِ اللَّه، فقد تركَ قولَه .

وإنَّما علينا أنْ نَقبَلَ ما عَقِلناهُ إيماناً وتَصديقاً، وما لم نَعقلهُ قَبِلناهُ استسلاماً وتَسليماً .

وهذا معنى قولِ القائلِ من أهلِ السُّنَّة : **إنَّ الإسلامَ قنطرةٌ لا تُعبَرُ إلّا بالتَّسليم** .

فنسألُ اللَّهَ التَّوفيقَ فيه، والثَّباتَ عليه، وأن يتوفَّانا على مِلَّةِ رسولهِ ﷺ بمنّه وفَضلهِ »[١].

(١) « الحُجّة في بيان المحجّة » (١/٣١٧-٣٢٢) للأصبهاني .

وبعدُ :

فيا أيُّها العقلانيُّون ! لا يَحجبنَّكم عن دَفنِ أفكارِكُم الوافِدَةِ البائدةِ هوىً ... ولا استعلاءٌ ... ولا كِبرٌ !

ولا يَمنعنَّكم مِن قَبولِ الحقِّ والانصياعِ لحُكمِهِ شُهرةٌ ... ولا جاهٌ ... ولا صِيتٌ !

لا تُدافِعُوا - بعد الدَّلائل السَّابقة كلِّها - باستكبارٍ عن فكرةٍ عُرِفتُم بها أو عُرِفَت بكم !

لا تَدفَعوا في صَدرِ دلائل الهُدى الواضحةِ البيِّنةِ بِـ (قيل) و (لعلَّ) و (قَد) و (يُحتَمَل) !!

واعلموا أنَّ « الحقَّ ثقيلٌ، وهو معَ ثِقَلِهِ مَريءٌ، وأنَّ الباطلَ خفيفٌ، وهو معَ خِفَّتهِ وبيءٌ »[1].

فالأَوبةَ الأَوبةَ ... والرُّجوعَ الرُّجوعَ ...

والتَّوبةُ مَعروضةٌ ... فاغتَنِموها ...

وإلّا ...

(١) « تهذيب الكمال » (٥/٥٠٨) .

فاجأَكُم الموتُ ... وعُرِضتُم على ربِّكم مُثقَلين بضلالاتكم المُتناقضةُ !! وبتناقُضاتكم الضَّالَّة !!

وأنتُم يا أهلَ الحقِّ، ودُعاةَ السُّنَّة ! احمَدوا اللَّهَ على النِّعمةِ العظيمةِ التي هَداكم إليها؛ نعمةِ التَّسليم والانقيادِ ... لأمرِ اللَّه وأمرِ رسولهِ ﷺ .

واعلَموا أنَّكم - بذلك - خيرُ خَلَفٍ لخَيرِ سَلَفٍ .

واللَّهُ ربُّنا - سبحانه - يقولُ واصفاً أهلَ الإيمانِ الحقِّ :

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنونَ حتّى يُحَكِّمُوكَ فيما شجرَ بينهُم ثمَّ لا يَجِدُوا في أنفُسهِم حَرَجاً ممَّا قضيتَ ويُسلِّموا تَسليماً ﴾ .

وختاماً : ما أجملَ قولَ القائلِ :

عِلمُ العَليمِ **وعَقلُ العاقلِ** اخْتَلَفا
مَن ذا الَّذي فيهما قَد أَحرَزَ الشَّرَفا
فالعلمُ قال : أنا أحرَزْتُ غايَتَهُ
والعقلُ قال : أنا الرَّحمنُ بي عُرِفا
فأفْصَحَ العلمُ إفْصاحاً وقال له :
بأيِّنا اللَّهُ في قُرآنهِ اتَّصَفا
فَأَيْقَنَ **العَقلُ** أنَّ العِلمَ سَيِّدُهُ
فَقَبَّلَ **العقلُ** رَأْسَ العلمِ وانْصَرَفا

وَرَحِمَ اللَّهُ العلّامةَ الإمامَ ابنَ القيِّم، القائلَ في كتابِهِ العظيمِ « الصواعق المُرسلة » (٣/٩٧٨-٩٨١) :

فعلى عُقولِكُم العَفَاءُ فإنَّكُمْ
عادَيتُمُ المَعْقولَ والمَنْقُولا

وَطَلَبْتُمُ أَمْراً مُحالاً وَهْو إدْ
راكُ الهُدى لا تَبتَغونَ رَسولا

وَزَعَمتُمُ أنَّ العُقولَ كَفِيلَةٌ
بالحقِّ أينَ العَقلُ كانَ كَفيلا

وَهُوَ الذي يَقضي فَيَنقُضُ حُكمَهُ
عَقلٌ تَرَونَ كِلَيهِما مَعْقولا

وَتَراهُ يَجزِمُ بالقَضاءِ وَبَعدَ ذا
يُلْفى لَدَيهِ باطِلاً مَعْلولا

لا يَستَقِلُّ العقلُ دونَ هدايَةٍ
بالوَحيِ تَأصيلاً ولا تَفْصيلا

كالطَّرْفِ دونَ النُّورِ ليسَ بِمُدْرِكٍ
حَتَّى يَراهُ بُكرَةً وَأَصيلا

فإذا النُّبوَّةُ لم يَنَلْكَ ضِياؤُها
فالعَقلُ لا يَهديكَ قطُّ سَبيلا

نورُ النُّبوَّةِ مِثلُ نورِ الشَّمسِ لِلْـ
ـعَينِ البَصيرةِ فاتَّخِذهُ دَليلا
طُرُقُ الهُدى مَحدودةٌ إلّا على
مَن أمَّ هذا الوَحيَ والتَّنزيلا
فإذا عَدَلْتَ عَن الطَّريقِ تَعَمُّداً
فاعْلَمْ بأنَّك ما أرَدْتَ وُصُولا
يا طالِباً دَرْكَ الهُدى بالعَقلِ دُو
نَ النَّقلِ لَنْ تَلقى لِذاكَ دَليلا
كَمْ رامَ قَبْلكَ ذاك مِن مُتَلَدِّدٍ
حَيْرانَ عاشَ مَدَى الزَّمانِ جَهولا
ما زالَتِ الشُّبُهاتُ تَغزو قَلْبَهُ
حَتَّى تَشَحَّطَ بَيْنَهُنَّ قَتيلا
فتراهُ بالكُلّيِّ والجُزْئيِّ والـ
ذاتيِّ والعَرْضيِّ طُولَ زَمانِهِ مَشغولا
فإذا أتاهُ الوَحيُ لم يَأذَن لهُ
وَيقومُ بين يَدَيْ عِداهُ مَثيلا
ويقولُ : تِلك أدلّةٌ لَفظِيَّةٌ
مَعزولَةٌ عن أن تكونَ دَليلا

وإذا أَبَتْ إلّا النُّزولَ عَليه كا
نَ لها القِرى التَّحريفَ والتَّبديلا

فَيَحِلُّ بالأعداءِ ما تلقاهُ مِنْ
كَيْدٍ يكونُ لِحَقِّها تَعطيلا

واضْرِب لهُم مَثلاً بعُميانٍ خَلَوْا
في ظُلْمةٍ لا يَهتَدونَ سَبيلا

فَتَصادَموا بأُكُفِّهم وَعِصيِّهم
ضَرباً يُديرُ رَحا القِتالِ طَويلا

حتَّى إذا مَلُّوا القِتالَ رَأَيتَهُم
مَشجوجاً او مَفْجوجاً او مَقتولا

وتَسامَعَ العُميانُ حتى أقْبَلُوا
للصُّلحِ فازدادَ الصِّياحُ عَويلا

... وآخِرُ دَعوانا أنِ الحمدُ للّهِ ربِّ العالمين .

وكتبَ :
أبو الحارثِ الحَلبيُّ الأثريُّ
صبيحةَ يوم الأربعاء :
لسبعةِ أيّام بَقينَ من جُمادى الأول
سنة ثلاث عشرةَ وأربع مئة وألف للهجرةِ النبويَّة .

فهرس الأبحاث والفوائد